علم النفس السياسى

(رؤية مصرية عربية)

دكتور / محمد المهدى



مكتبة الأنجلو المصرية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية.

المهدى ، محمد

علم النفس السياسى : رؤية مصرية عربية / تأليف: محمد المهدى . – ط١ . –

القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٧ .

٢٨٣ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

١- علم النفس السياسى

أ- العنوان

رقم الإيداع : ١٤١١٤

ردمك : ٩٧٧-٠٥-٢٣١٦-x   تصنيف ديوى : ١٥٩

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

الناشـر : مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة – جمهورية مصر العربية

ت : ٢٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٢٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website : www.anglo-egyptian.com

إهـــداء

إلى كل من يبــذل جـهـداً مـخلصـاً
لإصــلاح أحــوال الناس والحــيــاة
وعـمــارة الكون سـعـيـاً لوجـه الله

الفهرس العام

مقدمة

إلى وقت قريب كانت دراسة السياسة ترتبط بالأبنية والمنظمات السياسية أكثر مما ترتبط بعلم النفس وقوانين السلوك على الرغم من تأثير النواحى النفسية بشكل كبير فى سلوك القادة والجماهير وفى العلاقة بينهما وفى العلاقة التعاونية والتنافسية بين الأحزاب وبعضها البعض وبينها وبين الجماهير التى تختارها . ولا شك أن الفلاسفة القدماء كانت لهم إسهامات كبيرة فى علم النفس السياسى ولكنها كانت تندرج تحت الفلسفة الإجتماعية . ويبدو أن ثمة محاذير كثيرة فى الفترات التاريخية المتعاقبة كانت تحول دون اقتراب الكثير من الفلاسفة والعلماء من معترك السياسة وقوانينها، وربما قد أخر هذا نمو علم النفس السياسى لسنوات طويلة ، فقد نشأ بوصفه علما أكاديميا وتطبيقيا فى تقدير «مورتون دويتشن» فى الفترة مابين الحربين العالميتين الأولى والثانية نتيجة لما ظهر خلالها من اضطرابات سياسية متلاحقة، وقيام نظم شمولية استعانت بوسائل الدعاية، وقيام نظم ديموقراطية بالرد عليها، وحدثت حالة من الحراك وربما الصراع فرضت البدء فى دراسة طبيعة العلاقة بين الممارسات السياسية والجوانب النفسية والسلوكية. وقد قام هذا العلم الوليد على أسس موجودة قبلا فى العلوم النفسية وهى دراسات الشخصية ، وسيكولوجية وديناميات الجماعة والقيادة، والأسس النفسية لتكوين الإتجاهات ، ومهارات حل الصراع،... وغيرها ، مع تعديل جوهرى وهو تطبيق كل ذلك على مجموعات كبيرة وقوى ضغط ومصالح متباينة .

والسلوك السياسى هو عملية إدارة تهدف إلى تخفيف التوتر الإجتماعى وحل جماعى للمشكلات والصراعات ، والإستفادة من مساحات الإتفاق لاتخاذ قرار جماعى. فالمجموعات البشرية التى تشكل المجتمع فى حالة تنافس وأحيانا صراع، والسياسة هنا تهدف إلى إدارة التنافس والصراع وخلق حالة من التعاون على الرغم من التباين ، تلك الحالة التى يشعر معها الجميع بتوازن دينامى واستفادة جماعية .

والجماعة البشرية قد وصلت إلى تلك القناعات بعد حروب دامية وصراعات أهلية مريرة راح ضحيتها الملايين من البشر ، فقام الحكماء والعلماء باستلهام قيم ومبادئ الأديان والفلسفة والعلوم الإجتماعية لصياغة هذا العلم الذى يقوم فى صورته الصحيحة على مبادئ التعددية والتبادل السلمى للسلطة ، والعدل فى توزيع الثروات والمكاسب ، واحترام رأى الجماهير ، والحد من استبداد السلطة ، وإعلاء قيم الحرية والمساواه والمواطنة . وقد حققت هذه المبادئ استقرارا ملحوظا فى المجتمعات التى أخذت بها ، أما بقية المجتمعات – ومنها مجتمعاتنا العربية – والتى لم تأخذ بهذه المبادئ لسبب أو لآخر فقد ظلت تتخبط وترسف فى أغلال الدكتاتورية والإستبداد ، وتعانى تخلفا اجتماعيا وتدهورا اقتصاديا (على الرغم من وفرة الموارد) ، وتعيش فى حالة صراع ظاهر أو خفى بين قوى مختلفة لا تجد صيغة للتعايش السلمى المتوازن ، حتى بات الأمر يهدد بتشققات وانقسامات مدمرة ظهرت نتائجها فى العراق وفى السودان وفى لبنان ، وهى فى طريقها إلى بقية أقطار الوطن العربى الذى لا يرغب أبناؤه فى التعلم من عبر التاريخ والأخذ بمعطيات العلم ومنها علم النفس السياسى ، ذلك العلم الذى يتوقع له أن يظل متأخرا فى عالمنا العربى – للأسف الشديد – لسنوات طويلة أخرى تسير فيها الأمور بعيدا عن هذا التفكير الراشد لتحقيق مصالح شخصية أو فئوية أو طائفية معينة ، ويعيش الناس طبق قوانين القطيع التى تفترض أحادية الرؤية وأحادية التوجيه وتفترض فى الحاكم العصمة والقدرة على أن يسوق الجماهير الغافلة المستسلمة طوعا أو كرها بعصاه الغليظة .

ويجد الباحث العربى صعوبة فى الحصول على دراسات أو كتب فى هذا المجال الحيوى على الرغم من وفرة كل ذلك فى التراث الأجنبى ، وقد يكون لهذا دلالة تعكس قدر الإهتمام ومساحة التطبيق ، فالعلوم الحقيقية تنشأ حين تجد قاعدة انطلاق من النفوس ومساحة للتطبيق فى حياة الناس اليومية . وقد دفعنى هذا إلى البدء فى كتابة هذه الدراسة فى علم النفس السياسى علها تكون لبنة فى الأساس

تلحقها دراسات أخرى تقويها أو تطورها أوتعدلها أوتعلو فوقها إلى أن يأتى اليوم الذى يقتنع فيه أبناء جلدتنا بضرورة الأخذ بمعطيات العلم فى هذا الجانب الحيوى من جوانب الحياة ، ونرجو أن يحدث هذا قبل أن يفوت الأوان ونجد أنفسنا فى صراعات مذهبية أو طائفية أو سلطوية تعيدنا إلى الوراء مئات السنين لنبدأ درس التاريخ (الذى لم نتعلمه بعد) من أوله ، وليتنا نعلم أو نتعلم .

دكتور/ محمد المهدى

استشارى الطب النفسى
محمول ٠١٢٢٨٨٦٥٣٧
٠٥٠/٢٢٣٣٢٩٠
٠٥٠/٢٢٥٠٦٦٦
٠٢/٧٩٥١١٧٣

الباب الأول

(سيكولوجية السلطة)

١- الرئاسة بين الزعامة والوظيفة

٢- سيكولوجية الاستبداد

٣- سيكولوجية التعذيب

٤- أمراض السلطة

٥- قادة العالم واضطرابات الشخصية

الفصل الأول

الرئاسة بين الزعامة والوظيفة

لاتستقيم حياة البشر دون أن يكون هناك رئيسا ومرؤسا،حاكما ومحكوما،جنديا وقائدا،وعلى أساس شخصية كل من هؤلاء وديناميات العلاقات القائمة بينهما تكون نوعية الحياة وعلامات التحضر والرقى .

إشكالية العلاقة بين الحاكم والمحكوم :

ذكر العلامة ابن خلدون فى مقدمته العظيمة (والتى هى أصل علم الإجتماع الحديث) أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك وأن آفتهم الرئاسة،ويصف سلوك الملك أو الأمير أو الرئيس بقوله : وإذا تعين له ذلك ومن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والأنفة،فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة فى استتباعهم والتحكم فيهم،ويجئ خلق التأله الذى فى طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكام لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (الأنبياء ٢٢)،فيجدع حينئذ أنوف العصبيات (الأحزاب والجماعات بلغة العصر) ويكبح شكائمهم عن أن يسموا إلى مشاركته فى التحكم،يفرع عصيهم عن ذلك،وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لأحد منهم فى الأمر ناقة ولا جملا فينفرد بذلك المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته فيه . وقد يتم ذلك للأول من ملوك الدولة و وقد لايتم للثانى أو الثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوتها ,إلا أنه أمر لابد منه فى الدول (مقدمة ابن خلدون ص ١٩٦ وص ٢١٦ – دار الفجر للتراث) . ورغم مرور السنين على هذا القول (ابن خلدون ١٣٣٢-١٤٠٦ م) إلا أن مشكلة الرئاسة لدى العرب تشكل عقبة فى طريق نموهم وتطورهم ،والأمر يرجع إلى ماقبل ذلك بكثير ربما إلى وقت الصراع الذى دار بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما حول الخلافة واستعر الصراع فى عصر يزيد،وهذا ربما يدلنا – كما نقول فى علم النفس – على أن هناك صراعا لم يحسم أو عقدة لم تحل فى هذا الموضوع تجعل المجتمعات العربية فى حالة

تأزم فى معظم فترات تاريخها على الرغم مما امتلكته من عوامل قوة حضارية إلا أن مأساته كانت فى أمر الملك والرئاسة والإدارة . وقد آثر الكثيرون من فقهاء الأمة وعلمائها الإنصراف عن هذا الأمر الملئ بالعقبات والمشكلات والمهالك إلى التأليف فى علوم اللغة والتفسير والفقه،ومن تصدى منهم وكتب فى أمور السياسة والحكم كتبها تحت ضغوط عصره وظروف بلده فجاءت بعيدة عما يجب أن يكون . وفى مصر قد تعود الأزمة إلى زمن الفراعنة نظرا لطبيعة المجتمع النهرى الذى استدعت وجود سلطة مركزية تدير النهر وما يترتب عليه من أحوال الزراعة فى الفيضان والجفاف، فكانت هذه السلطة المركزية تميل كثيرا إلى الإستبداد وتميل الجماهير إلى الخضوع والمداهنة ومحاولات تفادى بطش السلطة .

وفى القرن السادس عشر جاء السياسى البراجماتى نيقولا ميكيافيللى وكتب كتاب الأمير والذى كان صدمة لكل دعاة العدل والحرية فى المجتمعات البشرية حيث حوى هذا الكتاب نصوصا وتعليمات ونصائح للأمير تشكل دستورا للإستبداد والطغيان تحت دعوى الواقعية والبراجماتية وتحقيق المصلحة واستقرار الحكم . وقد كان ميكيافيللى مدفوعا فى كتابته لهذا الكتاب بكراهية ورفض لتحكمات الكنيسة ورجال الدين فى عصره فأراد أن يفصل تماما بين الدين والسياسة،وتمادى فى ذلك بأن فصل بين الأخلاق والسياسة فكان كتابه بعيدا عن الإلتزام بأى أخلاق متعارف عليها بحجة أن الأخلاق تفسد السياسة وتحد من فاعلية السياسى وقراراته . وفى نهاية القرن التاسع عشر كتب جوستاف لوبون كتابه الشهير سيكولوجية الجماهير ليصف فيه الطرف الآخر المقابل للسلطة وهو الجماهير فقال عنها : إن الجماهير أبعد ما تكون عن التفكير العقلانى المنطقى،وكما أن روح الفرد تخضع لتحريضات المنوم المغناطيسى فإن روح الجماهير تخضع لتحريضات وإيعازات أحد المحركين أو القادة الذى يعرف كيف يفرض إرادته عليها،وفى مثل هذه الحالة من الإرتعاد والذعر فإن كل شخص منخرط فى الجمهور يبتدئ فى تنفيذ الأعمال الإستثنائية التى ماكان

مستعدا إطلاقا لتنفيذها لوكان فى حالته الفردية الواعية والمتعقلة . فالقائد أو الزعيم إذ يستخدم الصور الموحية والشعارات البهيجة بدلا من الأفكار المنطقية والواقعية يستملك روح الجماهير (سيكولوجية الجماهير – ترجمة هاشم صالح،دار الساقى،بيروت) .

وإذا أضفنا صورة الأمير لمكيافيللى كرمز للسلطة إلى صورة الجماهير لدى جوستاف لوبون فإننا نحصل على منظومة كاملة للعلاقة السلبية بين الحاكم والمحكوم.

المجتمع الأبوى والسلطة:

وعلى الرغم من أن المجتمعات البشرية قد استفادت من أزماتها وصراعاتها فى هذا المجال ووضعت آليات تضمن سلاسة وإيجابية العلاقة بين الحاكم والمحكوم بدرجة معقولة نسبيا تبدت فى نظم ديموقراطية ومؤسساتية حديثة إلا أن العرب مازالوا من بين أمم الأرض يتخبطون فى هذه الدائرة دون بادرة أمل لخروجهم منها فى المستقبل القريب،ففى مصر والعالم العربى على وجه العموم أزمة حقيقية فى الوقت الراهن سببها ذلك الصراع الخفى أحيانا والظاهر أحيانا أخرى بين فكرة المجتمع الأبوى وفكرة المجتمع الناضج،فالمجتمع الأبوى يقوم على أساس أن هناك والدا أو مسئولا أو رئيسا يملك كل شئ ويعرف كل شئ ويوجه كل شئ وله احتراما خاصا قد يصل إلى درجة القداسة التى تستوجب الطاعة العمياء من الأبناء أو التابعين أو الرعية والذين ينحصر دورهم فى الإتباع والإنصياع والتنفيذ،وهذه هى المنظومة التى مازالت قائمة على المستوى الأسرى والوظيفى والعام،أما المجتمع الناضج والذى تنادى به العقلاء والراشدون من البشر فهو الذى يوزع المهام والأدوار بين أفراد ومجموعات يتسمون جميعا بالنضج والمسئولية دونما تضخيم أو تقديس لأحد وذلك ضمن منظومات متطورة ومرنة وفاعلة وقابلة للتغيير الإيجابى . ويبدو أن هذه الأزمة مرشحة للتفاقم حاليا وبقوة بسبب حالة العولمة الثقافية التى أتاحت لفئات كثيرة رؤية واسعة للعالم الأوسع وما يجرى فيه مما فتح الباب أمام مقارنات مؤلمة ومحفزة ومفجرة،فعلى الرغم من سيادة فكرة المجتمع الأبوى على المستوى الرسمى

إلا أنه على المستوى الإجتماعى والثقافى قد حدثت تحولات هائلة تجاه فكرة المجتمع الناضج بعضها مازال على مستوى التنظير والأمنيات وبعضها دخل حيز التنفيذ على حذر أحيانا واستحياء فى أحيان أخرى،وفى المقابل يقاتل الآباء (على المستوى الأسرى والمؤسساتى والحكومى) من أجل إبقاء الأوضاع القائمة كما هى بما يخدم تربعهم على عرش السلطة والسطوة والأمر والنهى،وهم حين يدركون تغير الزمن والأحوال والظروف ربما يحاولون التظاهر بمسايرة ضرورات التغيير والتحول من حيث الشكل دون المضمون،ولكن من المؤكد أن عجلة التطور تدور ولا يستطيع أحد مهما كان أن يوقفها طول الوقت .

وبما أننا فى الواقع مازلنا نعيش حقبة المجتمع الأبوى لذلك تشكل شخصية الرئيس – كما قلنا – المحور الأساسى فى التخطيط والتوجيه والتحريك والتوقيف حيث أن زمام الأمور دائما بيده فهو يضبط إيقاع حركة المجتمع الذى يقوده وفق رؤاه الشخصية،ونحن نقصد بالرئيس هنا كل صاحب سلطة على المستويات المختلفة بدءا من الوالد فى الأسرة (وأحيان الوالدة فى بعض الأسر) مرورا بالمديرين ورؤساء مجالس الإدارات ورؤساء الأقسام والعمداء والوزراء وانتهاءا بأعلى سلطة سياسية (ونحن نركز على كل المستويات حتى لا تختزل جهود الإصلاح على مستوى دون غيره)،وما دام الأمر فى الواقع كذلك (بصرف النظر عن قبولنا أو رفضنا) فإن شخصية الرئيس (فى أى موقع أو مستوى) تصبح جديرة بالدراسة والتأمل لأن من خلال فهمنا لها نستطيع فهم ما يجرى وتوقع ما سوف يحدث فالأمور لا تسير فى الأغلب حسب ما تمليه الدساتير والقوانين واللوائح بقدر ما تسير حسب ما يرى الرئيس أو الملك أو الأمى أو المسئول ولهذا فأنت لا تحتاج أن تتعب نفسك فى قراءة الدستور أو القانون فى كثير من الدول العربية والمؤسسات العربية بقدر ما تحتاج أن تعرف من هو الشخص الذى يترأس هذا المكان وما هى سماته الشخصية،أى أننا أمام حالة شخصنة للتوجهات والرؤى والسياسات،وبمعنى آخر نحن أمام ما يسمى بسلطة الشخص أو سلطة السلطة (يقابلها فى المجتمعات المتقدمة سلطة القانون)

أنماط من الشخصيات الرئاسية :

سوف نستعرض نماذج من الشخصيات الرئاسية لنرى كيف أثرت وتؤثر فينا،وقد يكون فى بعضها تشابها فى بعض الملامح مع شخصيات عامة أو خاصة حقيقية فى الماضى أو فى الحاضر،وهذا ليس مقصودا فلسنا بصدد الحديث عن أشخاص بعينهم مهما كانت أهميتهم،وإنما نتحدث عن ملامح نفسية لنماذج فيها جوانب إيجابية وأخرى سلبية بهدف الوصول إلى رؤية موضوعية متوازنة تجاه أمر يؤثر فى حياتنا اليومية جميعا بشكل مباشر أو غير مباشر،وأنبه القارئ أنه سيغلب علينا الحديث عن المستويات الأعلى للسلطة الأبوية بهدف رؤية النموذج فى أوضح صوره ولكن نرجو ألا نغفل عن بقية مستويات السلطة الممثلة فى الأب (أو الأم) وفى مدير المدرسة وإمام المسجد وكاهن الكنيسة ومدير المؤسسة ورئيس مجلس إدارة الشركة والوزير .... الخ ،وذلك حتى لا تختزل رؤيتنا للإصلاح فى مستوى دون آخر:

الزعيم الملهم: وهو شخصية تتمتع بكاريزما شخصية عالية وجاذبية جماهيرية طاغية،وقد جاء هذا الزعيم فى ظروف تاريخية أو سياسية أو اجتماعية خاصة جعلته يستقبل على أنه المنقذ والمخلص والبطل الأسطورى،واستطاع هو أن يتجاوب مع الأحلام والأمنيات والطموحات الشعبية وبذلك أصبح بطلا شعبيا تعامل معه الناس على أنه ملهم يتوجه نحو الصواب دائما ولديه بوصلة خفية وسحرية تهديه الرشد،فهو محق فى كل ما يراه ويقرره ويفعله . وهذا الزعيم يخدمه ويهئ لبروزه مجيئه فى لحظات ضعف وانكسار ثم قدرته على تحقيق بعض الإنتصارات المبهرة للعامة،ومن هنا ينشأ الإعتقاد فى تفرده وإلهامه وتنشأ الرغبة لدى الجماهير الساذجة والمستلبة والسلبية والإعتمادية فى اتباعه والإنقياد لكل ما يراه ،وإضفاء كل صفات البطولة والقدرةالخارقة عليه،وهم يفعلون ذلك بدافع خفى واحتياج نفسى لديهم وهو أن يعفو أنفسهم من مسئوليات التفكير وبذل الجهد والحيرة والقلق والفعل ويلقون بكل شئ على أكتاف بطل أسطورى ملهم وقادر يعرف ماذا يفعل ومتى وأين يفعل،وغالبا ما يقع

الزعيم الملهم فى الفخ خاصة وأن سماته الشخصية تكون أقرب للنمط البارانوى (المتعالى - المستبد) فتتضخم ذاته أكثر وأكثر ويحكم قبضته على عجلة القيادة ويتخلص من كل من يعارض توجهه أو توجه رعيته (خاصة أنه شكاك ضمن طبيعته البارانوية) ،ويتواصل تضخم الذات لدى الزعيم الملهم حتى تبتلع الوطن بأكمله ويصبح هو والوطن شيئا واحدا،بل قد تتجاوز الذات حدود الوطن الضيق فتحاول التمدد خارج هذه الحدود فى آفاق أوسع من خلال محاولات (أو مغامرات) التوسع تحت أى دعوى وشيئا فشيئا يصبح الزعيم نموذجا للبطولة لدى كل المقهورين والمظلومين فى العالم ويصبح أبا روحيا لكل الساعين إلى التحرر .

والزعيم الملهم غالبا ما يتصف بالطلعة المهيبة وارتفاع القامة وقوة البنيان ولمعة العينين وعمق النظرة وحسن الملبس،فهو يمثل صورة البطل التى يرى فيها البسطاء أنفسهم . وهوقادر على مخاطبة الجماهير بصوته الجهورى العميق ونبرته الحماسية التى توقظ بداخلهم الإحساس بالكرامة واحترام الذات وتنتشلهم من حالة اليأس والإنبطاح والإستذلال والخوف من الأعداء . والخطاب الجماهيرى الحماسى من ضرورات وجود الزعيم الملهم خاصة وسط جماهير تزيد فيها نسبة الأمية وتعلى من قيمة الكلمة المسموعة وتشكل اللغة أحد أهم دعائم وجودها التاريخى . وصمت الزعيم لا يقل بلاغة وتأثيرا عن كلامه بل يزيده سحرا وغموضا لذيذا لدى الجماهير . وهو يبدى حبا عاما للجماهير التى رفعته وترفعه على أعناقها ومع ذلك فهو غير قادر على حب أحد من الناس بشكل شخصى وذلك بسبب تشككه فى ولاء من حوله وتوقعه الغدر والخيانة فى أى لحظة ومن أى إنسان،ولذلك تجده كثيرا ما يتخلص من المحيطين به أو يستبعدهم عند أى بادرة شك فى ولائهم (حتى ولو كانوا من أقرب الناس إليه أو ممن ساعدوه على ارتقاء السلطة) ،وتعرفه حين يتكلم فيأخذ وضع العظمة والكبرياء وتصدر منه الكلمات وكأنها كلمات مأثورة أو حكم خالدة يتناقلها الرواة عبر الأزمان،وربما يوحى هو لتابعيه أو يتطوعون هم دون إيحاء بكتابة أقواله

وآراءه على الكتب المدرسية والكراسات وعلى الجدران والصفحات الرئيسية فى الصحف والمجلات،وتبدأ نشرات الأخبار بأقواله وأفعاله وتحركاته ،وتملأ صوره وتماثيله الشوارع والميادين والبيوت والقلوب .

والزعيم بما له من فعل السحر فى الجماهير وإيقاظ مشاعر الكرامة الوطنية عندهم ورفع صورة الذات لديهم وإنقاذهم من الهزيمة النفسية التى يعيشونها أو عاشوها فى مراحل الإنكسار فإنه ربما يأخذهم بعيدا عن أرض الواقع فتنتابهم نشوة الإنتصار ولا يلتفتون إلى ما يجرى على أرض الواقع،ويزيد من خطورة هذا الموقف شعورهم الطاغى بأن الزعيم أسطورة لا تهزم وأنه قادر على تحقيق كل شئ لهم بقوته الذاتية وبكلمات سحرية منه،وإذا حاول الزعيم فى لحظة صدق تمر به أن يعيد الجماهير إلى رشدها فإن الجماهير ترفض ذلك وربما تعلن غضبها وتؤثر الإستمرار فى الحلم اللذيذ على العودة إلى الواقع المؤلم،ويجد الزعيم نفسه مضطرا لمجاراة الجماهير فى حلمها اللذيذ وهذا يؤكد ما يقال من أن شخصية الزعيم تأسر الجماهير ثم ما تلبث أن تصبح هى أسيرة للجماهير .

ولا بد من توافر سمات خلقية للزعيم مثل الشجاعة والإخلاص والحب الشديد للوطن والإيمان العميق بقدراته الشخصية وقدرات وطنه وقدرات شعبه وحبه الأصيل لكل هؤلاء،وأن يكون نظيف اليد واللسان،متواضعا فى شموخ وكبرياء،حالما يتجاوز حلمه قيود الواقع المعاش،ولديه إحساس مرهف بالجماهير التى تحبه،وهو حريص على الإستجابة لتلك المشاعر والتفاعل معها طول الوقت،وهو إذ يفعل ذلك يفعله بصدق فى الأغلب حيث أنه منتميا إلى أهله وناسه وفخورا بذلك الإنتماء وخاصة للبسطاء منهم،ولذلك نجده متسقا مع معتقداتهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم وصورة البطل عندهم،ويسعى لإرساء العدل الإجتماعى لصالح الفئات المعدومة . والزعيم قادر بحكم كاريزميته وصفاته وكلماته على انتشال الجماهير من مشاعر التخاذل والهزيمة واليأس والإنبهار بالعدو والتشكيك فى القدرات الذاتية،ثم تحريك الساكن

والكامن من طاقاتهم وشعورهم الإيجابى بذاتهم وكرامتهم واستعلائهم . وفى هذه الظروف تفقد الجماهير قدرتها على التفكير النقدى الموضوعى العقلانى وتسلم نفسها للأمانى والأحلام فتبتعد شيئا فشيئا (هى والزعيم) عن الواقع .

وفى قمة لحظات انتفاخ الذات (الشخصية للزعيم والوطنية للجماهير) وتمددها وفى قمة الإنبهار والإستلاب والسحر لدى التابعين النائمين المخدوعين السذج يحدث الإنهيار عند أول اختبار حقيقى على أرض الواقع وهنا تهتز الأرض من تحت أقدام الجميع (الزعيم الملهم والجماهير الساذجة المخدوعة المستلبة) وربما يبحثون عن تفسير أو تبرير يعطيهم مزيدا من الوقت والحلم ولكن إن آجلا أو عاجلا يختفى الزعيم الملهم (بالموت أو بغيره) فيخرج أبناءه أو رعاياه اليتامى يبكونه ويبكون يتمهم وضياعهم،وما أن يفيقوا حتى يبحثوا عن أب جديد وزعيم جديد يقودهم فى دورة (أو دورات) جديدة من القيادة والإنقياد .

المعجبانى: هذا نمط مختلف فى شكله وفى مضمونه،وإن كان لا يختلف فى نهاياته،فالأب أو المدير أو الرئيس المعجبانى لديه ميول نرجسية عالية فهو شديد الإحساس بذاته وشديد الإعجاب بها وربما يدفعه ذلك للعمل على أن يكون فى موضع الصدارة لتتحقق له فرضية أنه الأقوى والأجمل والأجدر والأقدر. وهو يمشى كالطاووس مهتما جدا بشياكته وأناقته وصحته وصورته لدى الآخرين،ويجرى توحدا بينه وبين زعماء التاريخ ورموزه العظام،وربما يتقمصهم فى مشيته أو طريقة كلامه أو بروفيلات صوره وتماثيله أو فى عصا يحملها فى يده . والمعجبانى لايرى ولا يحب إلا نفسه،ويتحدث كثيرا عن ماضيه وعن طفولته وعن نشأته وتطور شخصيته وكفاحه وبطولاته وتضحياته . والمعجبانى يهتم كثيرا بتسجيل كل مراحل ولحظات حياته الشخصية (بالصوت والصورة) فهى فى رأيه جزء من التاريخ الوطنى بل جزء من التاريخ الإنسانى العظيم ،ويهتم اهتماما خاصا بالإحتفال بعيد ميلاده أو عيد توليه وأعياد انتصاراته (وهى كثيرة) ويعتبرها أياما تاريخية يحبس التاريخ أنفاسه

عندها إجلالا وهيبة ورهبة . والمعجبانى لا يحتمل النقد أبدا لأنه يعتبر نفسه كبير العائلة والأب المقدس والرمز والدلالة ،ولذلك يهتم جدا بالتزام طقوس الأدب والإحترام من جانب الرعية والرعايا تجاه شخصه العظيم،وإذا تجرأ الناس على نقده سعى فى تأديبهم وربما استصدر قوانين تحرم وتجرم العيب فى ذاته (مع أن الأنبياء عليهم السلام لم يمنعوا الناس من نقدهم والإختلاف معهم رغم مكانتهم عند الله وعند الناس) . والمعجبانى يبالغ كثيرا فى مظاهر الملك والأبهة والعظمة والسلطنة بدءا من مظهره الشخصى وأناقته وشياكته وطريقة كلامه الدرامية الإستعراضية مرورا بقصوره واستراحاته واحتفالاته ومهرجانات انتصاراته التاريخية .

والمعجبانى يسعى دائما للإبهار فيتخذ من القرارات ما يجعل الجميع فى حالة دهشة وانبهار،وربما يميل إلى المفاجآت والصدمات والتحولات المسرحية،وكل هذا يجعل المتابعين له يحبسون أنفاسهم دهشة أو إعجابا أو خوفا أو انبهارا،وهذا ما يحتاجه المعجبانى . وهو مولع بالشعارات والكلام الكبير فيصدر منها الكثير،ويجعل لكل فترة شعاراتها وعناوينها الضخمة لأن كل فترة هى بمثابة مرحلة تاريخية أو منعطف تاريخى هام وخطير يقف الخلق جميعا ينظرون إليه وإلى حكمته البالغة . والمعجبانى يسعى لأن يتوحد الوطن بشخصه العظيم (لا أن يتوحد هو به) ويطلق على نفسه أوصافا تاريخية أو دينية تلحقه بالخالدين .

وبما أن المعجبانى مشغول بحب نفسه عن حب الآخرين لذلك لاتجد له محبون من رعاياه على الرغم من انبهارهم واستغرابهم وربما تأييدهم،وهم يضيقون به رغم ما يحققه لهم من إنجازات وكأنهم يضيقون بذاته المتمددة التى ضيقت عليهم مساحة وجودهم وضيقت عليهم أنفاسهم،لذلك يغضبون ويتمنون الخلاص منه،وإذا حدث ذلك تنفسوا الصعداء ولم يكلفوا أنفسهم عناء وداعه وكأنهم يعلمون ولعه بالأبهة والمظاهر فيريدون أن يحرموه من هذه الأشياء فى آخر عهده بالدنيا .

الموظف: والرئيس الموظف هنا يقوم بدور المدير وهو يكون قد وصل إلى هذه المكانة بغير ترتيب أو سعى وإنما لعبت الظروف دورا هاما فى وصوله،فلم تكن طموحاته تصل إلى ذلك ولم يكن هو معدا لنفسه للقيام بهذا الدور فلم يكن له فى حياته أى اهتمام بالسياسة بل كان يمقتها ويعتبرها من قبيل اللف والدوران والمراوغات،ومع هذا يقبل القيام به كأى موظف يقبل التكليف بعمل فى نطاق وظيفته،ولذلك يبدأ متواضعا بعيدا عن أبهة الرياسة والحكم،ويقبل بالأوضاع القائمة ويسعى لثباتها وترسيخها مستفيدا فى ذلك من اللوائح والقوانين التى وضعها الأسلاف،إذ ليست لديه رؤى أو أهدافا أو استراتيجيات جديدة،ولذلك يحاول طول الوقت التركيز على الهياكل الوظيفية والإجراءات الشكلية،ويهتم اهتماما وسواسيا ملحا بالإجراءات والضوابط واللوائح التى تضمن الإستقرار والثبات والذى يصل إلى حالة الجمود . وبما أنه موظف فهو يحافظ على أكل عيشه لذلك لا يميل إلى المغامرات أو المخاطرات أو الهزات،فالمهم عنده أن تمر الأيام دون مشكلات،وكل حركة لديه مشكلة تهدد الإستقرار وتعكر الصفو العام، لذلك لا يطيق المطالبون بالحركة والتغيير ويعتبرهم أعداءا للإستقرار وأعداءا للوطن وأعداءا له هو شخصيا لأنهم يكدرون صفوه واستقراره واستمراره،وشعاره دائما استقرار الإستمرار واستمرار الإستقرار . والموظف لا يملك رؤى استراتيجية أو تاريخية أو ثقافية أو حضارية،بل إن هذه الكلمات تضايقه وتؤرقه ويعتبرها تقعرا وتفلسفا من جانب قلة غير واقعية يتحدثون حديثا عاطفيا غير موضوعى، أما هو فلا يتحدث إلا عن الواقع اليومى الذى يعيشه بين مرؤسيه للحفاظ على لقمة عيشه وعيشهم،فهو يسعى إلى انضباط الأمور بكل الوسائل ويحاول أن يقود السفينة دون أى اهتزازات،ولذلك يفضل القيادة بجانب الشاطئ دائما . وهو على الرغم من ادعاءاته بالثبات وعدم الخوف وعدم التأثر بالأحداث وطمأنينته السطحية لصواب قراراته وارتياحه المبالغ فيه لحالة الإستقرار السائدة واستهانته بكل ما يحيط به من تحركات وأخطار،إلا أن هذا كله يعكس حالة عميقة من الخوف الداخلى وانعدام الأمان ,تلك الحالة التى تدفعه بلا وعى إلى التمسك بالوضع القائم والتمسك بالثبات

الجامد والمتجمد لأن الحركة تحمل تهديدات لا يحتملها والجديد بالنسبة له يحمل رعبا لا يطيقه . والموظف يسلك سلوكا تقليديا عسكريا فيطلب الطاعة المطلقة من مرؤسيه فى حين يخضع هو لمن فوقه . وطموحات الموظف ليست كبيرة فهو يرضى دائما بالأدنى وليست له رؤى بعيدة المدى أو سقفا عاليا يصبو إليه،وليس لديه حلم ولا يملك أصلا القدرة على الحلم بل هو يعيش الواقع اليومى بتفاصيله القريبة،أى أنه يعيش فى مستوى الإحتياجات البيولوجية التى وصفها ماسلو وليس لديه اهتماما بالطبقات الأعلى من الإحتياجات فى هرم ماسلو الشهير مثل الحب والتقدير الإجتماعى وتحقيق الذات وغيرها،وبالتالى ليس لديه اهتمام بالنواحى الثقافية أو الجمالية أو الحضارية،ويشعر بالمقت تجاه المثقفين والمفكرين والفنانين،ويعتبرهم أقرب إلى مهرجى السيرك،وينظر إليهم على أنهم واهمون حالمون غير واقعيين لأنهم لا يرون الحقيقة وتستغرقهم الأوهام والأحلام الفارغة،أما هو فيهتم باللحظة الحاضرة ويسعى لتحسين أحوال الناس المعيشية ويحقق (أو يريد أن يحقق نتائج ملموسة على أرض الواقع) ،وهو يتجنب الدخول فى المخاطرات التى يدعوه معارضوه إليها لأنه يدرك مالا يدركوه من تأثير ذلك على تابعيه،فهو يخطط على المستوى التكتيكى القريب من حياة الناس اليومية واحتياجاتهم القريبة قصيرة الأمد،ويركز على النتائج الملموسة، وهو يسترشد فى قراراته بالأرقام والمعلومات والحسابات ولا يخرج عن التعاليم واللوائح والتعليمات،ويختار تابعيه على أساس الكفاءة فى التنفيذ وثقته فى ولائهم ولا يتوقع منهم تخطيطا أو إبداعا فهو يمقت الإبداع ولا يريد من سكرتاريته إلا الإتباع وتنفيذ الأوامر بدقة،ويستخدم معايير الثواب والعقاب لضبط مرؤوسيه ولتحقيق أهدافه،وهو لا ينظر إليهم باعتبارهم بشرا أكفاءا لهم القدرة على الإبداع والإضافة والحذف والتغيير وأنهم موارد وطاقات بشرية يمكن تنميتها وتطويرها ولكن ينظر إليهم على أنهم مجرد أشياء لتنفيذ برامج أو احتياجات أو إجراءات معينة،ولذلك لا يهتم بأشخاصهم أو تاريخهم أو مشاعرهم أو مشكلاتهم ولا يرتبط بأى منهم بصداقة أو علاقة إنسانية بل ينساهم فور انتهائهم من أداء مهامهم، فهم فى نظره غير جديرين

بالصداقة أو العلاقة الإنسانية،ولذلك تجد علاقاته سطحية ووقتية وفاترة،ولا تجد له تاريخا من البشر، وهو لا يتحدث عن تاريخه الشخصى كحياة إنسانية حافلة بالصداقات والعلاقات والمؤثرات الإنسانية،وإنما إذا تحدث عن تاريخه فإنه يتحدث عنه من خلال المهام التى أتم إنجازها طبقا للأوامر والتعليمات .

والموظف يكره الأحلام والأمنيات ويحتقرها ويحتقر من يتمسك بها ويعتبره ساذجا غريرا غافلا لذلك فهو يسعى لتكريس الأمر الواقع والقبول به،وهو إذ يفعل ذلك يثبط الهمم باسم التعقل ويقيد الحركة باسم التروى ويخنق الأفكار ويقتل الأحلام باسم الموضوعية،ويضحى بالإرادة والكرامة للأقوى باسم الواقعية والحفاظ على الحياة وأكل العيش .

وقد يتسم الموظف ببعض السمات الوسواسية فيصبح مدققا وعنيدا لا يقبل رأيا آخر ولا يتنازل عن شئ مهما صغر ويتمسك بالشكل دون الجوهر،ويعتقد أن الآخرين ليسوا جديرين بالثقة لأنهم لايقومون بالتنفيذ كما يجب لذلك نراه حريصا على عمل كل شئ بنفسه ومتابعة كل شئ بنفسه حتى لو توقفت الأمور وتعطلت مصالح الناس،وعلى الرغم من عدم تعبيره عن مشاعره العدوانية بشكل صريح إلا أن عناده يكشف عن عدوانيته الكامنة بداخله .

وهو لايميل إلى التميز أو التجديد بل يحب أن تسير الأمور فى مسارات عادية،فهو شخصية عادية،بل ومفرط فى عاديته . وأصعب لحظة فى حياة الموظف هى خروجه للمعاش،لذلك يحاول بكل الطرق أن يستمر فى منصبه لأطول فترة ممكنة وربما للأبد لأن حياته بدون الوظيفة لاتساوى شيئا ولا تطاق،فليس لديه أية اهتمامات أو هوايات أو أى شئ له معنى خارج إطار الوظيفة الرسمية .

المبدع المشوه: وفى هذا النموذج نجد أن ذات الطفل نشطة وتتمثل فى حالة من المرح والدعابة مع ميل إلى الإبداع المشوه فنجده يعلن أفكارا تبدو جديدة أو مبتكرة أو صادمة أو غريبة وكأنها صادرة من فنان أو مفكر بوهيمى أو فيلسوف منقطع الصلة

بالواقع اليومى،والأخطر من ذلك أن هذه الأفكار والتوجهات الغريبة والشاذة تتحول إلى نظام للحكم وفلسفة للإدارة وإطارا للتفكير ولا يجرؤ أحد على مناقشة هذه الأفكار أو تفنيدها،بل يوجه أصحاب الفكر جهودهم فى تفسير وتحليل وتبرير آراء وأقوال وأفكار الزعيم المفكر المبدع المشوه المتناقض،وهذا النموذج يحير من يراه أويتابع سلوكياته فهو تارة شديد الوطنية والثورية والتقدمية وتارة أخرى مستسلما ومهادنا وخاضعا،وتارة تراه شديد الإهتمام بمظهره فيلبس ثيابا عسكرية مليئة بالنياشين والأوسمة (كطفل اشترى له أبوه بذلة عسكرية مبالغ فى ترصيعها) وتارة أخرى تراه يرتدى لباسا بسيطا ويعيش عيشا بسيطا،أو يجمع بين هذا وذاك فى تركيبة غريبة ومتناقضة وأحيانا مضحكة . والمبدع المشوه لا يستطيع أحد توقع قراراته أو ردود أفعاله فكل شئ لديه مفاجئا وغريبا،وهو يشتهر بمغامراته الطفلية الفاشلة والتى ربما يعطيها أبعادا وطنية ويضفى عليها معانى الإنتصار العظيم (أو يترك تلك المهمة لمريديه وكتابه ومنظريه)

شيخ القبيلة: وهو يأخذ مشروعيته من عصبية القبيلة أو العائلة،والعلاقة بينه وبين رعيته تقوم على التسليم بقوة العصبية والجذور العائلية،ولقاءاته بهم يغلب عليها تقبيلهم ليده وكتفه ورأسه ثم تناول العشاء والإنصراف مع الدعوات بطول العمر،أو تقديم معروض بهدف الحصول على منحة مالية أو رفع دين أو قطعة أرض صحراوية أو مرعى جبلى . وقد يكون هناك نوع من الشورى لدى الملك أو الأمير (شيخ القبيلة) من خلال جلسات مع رؤساء القبائل أو العشائر ولكنها شورى استئناسية غير ملزمة .

العسكرى (من الشاويش إلى المشير): فى العالم العربى ولع بتنصيب العسكريين (الحاليين أو المتقاعدين) فى المناصب القيادية والسيادية،فنجد فى كثير من المواقع رتبا عسكرية تبدأ من الشاويش وتنتهى بالمشير مرورا بالعقيد والعميد واللواء والفريق،والسبب فى ذلك هو كثرة القادة العسكريين فى مؤسسات الحكم واعتقادهم بأن الضبط العسكرى هو أهم عوامل النجاح فى إدارة شئون الناس،هذا إضافة إلى

عوامل التحيز وضمان الولاء وجوائز نهاية الخدمة . والعقلية العسكرية – رغم احترامنا وتقديرنا الشديد لها فى موضعها – تتميز بالإلتزام الحرفى بتنفيذ التعليمات والمهام دون نقاش،وهى لا ترى الإحتمالات المختلفة والتباينات فى السلوك اليومى المدنى للناس ولا تحتمل الغموض ولا تدرك أهمية الحوار والإختلاف وتوظيف ذلك للمصلحة العامة فالإختلاف لديها خيانة وطنية والمخالفون أو المعارضون خونة مثيرون للقلاقل والإضطرابات لذلك يبالغون فى الضبط والربط والقهر،ويميلون للرؤية الأحادية،وهذا يؤدى إلى مشكلات كثيرة فى الحياة المدنية التى تحتاج لرؤى متعددة واحتمال الغموض والخلاف واحترام أصحاب الآراء المعارضة . والمشكلة تكبر وتعظم إذا كان العسكرى على رأس السلطة فهنا تحدث إشكاليات كثيرة سببها أن هذا الشخص قد تربى خلال سنوات طويلة من حياته على أحادية الرأى وأحادية الرؤية وعلى الإلتزام بتنفيذ التعليمات،وهاهو الآن يحكم فئات متباينة ويعيش الحياة السياسية (التى لم يتعود عليها ولم يتربى فى أحضانها) بغموضها وتناقضاتها وتعددية مستوياتها واحتياجاتها للمرونة والمواءمة،ففرق كبير بين عقلية السياسى وعقلية العسكرى وكل منهم ميسر لما خلق له وهو موفق ومطلوب فى مكانه ولكن المشكلة تأتى من اختلاط الأدوار وتداخلها .

المستقطب: وهو الأب المنحاز إلى بعض أولاده دون الآخرين أو المدير المنحاز إلى مجموعة من الموظفين يصطفيهم ويميزهم عن باقى زملائهم وربما يسخرهم للتجسس عليهم ومضايقتهم،أو الرئيس الذى ينتمى إلى طائفة أو جماعة أو حزب فينسى أنه رئيس للجميع ويعمل طول الوقت لخدمة جماعته أو طائفته أو حزبه على حساب مصالح بقية الفئات . وهذا الشخص المستقطب يحدث شرخا فى الأسرة أو المؤسسة أو الدولة وينشئ عداوات شديدة فى الوسط الذى يعيش فيه . وإذا كان الإستقطاب على أساس سياسى يصبح المعارضون خونة أما إذا كان على أساس دينى فإن المعارضون فى هذه الحالة يصبحون كفارا .

المستغرب: وهو شديد الإعجاب بالنموذج الغربى لذلك يعيش عليه ويربى أولاده عليه ويصبغ كل من حوله بهذه الصبغة ويراها الأنسب للحياة العصرية،ونجده يحول كل مظاهر الحياة فى نطاق حكمه بالصبغة الغربية لغة وسلوكا ومعمارا وتخطيطا، ومع هذا ربما يحتفظ بقشرة بسيطة يعلن بها هويته العربية كالزى الوطنى (المستورد من الخارج) .

الفيلسوف الحالم: وهو لا يستطيع بهذه المواصفات أن يصل بنفسه إلى أى موقع قيادى ولكن الظروف قد تحمله إلى هذا الموقع بحكم القرابة أو الظروف،وهذا الشخص نجده يتحدث طويلا عن مثاليات ومبادئ ومطلقات منقطعة الصلة عن الواقع،وهو معزول غالبا عن حركة الحياة الطبيعية حيث تعود أن يعيش فى برج عاجى يرى العالم منه كما يحب أن يراه،ويوافقه المحيطون به على ما يراه خوفا أو طمعا . وضعف الفيلسوف الحالم يستغله بعض المحيطون به فيحركونه كما يريدون مع إيهامه بملكية زمام الحكمة والحكم.

الوريث: وهو قد ورث الملك أو الرئاسة بفعل القرابة أو العصبية أو الظروف السياسية وليس عن كفاءة وكفاح وتاريخ طبيعى فى العمل السياسى،ولذلك يلاحظ تدنيا فى أدائه خاصة عند مواجهة الأزمات الكبرى،وهذا ما أكده ابن خلدون من ضعف الجيل الثانى والثالث من الملوك،وربما يكون هذا أحد أسباب التحول فى المجتمعات البشرية مع رقيها من النظام الملكى إلى النظام الرئاسى واعتبار النظام الملكى أو التوريث نكوصا بالمجتمع إلى مراحل أكثر بدائية وتخلفا . والوريث بما أنه ورث السلطة دون جهد فإنه يميل لأن يكون مستهلكا للثروة لا صانعا لها فيميل إلى حياة الترف والدعة خاصة وأنه قد تربى عليها منذ صغره،ولا يحتمل رأيا آخر لأنه عاش طول حياته يعامل كأمير فى جو يتسم بالطاعة المطلقة من خادميه والمحيطين به مع تلبية لكل رغباته،ويضاف إلى ذلك غربته واغترابه عن المحكومين الذين لا يعرفهم إلا من صورهم فى وسائل الإعلام،ومن باب أولى لم يخالطهم ولم يعش

حياتهم،بل هو محاط طول الوقت بطبقة سميكة من الحراس والخدم يعزلونه عن الشعب . والوريث غالبا ما يحكم بالوكالة بمعنى أنه يعتمد على أفراد آخرين من أصدقائه أو المقربين له ممن يعتقد فى قدرتهم على فهم الشعب وإدارة الأمور،وهؤلاء يقومون بمعظم المهام بالنيابة عنه ويملون عليه ما يحقق مصالحهم هم،وبما أنه لا يدرى عن حقيقة القاعدة الشعبية شيئا بحكم ظروف نشأته فهو يسلم لهم إما استسهالا أو عدم معرفة بحقيقة الأمور،وفى كل الأحوال هو يشعر أنه يريد أن يستمتع بما ورثه من عظيم ثروة وأبهة سلطان .

ونظرا لكثرة احتمالات المشكلات الشخصية لدى القادة والحكام الذين يمارسون حكما فرديا وأثر ذلك على شعوبهم بل وعلى العالم كله أحيانا، لذلك ظهر اقتراح فى الجمعية العالمية للطب النفسى بمتابعة الحالة النفسية للرؤساء والزعماء على مستوى العالم (خاصة المعمرون والمستبدون منهم) حتى لا تحدث كوارث إنسانية بسبب تحكم شخص مضطرب أو مشوه أو مستبد فى مصير ملايين البشر .

السمات القياسية للرئيس :

بعد هذا الإستعراض لبعض نماذج الآباء أو المديرين أو الرؤساء فى العالم العربى يبرز سؤال هام وهو : هل توجد مواصفات قياسية لشخصية الرئيس بحيث نقيم الشخص ونحدد مدى صلاحيته على أساسها،وحين نذهب إلى صناديق الإنتخابات نختار على ضوئها، والحقيقة أنه لا يوجد شخص يمكن أن تجتمع فيه كل الصفات القياسية اللازمة لمنصب الرئيس ولذلك ذهب العقلاء من البشر (ومن قبلهم الأديان) إلى فكرة الشورى والديموقراطية وهى آليات تحد من انفراد أى شخص بالسلطة المطلقة وذهبوا إلى أفضلية حكم المؤسسات التى تستفيد من أكثر من عقل وأكثر من رأى وتحمى الشعوب من النزوات والتشوهات الشخصية لحكامه وتحمى الرعية من احتمالات التهميش والقهر والإستذلال،لذلك أصبح حكم الفرد جريمة إنسانية وجريمة سياسية لأنها تعرض شعبا كاملا لأن يكون تحت رحمة نقائص شخصية ومشكلات

نفسية لفرد ينفرد بكل شئ دونما رادع حقيقى وموضوعى . وفى النظم الديموقراطية تكون للرئيس صلاحيات محددة تتكامل وتتناغم مع مؤسسات قوية أخرى تمنع الإنفراد بالقرار وتسمح بتصحيح الأخطاء وتعطى آليات مناسبة للوصول إلى أفضل القرارات بطريقة جماعية موضوعية ومنهجية،ومع هذا تبقى لشخصية الرئيس آثار مهمة على توجيه الرأى العام وعلى الوسائط الإعلامية،ولهذا يجدر بنا أن نذكر السمات القياسية العامة للرئيس :

١ – هو شخص ينتمى لبيئته ولناسه عقيدة وثقافة وحبا وإخلاصا ولديه مشاعر إيجابية نحو ذاته ونحو شعبه ونحو ثقافته،ولديه شعور بالكرامة الوطنية النابعة من احترام الذات والثقة فى قدرة الشعب على النمو والنجاح والإنتصار .

٢ – مهيب الطلعة حسن السمت ممتلئا صحة وحيوية ورجولة،حسن الصوت،حى المشاعر

٣ – لديه منظومة أخلاقية تتسم بالصدق والأمانة والشجاعة والعدل ونظافة اليد وطهارة الضمير وتقبل الآخر والمرونة والقدرة على الصمود .

١ – تدرج فى ميادين العمل السياسى واكتسب خبرة ميدانية فى التعامل مع البشر على مختلف توجهاتهم ومستوياتهم،وعاش الحياة اليومية بكل صعوباتها وتفاصيلها،ولديه خبرة كافية بمشكلات الناس ومعاناتهم .

٢ – لديه القدرة على سياسة البشر وشحذ هممهم وإطلاق الطاقات الكامنة لديهم بدافع من حبه وتقديره واحترامه لهم مع القدرة على تحمل أخطائهم والتسامح معهم كلما أمكن ذلك،ولديه الكفاءة لانتشالهم من مشاعر الهزيمة إلى آفاق النصر ومن هوة اليأس إلى ذروة الأمل،ومن حالة البلادة والسلبية واللامبالاة إلى حالة الدافعية العالية والفاعلية والحماس والإنجاز .

٣– لديه رؤية استراتيجية وآفاق واسعة للتفكير والتخطيط والعمل على المدى الطويل مع معرفة عميقة بالأولويات والمسارات الرئيسية للعمل .

٤ – يملك القدرة على التفكير الإبتكارى ويسعى نحو التغيير الإيجابى دون خوف وينتقل من مرحلة لأخرى بسلاسة ولا يتثبت أو يتشبث عند مرحلة خوفا أو ترددا أو طلبا للراحة والسلامة .

٥ – يملك شخصية مستقلة قادرة على التفكير النقدى ورؤية كافة الإحتمالات المطروحة ولذلك لا يخضع خضوعا أعمى لمن فوقه ولا يطلب الطاعة العمياء من التابعين له .

٦ – لديه الشجاعة للإعتراف بأخطائه والتراجع عنها وتصحيحها وتحمل مسئولية نتائجها

٧ – لا يستنكف عن التساؤل والإستفسار عما لايعرفه مع الإستعانة الصادقة والحقيقية بكل صاحب خبرة بصرف النظر عن انتماءاته أو توجهاته

٨ – صاحب شخصية واسعة الأفق تحتمل الخلاف والإختلاف وتتقبل كافة أطياف المجتمع وتتعامل معهم بمرونة واحترام وتعتبر أن الجميع مواطنون شرفاء يشاركون فى المنظومة السياسية والإجتماعية بصرف النظر عن الإختلافات الشخصية بينه وبينهم .

٩ – يستوعب كافة الأبعاد والمستويات الحضارية والثقافية لشعبه ويدرك قيمة التاريخ والعلم والثقافة وقيمة العلماء والمفكرين وأثرهم فى رقى الأمم .

١٠ – لديه القدرة على المخاطرة المحسوبة من أجل النمو فالتغيير والنمو دائما يحتاجان المخاطرة المبنية على معطيات موضوعية .

١١ – لديه ذكاءا وجدانيا يجعله قادرا على الوعى بمشاعره دون إنكار ودون ادعاء ثبات كاذب،ويجعله قادرا على الإحساس بمشاعر الآخرين والإستجابة المناسبة لها،ويجعله قادرا على أن يحب ويحب،فالتابعين لا يتحركون بالبلادة الإنفعالية للقائد وإنما يتحركون ويحفزون بالمشاعر الإيجابية الحية،فكلما كان مزاج القائد حيا ونشطا وإيجابيا كلما قلت الصراعات وارتفع مستوى الإنجاز .

١٢ – صاحب خبرة روحية تمنحه صفاءا نفسيا وسلاما داخليا وحدسا صادقا وتطلعا نحو الخلود .

١٣ – يختار مرؤسيه على أساس صفاتهم الشخصية وقدراتهم ورؤاهم المستقبلية وميزانهم الأخلاقى وإمكاناتهم وقدراتهم،ويتعامل معهم على أنهم بشر،ولذلك يهتم بهم على المستوى الإنسانى ويسعى إلى تطويرهم والتغير معهم وبهم للأفضل،فهم بالنسبة له موارد بشرية تصنع الأفكار والرؤى وبالتالى تصنع المستقبل .

١٤ – يؤمن بأن التغيير هو أحد أهم القوانين فى الحياة،ولذلك يصبح من مهامه الأساسية ويوجهه دائما فى الإتجاه الإيجابى،فهو لا يتشبث بالسلطة لنفسه ولا يمكن أحدا من التشبث بها دون مبرر ويسمح للأجيال الجديدة أن تأخذ فرصتها بناءا على كفاءتها،ويساعد على النمو المرن والمتطور لمنظومات العمل بعيدا عن الجمود،وهو يشعر بالملل فى حالة رتابة الأحوال وسكونها ويسعى نحو التغيير المبدع الخلاق .

١٥ – لديه قدرة هائلة على الإنصات النشط لكل من حوله والتواصل المرن معهم دون تحيز أو استقطاب أو أفكار مسبقة .

١٦ – نظرته للتابعين ملؤها الإحترام والتقدير فهم ليسوا أطفالا قاصرين أو رعايا يستحقون الحجر والوصاية،وإنما كبارا ناضجين وجديرين بالثقة والإحترام وتبادل الأفكار .

١٧ – لديه حساسية دقيقة لقبول التابعين له فإذا وجد أنه أصبح ثقيلا عليهم أو أن وجوده أصبح غير مرغوب أو فى غير صالحهم كانت لديه الشجاعة والقدرة على أن ينسحب بشرف من ساحة القيادة وأن يعود مواطنا عاديا يستمتع بحياته الشخصية والعائلية تاركا المسئولية لآخر يضطلع بها .

١٨– يتميز بأعلى درجات الصدق والأمانة والشفافية فى تعاملاته،وسلوكه الشخصى والعائلى والعام وجدير بالإحترام والتقدير من تابعيه .

١٩ - لا يمكث فى السلطة العليا سنوات طويلة (تقدر فى الديموقراطيات الحديثة بست سنوات) لأن ذلك يجعله بعيدا عن الحياة الطبيعية للناس نظرا لإحاطة تحركاته بقيود أمنية ونظامية صارمة،إضافة إلى ما تحدثه السلطة من تضخم فى ذاته يجعله غير قادر على تحمل النقد أو المشاركة أو التفاعل،والذات المتضخمة تحمل الكثير من المخاطر لصاحبها ولتابعيه على السواء فهى مفسدة للجميع .

الفصل الثاني

سيكولوجية الإستبداد

مقدمة :

حين شرعت فى كتابة هذا الفصل كانت تملأ وعيى صور الإستبداد داخل النفس (تحكم أحد المستويات أو الكيانات النفسية فى المستويات أو الكيانات الأخرى) ، والإستبداد داخل الأسرة (أب مستبد أو زوج مستبد أو أخ أكبر مستبد أو أم مستبدة) ، والإستبداد داخل المجتمع (مدرس مستبد أو مدير مستبد أو مسئول مستبد أو رجل دين مستبد) . وكانت تمر من أمامى صور مرضاى المساكين ضحايا ألوان الإستبداد التى ذكرتها وأتذكر كيف كانت آلامهم وهم يعانون القهر والإذلال تحت سطوة شخص مستبد وهم لا يجدون مخرجاً أو مهرباً، وأتذكر كيف كانت نفوسهم تبدو مشوهة من كثرة ما تعرضوا لمطارق الإستبداد الغليظة .

ولم يدر فى بالى فى بادئ الأمر الاستبداد السياسى ربما لبعدى عن هذا المجال وعدم إشتغالى بالسياسة، على الرغم من معاناتى الشخصية أيضاً من هذا الاستبداد فى مراحل معينة من حياتى، ولا يتوقف الأمر على المعاناة الشخصية فى هذا المجال مهما عظمت وإنما يمتد ليشمل معاناة أمة بأكملها من مرض يحتاج لعلاج فالكل معرض للإكتواء بناره، إضافة إلى كونه عائقاً أمام التفكير الحر والإبداع والعمل الخلاق والنمو والتطور فى كل المجالات . وعلى الرغم من ارتباط كلمة الإستبداد فى وعى الناس بالاستبداد السياسى إلا أنه إفرازاً للاستبداد على مستوى النفس ومستوى الأسرة ومستوى المدرسة ومستوى دور العبادة ومستوى المؤسسات الاجتماعية، ولذلك وجب التنويه لذلك والتحذير من اختزال الاستبداد فى هذا المجال دون سواه .

وأنبه القارئ الكريم إلى أننى أعالج موضوع الاستبداد من جانبه النفسى فقط ولذلك أنصح باستكمال باقى الجوانب فى دراسات متخصصة أخرى .

وأتمنى أن تكون هذه الدراسة لبنة فى بناء الحرية التى نتوق إليها جميعاً لنتحقق بها إنسانيتنا ونجنب أبناءنا ما عاناه جيلنا من ويلات الاستبداد، ولنفتح النوافذ للإصلاح الشامل فى كل نواحى حياتنا .

الحرية أصل .. والاستبداد مرض :

الحرية هى الأصل فى الوجود الإنسانى، وقد تفرد الإنسان بها من بين المخلوقات، فقد خلقه الله قادراً على فعل الخير وفعل الشر (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ((الإنسان ٣) (وهديناه النجدين ((البلد : ١٠)، وأعطاه حرية الاختيار كاملة، ومنحه الإرادة لفعل هذا أو ذاك ثم جعله مسئولاً عن خياراته فى الدنيا وفى الآخرة . وبهذا التكوين الحر الناضج المسئول استحق الإنسان التكريم على سائر المخلوقات . ولم يضمن الله الحرية للإنسان فقط بل ضمنها أيضاً لإبليس فمنحه الفرصة للاعتراض على أمر السجود لآدم ولم يشأ سبحانه أن يقهره على السجود، ولو أراد لكان فلا راد لأمره، ولم يكتف بذلك بل منحه فرصة إلى يوم القيامة يمارس فيها دوره الذى ارتضاه لنفسه فأسس حزب الشيطان والذى أنضم إليه ملايين من الأنس والجن بكامل حريتهم .

وأرسل الله الرسل تترى إلى البشرية ليبلغوهم كلمة الله وليؤسسوا حزب الرحمن الذى يضم المؤمنين من البشر، وليصححوا للناس معتقداتهم، ولينشروا الحق والخير والعدل فى الأرض فى مواجهة حزب الشيطان الذى ينشر الباطل والشر والظلم فى الأرض، ومع هذا فقد علم الله رسله درساً هاماً فى الحرية فى أعلى مستوياتها وهى حرية الاعتقاد الدينى حيث قرر بوضوح لا لبس فيه أنه : (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) ﴿البقرة : ٢٥٦﴾ .

وسيدنا نوح (لم يشأ أن يقهر ابنه على الاعتقاد فيما يعتقده ولكنه حاوره وحذره ثم تركه يقرر ما يريد رغم علمه بأن ما يريده ابنه فيه هلاكه فى الدنيا

(الغرق) وهلاكه فى الآخرة (جهنم)، ولكن نوحاً يعلم مراد الله من البشر ويعلم قيمة الحرية التى منحها الله الإنسان حتى إذا عبده كان ذلك عن طواعية وحب وليس عن قهر وخوف .

والحرية على المستوى النفسى ضرورة للنمو النفسى الطبيعى ولتطور الوظائف النفسية وبالتالى لنمو وتطور الحياة، فهى التى تعطى فرصة للتفكير الحر وللإبداع الحر وللعمل الخلاق الذى يثرى الحياة وينميها ويطورها .

ومن هنا يصبح الاستبداد مرضياً إنسانياً واضطراباً نفسياً لكل من المستبد (بكسر الباء) والمستبد (بفتح الباء) به فهو يشوه الطرفين ويشوه البيئة ويلوثها بكل أنواع الفساد . ولهذا نجد أن الأديان السماوية والحركات الإصلاحية الفلسفية والاجتماعية والسياسية حرصت فى كل مراحل التاريخ على علاج هذا المرض العضال الذى يعصف دائماً بمكتسبات الحضارة الإنسانية ويحدث - كما ذكرنا - تشويها لفطرة البشر وتلويثاً للبيئة الإنسانية بكل ألوان الانحراف والفساد، فالاستبداد هو مصدر الكثير من المفاسد الفردية والجماعية .

ويبدو أن المجتمعات العربية والإسلامية على وجه الخصوص قد أصابها من هذا المرض العضال الكثير ومازال حتى الآن، فعلى الرغم من أن المجتمعات البشرية الحديثة قد انتبهت إلى خطر هذا المرض وكافحت كثيراً حتى وضعت الضمانات والآليات لمنع انتشاره فى صورة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان وفى صورة الأنظمة الديمقراطية المختلفة، وقبل هذا كله فى صورة ثقافة الحرية والعدل والمساواة، على الرغم من كل هذا الذى حدث فى المجتمعات المتقدمة حولنا، إلا أننا مازلنا نعانى الكثير من أعراض هذا المرض لدرجة أن العالم الخارجى (سواء بحسن نية أو بسوء نية) قد أصبح يعتبرنا مرضى نحتاج لتأهيل سياسى واجتماعى ونفسى حتى نرتقى إلى مستوى العالم الحر من حيث اعتناق قيم الحرية وحقوق الإنسان ومن حيث تطبيق الديموقراطية كآلية لمنع انتشار فيروس الاستبداد الكامن فينا مرة بعد مرة .

وقد حاولت دعوات الإصلاح قديماً وحديثاً علاج هذا المرض، فقديماً كتب عبدالرحمن الكواكبى عن «طبائع الاستبداد» فشخص المرض ووضع العلاج، ولكن كلماته وصرخاته ذهبت أدراج الرياح، وحديثاً حذر المصلحون فى الداخل دون جدوى، ويضغط علينا النظام العالمى الجديد لقبول العلاج حتى لا نصبح بؤرة مرضية فى المجتمع الإنسانى، وفى المقابل تجرى محاولات الإنكار والالتفاف حول جهود الإصلاح ومحاولات العلاج بإدعاء أننا لسنا مرضى إلى هذا الحد وبادعاء أن الديموقراطية نظام غربى لا يصلح لمجتمعاتنا الإسلامية وبادعاء أن الحرية تعنى الإنفلات من القيم والعادات والتقاليد العربية والإسلامية، وبادعاء أن لنا خصوصية يجب المحافظة عليها وأن الحرية والديموقراطية تهددان هذه الخصوصية، وفى الحقيقة هذه تبريرات يسوقها المريض لكى لا يتناول الدواء .

ويخطئ من يعتقد أننا نتحدث عن الاستبداد على المستوى السياسى فى أنظمة الحكم فحسب، وإنما نحن نتحدث فى هذه الدراسة عن كل مستويات الاستبداد فى النفس والأسرة والمجتمع المحلى والمجتمع الدولى، ونتناول هذا المرض من جانبه النفسى أساساً والذى نعتقد أنه عنصر أساس فى تغلغل هذا المرض وانتشاره، حيث يبدو أن لدينا خللاً فى منظومتنا الفكرية سمح لتغلغل فيروس الاستبداد فى نفوسنا وأدى إلى تأخر العلاج حتى الآن وإلى رفض الدواء القادم من الداخل ومن الخارج على حد سواء، بل وأدى إلى فقد البصيرة حيال هذا المرض لدى قطاع كبير منا فلم يعد يشعر بأعراض المرض أو يشكو منه أصلاً، فنحن مجتمع أبوى يقوم على فكرة أن الكبير يعرف كل شئ ويملك كل شئ والصغير جاهل غرير لايعرف أى شئ ولا يملك أى شئ (فى بعض المجتمعات العربية يطلقون فعلا على الطفل والمراهق لقب «جاهل» ويتعاملون معه من هذا المنطلق) .

منظومة الحرية :

نتحدث كثيراً عن الحرية وعن الديموقراطية وعن الشورى، وغالباً ما يكون

حديثنا مرسلاً أو غير محدد المعالم وبالتالى تصبح هذه الأشياء أمنيات وأحلام يبعد أن تتحقق فى الواقع، ولكى ننجو من هذا المصير علينا أن نتعرف على منظومة الحرية بشكل منهجى حتى إذا سعينا إليها كان سعينا راشداً ومثمراً .

ومنظومة الحرية هى عبارة عن سلسلة متماسكة الحلقات تبدأ بمفهوم الحرية ثم مفهوم المساواة (المواطنة) ثم آلية تحقيق هذين المفهومين (االحرية والمساواة) ثم نتيجة كل هذا وهو صلاح الحياة . ولنأخذها بشئ من التفصيل حسب ما تقتضيه حدود هذه الدراسة .

١- **الحرية**: الحرية ليست مطلباً سياسياً أو اجتماعياً أو أخلاقياً فحسب وإنما هى ضرورة وجودية ارتبطت بالنشأة الأولى للإنسان . وإذا عدنا إلى المشهد الكونى الذى تم فيه إعلان خلق الإنسان لوجدنا أن هذا المشهد تضمن إعلاناً مدوياً لمبدأ الحرية، ويتبدى ذلك فى الحوار الحر بين الله والملائكة وحتى بين الإله القادر العظيم وبين إبليس .

(وإذا قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ،ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون) ﴿البقرة: ٣٠﴾ .

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى وأستكبر وكان من الكافرين) ﴿البقرة :٣٤﴾

وتبدو قمة الحرية فى إعطاء إبليس الفرصة للتعبير عن رأيه حتى وهو يتمرد على أمر الله بالسجود ولو شاء الله لقهره على السجود ولكنه درس عميق فى الحرية وفى احترام الاختيار وفى تحمل مسئولية المخلوق لنتائج خياراته .

وخلق الإنسان نفسه بما يحمله من قدرة حره على فعل الخير أو الشر (وهديناه النجدين) (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) كل هذا كان إعلاناً كونياً مدوياً لمولد الحرية كمكون أساس فى الإنسان وكضرورة نفسية لوجوده ككائن يملك الاختيار

ويملك الإرادة لتنفيذ خياراته ويتحمل مسئولية ذلك . وقد ضمن الله سبحانه وتعالى هذه الحرية للإنسان حتى ولو استغلت هذه الحرية فى معصية الله والخروج عن أمره .

وقد تأكد مفهوم الحرية حين أعلن الله سبحانه وتعالى مبدأ عدم الجبر فى الاعتقاد (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) ﴿ البقرة ٢٥٦ ﴾ .. (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ...) ﴿ الكهف ٢٩ ﴾ . وإذا كان الله قد منحنا الحرية فى الاعتقاد وحملنا مسئولية الإختيار، فمن باب أولى نكون أحراراً فيما دون ذلك .

إذن فالحرية ليست ترفاً فى حياة الإنسان وليست من كماليات حياته وإنما هى من أساسيات وجوده، ولا تتحقق رسالته التى أرادها له الله إلا إذا تحققت حريته، فالمجبر غير مكلف وغير مسئول بالمعنى الكامل .

وتبنى مفهوم الحرية (سواء كان مفهوماً فلسفياً أو سياسياً أو اجتماعياً أو أخلاقياً) لا يكفى لتحقيقها وإنما يلزم وجود بقية مستويات المنظومة .

٢-المساواة(المواطنة): هذا المبدأ غاية فى الأهمية فى منظومة الحرية، وهو يعنى أن البشر كل البشر متساوين فى الحقوق والواجبات ومتساوين فى حقهم فى الحرية، فكلهم من خلق لله . وهذا المبدأ حين يتحقق يستبعد حق إنسان فى استعباد إنسان آخر على قاعدة أفضلية عرقية أو طائفية أو غيرها، فالجميع لهم حق الحياة ولهم حق المشاركة، بمعنى أن الجميع لهم حق المواطنة فى الدولة أو فى الأمة أو فى الأسرة البشرية كلها . وحين يختل هذا المبدأ يعتقد بعض الناس أنهم جديرون بالحرية دون غيرهم وأنهم فوق من يعتقدون أنهم دونهم وهنا تبدأ بذور القهر والاستبداد .

٣-الشورى(أو الديموقراطية): وهى آليات لتنفيذ مفهومى الحرية والمساواة، وهذه الآليات تتشكل حسب الظروف فيمكن أن تأخذ صورة أهل الحل والعقد، أو صورة البيعة، أو صورة الانتخابات . وقد مرت البشرية بتجارب كثيرة سعياً نحو أسلوب أمثل لتحقيق مبادئ الحرية والمساواة ووصلت إلى نجاحات نسبية ولا نقول مثالية لذلك،

فوضعت النظم والدساتير والآليات التى تمنع الاستبداد وتحافظ على الحرية . وهذه الآليات ليست هدفاً فى حد ذاتها وإنما هى وسائل لتحقيق الحرية قدر الإمكان فى حياة البشر وبالتالى يمكن أن يتم تطويرها وتعديلها من وقت لآخر .

٤ - الصلاح: وبما أن الحرية والمساواة والشورى (أو الديموقراطية) ليست مفاهيم فلسفية مجردة وإنما هى مبادئ وأسس لصلاح الحياة فلابد وأن يتحقق هذا الهدف كثمرة لكل ما ذكرنا . وإذا حدث ولم يتحقق هذا الصلاح (عمارة الأرض) فلابد من مراجعة المفاهيم والوسائل السابقة للوقوف على مصدر الخلل .

منظومة الإستبداد :

وهى تتضمن صفات المستبد (بكسر الباء) والمستبد (بفتح الباء) بهم (المستعبدين)وطبيعة العلاقة بينهما، والبيئة التى يعيشون فيها .

١ - التأله (العلو والكبر): يشعر المستبد بعلوه على من حوله من البشر وملكيته لهم، وبالتالى يطلب منهم الطاعة والانقياد، ولا يسمح لهم بمخالفته أو مناقشته، ويتقمص صفات القاهر الجبار . وهكذا شيئاً فشيئاً تتضخم ذاته خاصة مع خضوع من حوله، ويصل فى النهاية إلى الاعتقاد بألوهيته، وهذا هو نهاية متصل الاستبداد والذى وصل إليه فرعون حين قال : (أنا ربكم الأعلى) ﴿النازعات : ٢٤﴾، وقال : (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) ﴿القصص : ٣٨﴾ .

٢ - الاستخفاف: وفى داخل نفس المستبد استخفاف واحتقار لمن يستبد بهم، ويزيد هذا الشعور بداخله كلما بالغوا هم فى طاعته ونفاقه والتزلف إليه لأنه يعلم بداخله كذبهم وخداعهم، ويعلم زيف مشاعرهم، ويشك فى ولائهم وإخلاصهم، كما أنه من البداية يشك فى قدراتهم وملكاتهم وجدارتهم، وبالتالى يصل فى النهاية إلى الشعور بالاستخفاف بهم . وكلمة الاستخفاف التى وردت فى القرآن الكريم (فاستخف قومه فأطاعوه) ﴿القصص٤﴾ تحمل فى طياتها معانى الاحتقار والاستهزاء والإذلال والاستغلال .

٣- الجبروت والعناد :- فالمستبد جبار متجبر عنيد وهى صفات متصلة ببعضها لأن جذورها فى النفس واحدة، فالمعنى اللغوى للجبّار هو الذى يقتل على الغضب وتجبّر الرجل بمعنى تكبر (مختار الصحاح لمحمد بن أبى بكر الرازى المتوفى سنة ٦٦٦ هجرية – دار الجيل – بيروت – لبنان ص٩١،٩٠ طبعة عام ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م) . فمنظومة الاستبداد تبدأ بالتكبر والاستعلاء الذى يصل إلى درجة التأله، ومن هنا كان بغض الله للمستبد وسخطه عليه لأنه ينازعه صفة الجبار وينازعه الألوهية بصفة عامة، وينازعه نفاذ الأمر الذى لا يبدل ولا يغيّر، ولهذا توعده العذاب الشديد، فعن أبى موسى ﵁ أن رسول الله ﷺ قال : إن فى جهنم وادياً، وفى الوادى بئر يقال له هبهب، حق على الله أن يسكنه كل جبار عنيد (راوه الطبرانى بإسناد حسن كما قال المنذرى فى الترغيب، والهيثمى فى : المجمع ١٩٧/٥ والحاكم وصححه ووافقه الذهبى ٣٣٢/٤) .

وعن معاوية ﵁ أن النبى ﷺ قال : ستكون أئمة من بعدى يقولون فلا يرد عليهم قولهم، يتفاحمون فى النار كما تفاحم القردة (رواه أبو يعلى والطبرانى، وذكره فى صحيح الجامع الصغير برقم ٣٦١٥) .

وواضح من طريقة العذاب عظم الجرم الذى يقع فيه كل طاغية ومستبد ودكتاتور فى أى موقع وعلى أى مستوى .

والمتكبر لا يحتمل اختلافاً فى الرأى، بل لا يسمح من البداية أن يكون هناك رأياً آخر يزاحمه لأن هذا الرأى الآخر يعتبر قدحاً فى تألهه وجبروته فهو يفترض أنه على صواب دائماً وأن ما يراه هو الحق المطلق، وبالتالى فهو يعتبر أن صاحب الرأى الآخر سفيهاً أو مضللاً ومتعدياً على مقامه الأرفع ومن هنا يكون غضبه شديداً يصل إلى درجة قتل المخالف مروراً بتعنيفه أو سجنه أو تعذيبه أو نفيه .

والمتكبر دائماً وأبداً عنيد لأنه يفترض أنه يمتلك الحقيقة المطلقة وبالتالى لا يقتنع برأى آخر ولا يريد أصلاً ولا يقبل أن يكون هناك رأى آخر .

٤-الفسق:- ومع استمرار السلوك الاستبدادى يتحول الناس (المستبد بهم) إلى كائنات مشوهه وذلك من كثرة الأقنعة التى يلبسونها لإرضاء المستبد فيتفشى فيهم النفاق والخداع والكذب والإلتواء والخوف والجبن وتكون النهاية كائنات مشوهه خارجة عن الإطار السليم للإنسان الذى كرمه الله، والقرآن الكريم يصفهم بالفسق، والفسق هنا كلمة جامعة لكل المعانى السلبية التى يكتسبها الخاضعون للمستبد (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين) ﴿الزخرف ٥٤﴾ .

٥-الفساد:- وحين تجتمع الصفات السلبية للمستبد مع الصفات السلبية للمستبد بهم تكون النتيجة بيئة مليئة بالفساد ﴿**وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد**﴾ ﴿الفجر١٠-١٢﴾ فالفساد نتيجة طبيعية ومباشرة للاستبداد مهما كانت مبررات الاستبداد ومهما كانت اللافتات التى يتخفى وراءها لأن الاستبداد تشويه للتركيبة النفسية للمستبد وتشويه أيضاً للتركيبة النفسية للمستبد بهم وبالتالى يحدث تشويه للبيئة التى يعيشون فيها، وكأن الاستبداد أحد أهم عوامل التلوث الأخلاقى والبيئى فى الحياة .

٦-الضلال:- ونظراً لمحدودية رؤية المستبد وتشوه تركيبته النفسية منذ البداية ثم زيادة هذا التشوه نتيجة تضخم ذاته بالمدح والثناء من المستعبدين (بفتح الباء)، ورفضه للإسترشاد برؤى الآخرين، وإصراره العنيد على إنفاذ أمره وحده فإن النتيجة هى قرارات خاطئة فى كل المجالات فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد .

٧-الهلاك:- والنتيجة المنطقية لتشوه المستبد وتشوه المستبد بهم، وفساد البيئة التى يعيشون فيها معاً هى الهلاك المحقق، فما من مستبد إلا ووصل بجماعته إلى الهاوية فضاع وضاعوا معه ﴿فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعو ن برشيد **يقدم قومه يوم القيامة فأوردوهم النار وبئس الورد المورود**﴾ (هود٩٧/٩٨) .

﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين**﴾ (القصص ٤٠) .

والهلاك ليس فقط فى الآخرة وإنما يسبقه هلاك فى الدنيا، وهلاك منظومة

الإستبداد ليس قائماً فقط على إعتبارات أخلاقية أو دينية وإنما هو سنة كونية وقانون حياتى لأن الإستبداد يسير ضد تيار الحياة الإنسانية وهو تشويه للفطرة (للمستبد والمستبد بهم) ولذلك فلا يمكن أن يستمر طالما قُدِّر للحياة أن تستمر وتنمو وتتطور، فالمستبد مثل أى ميكروب او فيروس يدخل الخلية ويوجه نشاطاتها لخدمته وفى حالة عجز الخلية عن إكتشافه ومقاومته بجهاز المناعه لديها فإن المآل الحتمى هو ضد قانون تطور الحياة ونموها .

والأمثلة التاريخية لهلاك منظومات الإستبداد ليس لها حصر، ففرعون قد هلك غرقاً هو وجنوده، ونيرون أحرق كل شيء وإحترق معه، وشاه إيران ضاع وضاع ملكه ولم يجد فى نهاية حياته مأوى يؤيه وظل حائراً بطائر ته فى الجو وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وشاوشيسكو انقض عليه شعبه سخطاً وغضباً وألقاه فى مزبلة التاريخ، وقبلهم هتلر تسبب فى قتل ٤٥ مليوناً من البشر ثم مات منتحراً أو مقتولاً تلاحقه اللعنات فى كل مكان، وصدام حسين أضاع ثروات العراق وأسلمها لاحتلال أمريكى بغيض لا يعرف أحد متى يرحل .

الإستبداد وعلاقته بنمط الشخصية:

هل توجد أنماط شخصية معين تميل إلى السلوك الإستبدادى ؟

نعم، فدراسة حياة مشاهير المستبدين على المستويات المختلفة تؤكد وجود أنماط شخصية معينة تميل إلى السلوك الإستبدادى خاصة إذا واتتها الظروف، ومن هنا تصبح معرفة هذه الأنماط مهمة للوقاية من السلوك الإستبدادى ومن المستبدين . ونذكر من هذه الأنماط الشخصية ما يلى:-

١- **الشخصية النرجسية:** صاحب هذه الشخصية لديه شعور خاص بالأهمية وبالعظمة ويبالغ فى قيمة مواهبه وقدراته وإنجازاته ويتوقع من الآخرين تقديراً غير عادى لشخصه وملكاته وإنجازاته المبهرة فى نظره وهو يعتقد أنه متفرد فى تكوينه وفى أفكاره ويحتاج لمستويات عليا من البشر كى تفهمه وتقدره، ويحتاج للثناء والمدح

الدائم والتغنى بجماله وكماله وأفكاره وبطولاته الأسطورية وتوجيهاته التاريخية ومواقفه العظيمة غير المسبوقة وهو لا يشعر بالتعاطف مع الآخرين ولا يتفهم إحتياجاتهم بل يريدهم فقط أدوات لتحقيق أهدافه وإسعاده وبلوغ مجده وهو أنانى شديد الذاتية ويسعى طول حياته ليضخم هذه الذات التى يعتبرها محور الكون، وربما ينجح فى الوصول إلى مراكز عليا فى الحياة بسبب إخلاصه الشديد فى تحقيق ذاته ورغبته فى التميز والإستعلاء على الآخرين .

٢-**الشخصية البارانوية**: تدور هذه الشخصية حول محور الشك وسوء الظن، فصاحبها لا يثق بأحد ويتوقع الإيذاء من كل الناس ولا يأخذ أى كلمة أو فعل على محمل البراءة بل يحاول أن يجد فى كل كلمة أو فعل سخرية منه أو إنتقاصاً من قدره أو محاولة لإيذائه، ولهذا نجده دائم الحذر من الآخرين، لا يهدأ ولا ينام، ويكافح طول عمره ليقوى ذاته ويحمى نفسه من الآخرين الأعداء دائماً وأبداً ، وهذا الشك والحذر وعدم الولاء للناس يدفعه للعمل الجاد والشاق لكى يصل إلى المراكز العليا فى مجال تخصصه، وهو حين يحقق ذلك يمارس السيطرة والتحكم فى الناس الذين يحمل لهم بداخله ذكريات أليمه من السخرية والإحتقار والإيذاء وبما أنه لا يسامح أبداً ولا ينسى الإساءة لذلك فهو يمارس عدوانه على من تحت يده انتقاماً وإذلالاً، ويحقر كل من دونه كراهية ورفضاً .

٣-**الشخصية الوسواسية**: والشخص الوسواسى يميل إلى الدقة والنظام والصرامة والإنضباط ولا يحتمل وجود أى خطأ، وهو فوق ذلك عنيد ومثابر إلى أقصى حد، ولهذا يميل إلى أن يتأكد من كل شىء بنفسه ولا يثق فى أحد لأنه يعتبر الآخرين عشوائيين وغير منضبطين وأنهم سوف يفسدون الأمور التى توكل إليهم، لذلك نراه إن كان والداً أو مسئولاً يريد أن يستحوذ على كل شىء فى يده ويتابع كل شىء بنفسه ولا يترك لأحد فرصة للتعبير عن نفسه أو تحمل مسئولياته، فالآخرين فى نظره غير جادين وغير دقيقين وغير صارمين مثله وهم يحتاجون دائماً للوصاية والتوجيه

والتحكم، فهم فى نظره أطفال عابثون يحتاجون فى النهاية لمن يضبطهم ويوجههم وإلا فسدت كل الأمور .

٤- **الشخصية السادية :** وهو الشخص الذى يستمتع بقهر الآخرين وإذلالهم والتحكم فيهم وكلما شاهد الألم فى عيونهم استراح وانتشى وواصل تعذيبهم وقهرهم ليحصل على المزيد من الراحة والنشوة .

٥- **الشخصية المعادية للمجتمع:** وهو نوع من الشخصية لا يحترم القوانين والنظم والشرائع ،بل يجد متعه فى الخروج عليها، ولا يشعر بالذنب تجاه شىء أو تجاه أحد، ولا يتعلم من تجارب فشله، ويعيش على ابتزاز الآخرين واستغلالهم مستغلاً سحر حديثه وقدرته على الكذب والمناورة والخداع، وهو شخص لا يفكر إلا فى نفسه وملذاته، والآخرين ليسوا إلا أدوات يستخدمها لتحقيق ملذاته .

وبعد استعراض هذه النماذج الشخصية الأكثر ميلاً للإستبداد نود أن ننوه أن المستبد يمكن أن يكون أحد هذه الأنماط ويمكن أن يكون خليطاً منها بعضها أو كلها .

أما المستبد بهم (المقهورين) فيمكن أن يكونوا أناساً ذوى سمات متباينة ولكن يغلب أن يكون لديهم سماتاً ماسوشيه بمعنى أن لديهم ميل لأن يتحكم فيهم أحد وأن يخضعوا له ويسلموا له إرادتهم ويستشعروا الراحة وربما المتعه فى إيذائه لهم و إذلاله إياهم، فلديهم مشاعر دفينة بالذنب لا يخففها إلا قهر المستبد وإذلاله لهم على الرغم مما يعلنون من رفضهم لاستبداده . وهؤلاء المستعبدين ربما يكون لديهم معتقدات دينية أو ثقافية تدعوهم إلى كبت دوافع العنف وتقرن بين العنف والظلم وتعلى من قيمة المظلوم وتدعو إلى التسامح مع الظالم والصبر عليه وترى فى ذلك تطهيراً لنفس المظلوم من آثامه .

والشخصيات المستعبدة لديها شعور بالخوف وشعور بالوحدة لذلك يلجأون إلى صنع مستبد ليحتموا به ويسيروا خلفه ويعتبرونه أباً لهم يسلمون له قيادتهم وإرادتهم ويتخلصون من أية مسئولية تناط بهم فالمستبد قادر على فعل كل شىء فى نظرهم، وفى مقابل ذلك يتحملون تحكمه وقهره وإذلاله ويستمتعون بذلك أحياناً .

إذن فالمستبد ليس وحده المسئول عن نشأة منظومة الإستبداد ولكن المستعبدين (المستبد بهم) أيضاً يشاركون بوعى وبغير وعى فى هذا على الرغم من رفضهم الظاهرى للإستبداد وصراخهم منه أحياناً . ولا تزول ظاهرة الاستبداد عملياً فى الواقع إلا حين تزول نفسياً من نفوس المستعبدين حين ينضجوا ويتحرروا نفسياً ويرغبون فى استرداد وعيهم وكرامتهم وإرادتهم التى سلموها طوعاً أو كرهاً للمستبد، حينئذ فقط تضعف منظومة الاستبداد حتى تنطفئ، وليس هناك طريق غير هذا إذ لا يعقل أن يتخلى المستبد طواعية عن مكاسبه من الاستبداد خاصة وأن نمط شخصيته يدفعه دفعاً قوياً للمحافظة على تلك المكاسب الهائلة . وإذا رأينا المستعبدين (المستبد بهم) ينتظرون منحهم الحرية من المستبد فهذه علامة سذاجة وعدم نضج منهم توحى ببعدهم عن بلوغ مرادهم وتؤكد احتياجهم لمزيد من الوقت والوعى ليكونوا جديرين بالحرية، فقد أثبتت خبرات التاريخ أن الحرية لا تمنح وإنما تسترد وتكتسب .

المستبد ودافعي التملك والخلود :

إن دافعى التملك والخلود ليسا قاصرين على المستبد وحده فهما دافعين أساسين فى النفس البشرية وقد عرفهما إبليس وحاول اللعب عليهما عندما أراد أن يغوى آدم فقال له مغرياً إياه بالأكل من الشجرة المحرمة (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) ﴿طه : ١٢٠﴾. (وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) ﴿الأعراف : ٢٠﴾ .

وفعلاً نجح الإغواء لآدم على الرغم من التحذير الإلهى له (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) ﴿البقرة : ٣٥﴾ وعلى الرغم من إتاحة فرص التنعم المتعددة فى الجنة، وهذا يدل على قوة هذين الدافعين وعمقهما فى النفس البشرية، وعلى أنهما نقطتى ضعف يسهل الإغواء عن طريقهما .

ويبدو أن هذين الدافعين يكونان متخضمين فى نفس المستبد فهو لا يشبع من التملك وهو يسعى إلى الخلود وينكر فى أعماقه فكرة الموت . وكلما اتسعت دائرة نفوذه وكلما

انتشرت صوره وتماثيله فى كل مكان كلما انزلق إلى الإعتقاد بفكرة خلوده، ولو أصابه المرض أو أدركته الشيوخة وأيقن بفكرة موته فإنه يتسمك بملكه ويتعلق بخلوده من خلال أبنائه فيحرص على توريثهم كل ما استطاع أن يتملكه فهم امتداد لذاته، وهذه هى سيكولوجية الأنظمة التى تقوم على فكرة التوريث حفاظاً على بقاء المُلْك وخلود الذِكْر .

ومن سنن الكون التى قدرها الله أن كل من يتعلق بالملك أو الخلود يزول منه لأن الملك لله وحده والخلود له وحده، وحين سعى آدم نحو الملك الذى لايبلى والخلود، ابتلاه الله بالحرمان من الجنة بل والحرمان مما يستره من ملابس (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما) ﴿الأعراف : ٢٢﴾.هكذا يحدث مع كل مستبد تخدعه ذاته أو يخدعه إبليس بفكرة الخلود أو الملك الذى لا يبلى، حيث يبتلى بضياع الملك ويبتلى بالطرد من الجنة التى عاش فيها وظن أنه خالد فيها .

مستويات الاستبداد :

تبدأ بذرة الاستبداد داخل النفس ثم تنبت وتتمدد شجرته الخبيثة لتمد فروعها داخل الأسرة ثم داخل المدرسة ثم داخل المؤسسات ثم داخل المجتمع ثم داخل النظام السياسى حتى يصل إلى المستوى الدولى . وفيما يلى إيضاح لهذه المستويات :

١-الاستبداد النفسي:– ربما يكون هذا المفهوم غريباً بعض الشئ، ولكنه فى الحقيقة هو جذر شجرة الاستبداد، وهو النموذج الأولى للاستبداد (Prototype)ولكى نفهم الاستبداد النفسى لابد أن نعلم بأن النفس البشرية رغم وحدتها الظاهرة إلا أنها تتكون من كيانات مختلفة تختلف أسماؤها باختلاف النظريات النفسية، ففى النظرية التحليلية لفرويد نجد الهو والانا والأنا الأعلى، وفى نظرية التحليل التفاعلاتى لإريك برن نجد ذات الطفل وذات الناضج وذات الوالد، وفى علم النفس التحليلى نجد الأنيما والأنيموس ونجد القناع والظل، وفى نظرية كارين هورنى نجد الذات المثالية والذات الاجتماعية والذات الحقيقية .

وتبدأ فكرة الاستبداد داخل النفس حين يتضخم أحد الكيانات أو أحد الذوات داخل النفس على حساب الكيانات أو الذوات الأخرى وهنا يختل التوازن النفسى

ويتوحش هذا الجزء المتضخم فى حين تضمر وتنسحب الأجزاء الأخرى منتظرة اللحظة المناسبة للانقضاض على الجزء المستبد، وفى كل هذه الحالات تمرض النفس أو تتشوه أو تهلك .

٢- **الاستبداد الأسرى:-** ففى الأسرة تتأكد مفاهيم الحرية أو تنتفى، فهى المحضن الأول والأساس لقيم الحرية والمساواة والعدل وغيرها من القيم، فإذا مارس الأب أو مارست الأم الاستبداد كان ذلك بمثابة نموذج أوّلى للاستبداد يحمله الطفل معه ويتحرك بموجبه فى كل المواقع التى يذهب إليها، فهو يتصنع الخضوع والاستسلام ويسلم إرادته لوالده المستبد، ثم حين تواتيه الفرصة (حين يكبر هو أو يضعف أبوه) ينقض عليه منتقماً ومتشفياً .

٣- **الاستبداد المدرسى:-** ويمارسه ناظر المدرسة على مدرسيه ثم يمارسه المدرسون على الطلاب ثم يمارسه الطلاب الأقوياء على الطلاب الضعفاء .

وبما أن المدرسة داراً أساسية للتربية فهى تنمى ذلك السلوك وتدعمه بل وتعطيه شرعيه تربوية وأخلاقية .

٤- **الاستبداد المؤسسى:-** وهو امتداد طبيعى للاستبداد الأسرى والاستبداد المدرسى حيث تقوم كل المؤسسات على فكرة شخص واحد كبير يعرف كل شئ ويتصرف وحده فى كل شئ، وقطيع من المرؤسين يسمعون ويطيعون . والعلاقة هنا بين الرئيس والمرؤس تقوم على الخوف والعداوة المستترة تحت غطاء من النفاق والخداع .

٥- **الاستبداد الدينى:-** فعلى الرغم أن الدين الصحيح يؤكد مفهوم الحرية (حتى فى الاعتقاد الدينى نفسه) ويؤكد مفهوم المساواة ويؤكد مفهوم الشورى إلا أن بعض الأفراد أو بعض المؤسسات ربما تستغل بعض المفاهيم الدينية أو شبه الدينية لتمارس تسلطها على الناس بحجة أنها تتحدث باسم الإله وبأمره وأنها تملك الحقيقة المطلقة التى لا يصح معها حوار أو نقاش، وربما يكون هذا هو أخطر أنواع الاستبداد لأنه يذل أعناق البشر باسم الدين وتحت رايته . وهذا النموذج نراه واضحاً فى زوج يقهر زوجته محتجاً

بنصوص مأخوذة بغير معناها وخارج سياقها، أو أب يستبد بأبنائه ويلغى إرادتهم شاهراً آيات الطاعة فى وجوههم، أو رجل دين يمنح صكوك الغفران لمن يرضى عنه ويلقى بسخطه وغضبه على من يخالفه، أو حاكم يتستر تحت مفاهيم دينية ليخفى طغيانه .

ومن علامات الإستبداد الدينى تآكل منطقة المباح، تلك المنطقة فى السلوك البشرى التى سكت الله عنها لا نسيانا ولا إهمالا وإنما ليعطى فسحة للعقل البشرى أن يتصرف بحرية فى أشياء لاتقع فى منطقة الحلال أو منطقة الحرام . ومنطقة المباح هذه هى التى قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم أنتم أعلم بأمور دنياكم ، وهى منطقة أرادها الله أن تكون واسعة وأن يحررها من قيود الحلال والحرام لكى يعطى العقل البشرى فسحة للعمل والإبداع دون حرج . وفى مجتمعات الإستبداد الدينى تعلو أصوات رجال الدين معلنة تحكمهم فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة الناس تحت زعم أن الدين لم يترك شيئا إلا ووضع له حكما، ونسوا أو تناسوا أن حكم منطقة المباح أن تكون حرة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكره كثرة السؤال حتى لايقع الناس فى فخ التشديد والإلزام فى أشياء لاتستدعى ذلك . وهذه المجتمعات التى تتآكل فيها منطقة المباح ويصبح الناس أسرى لآراء رجال الدين فى كل صغيرة وكبيرة يقعون فى فخ الكهنوت وهو مقدمة الإستبداد الدينى .

٦-**الاستبداد الاجتماعي (الطبقى)**:- بمعنى أن تستبد طبقة ما بمقاليد الأمور مثل طبقة النبلاء أو الإقطاعيين أو طبقة رجال الأعمال أو طبقة البروليتاريا، فى حين تستبعد باقى الطبقات وتعيش مقهورة ذليله ولا تملك إلا الإنتظار المؤلم الحقود للحظة تتمرد فيها وتنقض على الطبقة المسيطرة وإذا انتصرت هذه الطبقة الجديدة المنقضة أو الثائرة أو المتمردة فإنها تستبد هى الأخرى بالأمور وتلغى أو تستبعد أو تستعبد الطبقات الأخرى وتبدأ دورة جديدة من دورات الاستبداد تنهك قوى المجتمع وتفقده أفضل ملكاته وإمكاناته .

٧-**الاستبداد السياسى**:- وهو أكثر مستويات الاستبداد شهرة لدرجة أنه حين تذكر كلمة الاستبداد يخطر فى الذهن مباشرة هذا النوع من الاستبداد دون غيره، ربما

لأنه الأكثر وضوحاً أو الأكثر شيوعاً أو الأوسع تأثيراً . وهذا الوضوح وهذه الشهرة للاستبداد السياسى يجعلنا فى غنى عن الحديث عنه بالتفصيل فقد أصبح من البديهيات ولكننا فقط ننوه إلى جذوره التى جاءت من نفس مستبدة وأب مستبد وناظر مستبد ومدير مستبد ووزير مستبد ورجل دين مستبد، فالاستبداد السياسى ثمرة مرة لثقافة استبدادية على مستويات متعددة وهو لا يزول بمجرد ثورة أو انقلاب ولكنه يزول حين تسرى ثقافة الحرية والمساواة والعدل فى كل أو أغلب المستويات سابقة الذكر . وسريان ثقافة الحرية وحده لا يكفى بل لابد من أن يكافح معتنقوا الحرية من أجل ترسيخ آليات لممارسة الحرية مثل الشورى أو الديموقراطية أو أى آلية أخرى تكون ضماناً لاستمرار الحرية وحاجزاً أمام كل مستبد طامع يحاول الانقضاض فى أى لحظة على هذه القيم تحت أى لافتة مهما كانت براقة .

٨- **الاستبداد الدولي:-** وقد أصبح هذا الاستبداد واضحاً منذ ظهور عالم القطب الواحد حيث تتحكم الامبراطورية الأمريكية الآن - منفردة - فى مقاليد الأمور، حتى الهيئات والمنظمات الدولية التى نشأت للمحافظة على الشرعية الدولية قد أطيح بها وأصبحت أداة فى يد الدكتاتورية الأمريكية المستبدة . وتقوم بريطانيا بدور هامان للفرعون الأمريكى المتغطرس فبريطانيا لديها طموح سياسى تحققه من خلال تقديم الخدمات لأمريكا وتبرير أفعالها والسير فى ركابها وتقوم اليابان والصين بدور قارون المستفيد مادياً من هذا النظام العالمى الفاسد . أى أن أطراف الثالوث الاستبدادى (فرعون وهامان وقارون) التى ذكرناها آنفاً متحققة تماماً فى النموذج الدولى .

وهذه الأطراف الاستبدادية تتحكم فى مقدرات الضعفاء والمستضعفين والخاضعين والمستسلمين من شعوب العالم .

أطراف الاستبداد:

وهناك أطراف (أو أضلاع أو أركان) ثلاثة للاستبداد تتحالف مع بعضها وتتآمر لخلق منظومة الاستبداد التى تحاول أن تستفيد منها (أو تتوهم أنها ستستفيد منها) ويحدد

الدكتور / يوسف القرضاوى (فتاوى معاصرة، الجزء الثانى، دار الوفاء المنصورة، الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م صفحة ٦٣٩) أطرافاً ثلاثة للإستبداد هى :

الأول :- الحاكم المتأله المتجبر فى بلاد الله، المتسلط على عباد الله، ويمثله فرعون .

والثانى:- السياسى الوصولى، الذى يسخر ذكاءه وخبرته فى خدمة الطاغية، وتثبيت حكمه، وترويض شعبه للخضوع له ويمثله هامان .

والثالث:- الرأسمالى أو الإقطاعى المستفيد من حكم الطاغية، فهو يؤيده ببذل بعض ماله، ليكسب أموالاً أكثر من عرق الشعب ودمه، ويمثله قارون .

ولقد ذكر القرآن هذا الثالوث المتحالف على الإثم والعدوان، ووقوفه فى وجه رسالة موسى، حتى أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر : ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذّاب**﴾ ﴿غافر : ٢٣، ٢٤﴾ . ﴿**وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين** ﴾ ﴿العنكبوت ٣٩﴾.

والعجيب أن قارون كان من قوم موسى، ولم يكن من قوم فرعون، ولكنه بغى على قومه، وأنضم إلى عدوهم فرعون، وقبله فرعون معه، دلالة على أن المصالح المادية هى التى جمعت بينهما، برغم اختلاف عروقهما وأنسابهما (انتهى كلام الدكتور / يوسف القرضاوى) .

أدوات الاستبداد :

لابد للاستبداد من أدوات للترهيب والترغيب حتى تخضع له الرقاب ويسلم له العباد (أو العبيد) إرادتهم وخياراتهم .

والمستبد يعرف جيداً مواطن ضعف البشر ويحاول استغلالها بأبشع الطرق وأكثرها حقارة ودهاءاً فى نفس الوقت . ونذكر من هذه الأدوات حسب ترتيب أهميتها:-

١-السلطة:- فالأب المستبد يستغل نفوذه المالى وقوته الجسدية ومكانته المعنوية فى قهر أبنائه، والزوج المستبد يستغل حق القوامة (كما يفهمه) ويستغل تفوقه العضلى وربما المالى فى إذلال زوجته ووأدها، والمسئول المستبد يستغل ما يملك من صلاحيات للتحكم فى رقاب مرؤسيه، والحاكم المستبد يستغل جنوده (الشرطة والجيش) لإرهاب رعيته ويستغل النظام السياسى الموالى له لإضفاء الشرعية على أفعاله وتجريد خصومه من تلك الشرعية ووصفهم بالتآمر والخيانة والإفساد فى الأرض وتعكير صفو الأمن .

والقرآن يصور هذا الموقف فى قوله تعالى : (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) ﴿القصص ٨﴾ . وقوله (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) ﴿القصص ٤٠﴾ .

٢-المال:- ومن لا يصلح معه الترهيب بالسلطة يصلح معه الترغيب بالمال، ولهذا يحرص المستبد على إمساك الثروة فى يده لتكون وسيلة ضغط على من تحت يده ووسيلة ترغيب وشراء ذمم .

٣-المناصب:- ينتقى المستبد من بين الناس أولئك المتعطشين للمناصب والراغبين فى العلو بأى ثمن فيستخدمهم ويستعملهم كدروع له وكأدوات لحمايته وتبرير أفعاله وتمجيده وتحلية صورته أمام العامة .

٤-الإعلام:- فالمستبد يحتاج لمن يدارى سوءاته ويزين عوراته ويسوق مشروعاته وأفكاره بين الناس ويبرر أخطائه ويحولها إلى انتصارات ويمارس التزييف للوعى والتخدير للعقول ودغدغة المشاعر طول الوقت . ومن هنا يمكن أن نعتبرالإعلاميين الموالين لأى مستبد بمثابة سحرة فرعون الذين كانت مهمتهم أن يسحروا أعين الناس بمعنى تزييف وعيهم .

٥-رجال الدين:- ونقصد بهم فئة معينة من رجال الدين يقبلون إضفاء شرعية دينية على فكرة الإستبداد وإضفاء شرعية على كل أفعال المستبد وإستغلال المفاهيم

الدينية لتبرير وتمرير كل ما يقوم به المستبد، وإصدار الفتاوى المبنية على تفسيرات تلوى عنق الحقيقة لمصلحة المستبد . وكل مستبد يسعى إلى تقريب عدد من رجال الدين (حتى ولو كان هو ملحداً أو علمانياً) لمعرفته بقيمة الدين لدى الناس وتأثرهم به .

المستبد يصنعه الناس من حوله :

قد يبدو للنظر القصير أن مجموعة المحيطين بالمستبد ضحايا له إذ يعانون من إستبداده ويتحملونه على مضض وهذا صحيح من جانب واحد أما الجانب الآخر فهو أنهم شاركوا فى صنع هذا المستبد، بعضهم شارك بالأقوال والأفعال التى ضخمت ذات المستبد (كالمدح والثناء والتبرير لكل صفات المستبد وأفعاله والمشاركة فى تنفيذ مشروعات المستبد) وبعضهم الآخر شارك بالصمت والإنكماش مما سمح لصوت المستبد أن يعلو عمن سواه وسمح لذاته أن تتمدد فى الفراغ الذى انسحب منه الآخرون كرهاً أو طوعاً .

ولهذا كانت قاعدة تغيير المنكر واجبة وفاعلة على مختلف مستويات القدرة من اليد إلى اللسان إلى القلب (والإستبداد من أخطر المنكرات) : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع، فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ... أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر .

وعلى الرغم من أن التغيير بالقلب يبدو هافتاً وضعيفاً إلا أنه مهم جداً حين يعجز الإنسان عن التغيير بالوسائل الأخرى (اليد واللسان) فبقاء الرفض القلبى للمنكر هو بمثابة بذرة للخير وجذوة للحق تظل كامنة إلى أن تتاح لها الظروف للنمو والظهور ولولاها لاختفى الخير وضاع الحق إلى الأبد .

والناس يدفعون ثمن سكوتهم على الإستبداد مرتين مرة فى الدنيا ومرة فى الآخرة ففى الدنيا فساد وضياع ومعاناة وفى الآخره عذاب شديد، وكأن الإستبداد خطيئة دنيوية وأخروية معاً . عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عُجْره: أعاذك الله من إمارة السفهاء يا كعب قال وما إمارة السفهاء ؟

قال : أمراء يكونون بعدى، لا يهدون بهديى، ولا يستنون بسنتى، فمن صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا منى ولست منهم ولا يردون على حوضى، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم، أولئك منى وأنا منهم وسيردون على حوضى (رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح، كما فى إلى الترغيب للمنذرى، والزوائد للهيثمى ٢٤٧/٥) .

وعن عبدالله بن عمرو مرفوعاً : إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم : يا ظالم، فقد تودع منهم (رواه أحمد فى المسند، وصحح شاكر إسناده (٦٥٢١) ونسبه الهيثمى للبزار أيضاً بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح ٢٦٢/٧، والحاكم وصححه ووافقه الذهبى ٩٦/٤) .

النموذج المثالى للاستبداد : (Prototype) :

نعتد فى علم النفس بما يسمى النموذج المثالى أو الأصلى وهو نموذج تتوافر فيه كل الأركان أو أغلبها على الأقل بحيث يصبح أصلح النماذج للقياس عليه وضرب المثل به، فهو يمثل ظاهرة معينة فى أوضح وأتم صورها ومعانيها .

وإذا جئنا إلى موضوع الاستبداد نجد أن النموذج المثالى له يتمثل فى قصة فرعون التى وردت فى الكتب السماوية ووردت بقوة فى القرآن الكريم وتكررت ٧٤ مرة فى ٢٨ سورة من سور القرآن .

وهذا الحضور القوى المتكرر لقصة فرعون يشير إلى أن ما تمثله هذه القصة من استبداد يعتبر مرضاً عضالاً تحتاج البشرية لمواجهته، وهذا ما أيده التاريخ فى كل مراحله فلم يحدث أن عانى البشر من شئ مثل معاناتهم من الاستبداد بصوره ومستوياته المختلفة .

وفرعون أصبح علماً على الاستبداد وقائداً معلماً لكل المستبدين من بعده فقد (علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم . إنه كان من المفسدين) ﴿القصص : ٤﴾ ، فالمستبد مستعلٍ متكبر طاغ

يستضعف من يشاء يذبح الذكور ويستحى النساء ويفسد فى الأرض . وربما كان فى ذبحه للذكور دلالة نفسية خاصة فالمستبد يخشى الرجال (الذكور) ويتوجس منهم خيفة لذلك يحيط نفسه بمن يقبلون التخلى عن رجولتهم، فهو يقوم بخصاء أو قتل الذكور حتى لا ينافسه أحد منهم ولا يرفع رأسه أحد. وإذا غاب الرجال المنافسون أصحاب الكرامة والشرف والعزة قام بعد ذلك باستباحة النساء والإفساد فى الأرض كما يحلو له . واستباحة النساء هنا تجمع فى طياتها كل انواع الملذات التى يحرص عليها المستبد، والإفساد من قتل ونهب وسرقة وتشريد وكذب ... إلخ وعلى الرغم من حذر المستبد (فرعون، أى فرعون) ويقظته وحرصه على التخلص من كل الرجال المنافسين أو المهددين لملكه إلا أن هذا الحذر لا يمنع نفاذ مشيئة الله فى انهيار ملكه وتمكين أولئك الذين استـضـعـفـهم وأذلهم : (**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)** ﴿القصص : ٥،٦﴾ .

وفرعون وجنوده كأى مستبد يستخدم التعذيب ليرهب الناس (**وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب**) ﴿البقرة :٤٩﴾ .

وفرعون يجلب على قومه الشح والفقر (**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات)** ﴿الأعراف : ١٣٠﴾.

وفرعون يبنى مجداً زائفاً قضت مشيئة الله أن يدمر (**ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون)** ﴿الأعراف : ١٣٧﴾ .

وفرعون وحاشيته لا يؤمنون بآيات الله حتى وإن تظاهروا بالإيمان وتوشحوا بالدين (**كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله**) ﴿الأنفال : ٥٢﴾ ولسان حالهم يفضحهم فأفعالهم توحى بتكذيب آيات الله (**كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم)** ﴿الأنفال : ٥٤﴾ .

ومصير فرعون وأعوانه الهلاك (**فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون**) ﴿الأنفال :٥٤﴾.

وفرعون لا يتورع عن استخدام كل الوسائل للدعاية لنفسه وتزيين صورته فلكل فرعون سحرة (إعلاميون) يمارسون تزييف وعى الناس وإبهارهم بالصورة أو بالكلمة أو بالفعل (**وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم**) ﴿يونس : ٧٩﴾ .

وفرعون يحرص على تخويف الناس وفتنهم (**على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم**) ﴿يونس :٨٣﴾.

وفرعون يستعلى دائما فى الأرض ويتسم بالإسراف والطغيان وتجاوز كل الحدود (**وإن فرعون لعالٍ فى الأرض وإنه لمن المسرفين**) ﴿يونس : ٨٣﴾.

وفرعون يحرص على التحلى بمظاهر الزينة والفخامة ليحيط نفسه بهالات الملك والعز ليبهر بها أعين الناس ويحرص على امتلاك المال ليضمن به النفوذ والقدرة ويستخدمه فى شراء الذمم (**وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً**) ﴿يونس : ٨٨﴾ .

وفرعون لا يهدأ ولا ينام بل يتتبع أعداءه أينما ذهبوا بعيونه وبطشه (**وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده**) ﴿ يونس : ٩٠﴾. وفرعون يفتقد للرأى الرشيد (**وما أمر فرعون رشيد**) ﴿هود : ٩٧﴾.

وفرعون لا يتردد أن يلصق التهم بمعارضيه لينفر الناس منهم (**فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحوراً**) ﴿الإسراء : ١٠١﴾ .

وفرعون طاغ ومتجبر ومتجاوز كل الحدود فى الظلم (**اذهب إلى فرعون إنه طغى**) ﴿طه : ٢٤﴾ .

وفرعون لا يكف عن المكر والتدبير وحشد كل إمكاناته للدفاع عن ملكه والاستعراض لقوته لإرهاب معارضيه (فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى) ﴿طه : ٦٠﴾.

وفرعون ينحرف بقومه عن الجادة ويضلهم عن سواء السبيل (وأضل فرعون قومه وما هدى) ﴿طه: ٧٩﴾ .

وفرعون وأعوانه لا يكفون عن ظلم الناس لدرجة أن الظلم أصبح أحد صفاتهم المشهورة «وإذ نادى ربك موسى أن أئت القوم الظالمين قوم فرعون » (الشعراء :١١).

وفرعون يتنكر لوجود رب العالمين لأن طغيانه جعله يعتقد أنه أعلى قوة فى الأرض «قال فرعون وما رب العالمين» (الشعراء : ٢٣) .

وفرعون يشترى كل شئ بالمال «فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين» (الشعراء : ٤١) .

وفرعون يوهم أتباعه أن له أسرار ومعجزات وقدرات هائلة «فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون» (الشعراء : ٤٤) .

وفرعون يتسم بالفسق والخروج عن طريق الحق «إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين » (النمل : ١٢) .

إن فرعون وهامان وجنودهما (الطاغية المتكبر والسياسى الوصولى وقوتهما العسكرية الباطشة) يمثلون ثالوثاً شيطانياً «إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين» (القصص : ٨) .

وفرعون لا يتورع عن إعلان ألوهيته بشكل مباشر أو غير مباشر «وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى » (القصص : ٣٨) .

ويتشكل ثالوث شيطانى آخر من فرعون (الطاغية المستبد) وهامان (السياسى الوصولى الداهية) وقارون (صاحب رأس المال الجشع) «وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض» (العنكبوت : ٣٩).

وفرعون لا يتورع عن قتل معارضيه (تصفيتهم جسدياً أو معنويا) أو محاولة قتلهم ظناً منه أن ذلك سوف يحل المشكلة «وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه» (غافر : ٢٦) .

وفرعون يحرص على حجب الرؤية والمعرفة والحقيقة عن شعبه حتى ينفرد وحده ببرمجة عقولهم وتزييف وعيهم «وقال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد» (غافر :٢٩) .

ويظن فرعون أنه قادر على كل شئ، ويخدعه وزيره هامان ويوحى له بأن كل شئ ممكن وأن كل شئ رهن اشارته «وقال فرعون يا هامان أبن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب» (غافر : ٣٦) .

وفرعون من كثرة ما مارس الكذب والخداع يقع هو فى نفسه فى شرك الأوهام فيصدقها ويعانى هو نفسه من تزييف الوعى «وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل» (غافر : ٣٧) .

وفرعون لا يصل إلى شئ فى النهاية، فقد انهار كل فرعون على مدى التاريخ «وما كيد فرعون إلا فى تباب» (غافر : ٣٧) . «فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب» (غافر : ٤٥) .

وفرعون لا يلقى جزاءه فى الدنيا فقط بل ينتظره عذاب شديد فى الآخرة، ليس هو وحده بل كل من انتسب إليه أو عمل معه «ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» (غافر : ٤٦) . ودخول فرعون وأعوانه أشد العذاب يدل على فداحة جريمة الاستبداد وما تفرع عنها من جرائم .

وفرعون مغتر بملكه ويظن أنه دائم وأنه يحميه «ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر» (الزخرف : ٥١) .

وفرعون وأعوانه فى كل العصور لا يعتبرون بما يصلهم من رسائل إنذار فيتجاهلونها رسالة وراء أخرى حتى يلقون المصير المحتوم «ولقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر» (القمر : ٤١,٤٢).

وبعد فقد كانت هذه هى صورة وخصائص فرعون فى القرآن كنموذج مثالى لطبائع المستبد وخصائص الاستبداد .

أكذوبة المستبد العادل :

شاع مفهوم المستبد العادل فى المجتمعات الإسلامية وذلك نظراً لافتقادهم حتى مجرد الحلم بالشورى أو الديموقراطية فرضوا بالاستبداد ولكن تمنوا أن يكون المستبد عادلاً، وراحوا يستدعون نماذج تاريخية يؤيدون بها هذه الفكرة وصورت لهم عقولهم أن عمر بن الخطاب أو غيره من خلفاء المسلمين أقرب ما يكون إلى هذا النموذج، فهو يمارس حكماً فردياً ولكنه منضبط بضوابط العدل والشرع . ويؤيد هذا المفهوم أكثر بعض التيارات الإسلامية التى تتشكك فى الديموقراطية ونسبها وأصلها وجدواها وتعتبرها من ممارسات الكفار، وتقف من الشورى موقفاً خاصاً إذ تعتبرها معلمة لا ملزمة بمعنى أن الحاكم يستشير من حوله ليعلم آراءهم فقط ثم يقرر ما يريد هو .

ونحن هنا لسنا فى مجال تفنيد هذه الآراء أو محاكمتها أو تقييمها من الناحية التاريخية أو الدينية وإن كانت فعلاً تحتاج لكل هذا، ولكننا سنلتزم بمناقشة مفهوم المستبد العادل من الناحية النفسية فنجد أن هذا المفهوم خاطئ من بدايته فبمجرد أن أصبح الإنسان مستبداً انتفت عنه صفة العدل فوراً، لأن استبداده يعنى انفراده وتعاليه واستئثاره بالرأى، ويعنى احتقاره للآخرين واستخفافه بهم واعتباره أنهم غير جديرين بالاستشارة فضلاً عن المشاركة وهم لا يصلحون فى نظره إلا للتبعية والتلقى والطاعة العمياء لما رآه فهو يقول لهم كما قال فرعون (ما أريكم إلا ما أرى) ، فأى عدل يكون بعد ذلك لدى هذا المستبد . وهذا المستبد يتنكر لما لدى الآخرين من عقل وحكمة ومهارة وكفاءة فيهدر كل هذا لحساب عقله هو وحده ، فأى جريمة يرتكبها حينئذ .

ولذلك نربأ بعمر بن الخطاب رضى الله عنه عن هذه الصفة، فقد كان حازماً قوياً فى الحق ولم يكن أبداً مستبداً، ويكفى أن نستدل على ذلك بالبيان الأول الذى شرح فيه منهجه للحكم حين قال : «أيها الناس من رأى منكم فىّ أعوجاجاً فليقو منى» فقال له رجل والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بحد سيفه ، وهو الذى عارضته امرأة

فى مسألة تحديد المهور فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر . ولم يشأ عمر – وهو على فراش موته – أن يفرض على ا لمسلمين خليفة بعينه وإنما وضع آلية للإختيار وترك للناس اختيار من يرونه صالحا . وكان دائم الإستشارة لصحابة ﷺ آخذا برأيهم .

فالاستبداد ينفى العدل تماماً، فهما ضدان لا يجتمعان فى شخص أو فى مجتمع.

العلاج:

إن علاج أى مرض يبدأ بالتشخيص الصحيح المبنى على أحدث ما وصل إليه العلم فى هذه المرحلة، ويلى ذلك مصارحة المريض بمرضه حتى يتعاون فى مراحل العلاج المختلفة، وفى حالة رفض المريض للعلاج فهنا أحد احتمالين :–

إما أنه يريد أن يزيد عليه المرض حتى يموت أى أن لديه ميول انتحارية خفية، أو أن هذا المريض فاقد للقدرة على الاستبصار بمرضه وهنا يتدخل العقلاء المحيطون به لعلاجه رغماً عنه حتى لا يكون بؤرة مرضية ينشر المرض فى المجتمع الإنسانى .

والعلاج لمرض خطير مثل الاستبداد لا يكون بالبخور والتمائم والشعوذة والزار ولا يكون علاجاً شعبياً غامضاً، وإنما يكون علاجاً على أسس علمية يسير على محاور أربعة :

١- **إعلاء قيمة الحرية في النفوس**:– خاصة وأن موضوع الحرية لم يأخذ مكانه اللائق به فى الفكر العربى والإسلامى، ويبدو أن العلماء قد عزفوا عنه خوفا من بطش الحكام فى المراحل المختلفة من التاريخ الإسلامى وانصرفوا إلى مناقشة مسائل فقهية وخلافات مذهبية لا ترقى إلى مستوى قيمة الحرية، أو أن التهديد الخارجى المتتابع (الصليبى والتترى والإنجليزى والفرنسى والإيطالى والإسرائيلى والأمريكى) قد أدى إلى تأجيل النظر فى موضوع الحرية لحساب الحشد فى مواجهة الأخطار الخارجية، وربما يكون المستبدون الداخليون قد استفادوا من هذه الظروف لتبرير استمرار استبدادهم . على أية حال فقد وجب إعادة موضوع الحرية إلى أعلى مستوى من الوعى العربى والإسلامى وعدم الإلتفات إلى أى مبررات للتأجيل أو التهميش .

ونحن نقصد أن تنتشر ثقافة الحرية على كل المستويات كما ذكرنا من قبل حتى لا يختزل الأمر إلى المستوى السياسى فقط كما يحدث دائماً .

٢- إعلاء قيمة المساواة (المواطنة): فالكل شركاء فى الوطن (بحق وحقيق) ، ولهم الحق فى التفكير والتخطيط والتنفيذ لصالح هذا الوطن، ونقصد هنا بالكل، كل الناس على إختلاف ألوانهم وأجناسهم ومعتقداتهم وهذا هو اصل مبدأ التعددية الذى هو الضمان الوحيد لأمن وسلامة المجتمع، حيث أن التمييز العنصرى وإستبعاد أو تهميش أو إلغاء أى طائفة أو مجموعة يؤدى بالضرورة إلى نمو تيارات عدائية تحتية تهدد أمن واستقرار الوطن بأكمله . فالديموقراطيات الحديثة أعطت فرصة التمثيل والعمل حتى للتيارات المتطرفة . وهذا فى حد ذاته صمام أمان حتى لا تعمل هذه التيارات سراً، بالإضافة إلى أن العمل العلنى يرشد ويحد من التطرف . والمساواة تتضمن فى طياتها قيمة العدل فما دام الناس متساوون إذن فلهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات .

ومبدأ المساواة يتضمن حقيقة أنه لاتوجد فئة مميزة تملك وتحكم طول الوقت وتستبعد وتعزل باقى الفئات وتصمها بالإنحراف أو الخيانة للوطن، فالمجتمع الدولى والإنسانى لم يعد يحتمل هذا التمييز العنصرى فى القرن الواحد والعشرين، ومن يصر على التشبث بهذه الأفكار العنصرية المتحجرة فسوف يدهسه قطار التاريخ وسوف ينظر إليه على أنه بؤرة صديدية تستحق الإجتثاث، والوقت لم يعد يحتمل المناورات أو الإلتفافات فالأوطان ملك لأبنائها جميعاً، ولم يعط أحد الحق لفئة معينة لتكون وصية على باقى أبناء وطنها تمنح من تشاء وتمنع عمن تشاء وتصف من تشاء بالمروق .

٣- وجود آلية مناسبة للتطبيق: ويجدر هنا أن نشير إلى الديموقراطية كنظام وآلية لتحقيق المساواة، حيث ثبت من تطبيقها فى المجتمعات الأخرى قدرتها (النسبية) على تحقيق الكثير من قيم الحرية والمساواة . والديموقراطية ليست هى النظام الأمثل لتحقيق الحرية ولكنها هى أفضل ما وصل إليه الفكر السياسى البشرى لتحقيق مبادئ الحرية وهى بالتالى قابلة للتطوير والتغيير مع استمرار نضج العقل البشرى، فهى فى

النهاية ليست نصوصا مقدسة .وربما يعلن البعض أن الديموقراطية نظام غربى ولا يصلح لنا، والرد على ذلك هو أن الديموقراطية ما هى إلا آلية لتحقيق الهدف مثل التليفون الذى يتيح لك الإتصال ومثل السيارة التى تتيح لك السفر، فالآليات تستخدمها لتحقيق أهدافك وليس لها دخل فى عقيدتك وأخلاقك وعباداتك، ومع هذا إذا تطورت مجتمعاتنا و أصبحت قادرة على صنع آلية افضل للشورى فلا بأس فى ذلك فنحن أشبه بمريض يحتاج للعلاج فوراً والعلاج هنا ليس له جنسية المهم أنه يؤدى للشفاء طالما أنه ليس محرماً، ولو أصبح لدينا مصانع محلية للدواء تنتج دواءاً أفضل من المستورد لوجب علينا إستخدام دواءنا . وعدم وجود آليه كان هو السبب الرئيسى فى أننا ندور حول أنفسنا منذ مئات السنين فنحن نتشدق بالحرية وبالمساواة وكتبنا الدينية وغير الدينية مليئة بالمبادئ العظيمة، لكننا نتوقف عند الأفكار والوجدانيات ولا نحولها إلى مشروعات سلوكية ولا نبحث لها عن آليات تطبيق ووسائل تقييم . ولقد وردت آيات الشورى فى القرآن مجملة وترك الله لنا كبشر إيجاد ا لآليات المناسبة لتحقيقها بما يتناسب مع تطور المجتمعات البشرية ، ولو كانت قد وضعت آلية محددة وثابتة لما ناسبت المجتمعات المختلفة فى المراحل التاريخية المتعاقبة . ولذلك وجدنا آليات متباينة مثل رأى أهل الحل والعقد، والبيعة وغيرها، وترك الأمر لمزيد من الإجتهادات . ولم يشأ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسمى خليفته من بعده صراحة وإنما ترك اختياره للناس وقد تم ذلك بالبيعة، وكان اختيار كل خليفة بعد ذلك بآلية ناسبت الظروف التى أحاطت بتوليه وفى هذا إشارة إلى ترك الآلية للإجتهاد البشرى بما يلائم ظروف الزمان والمكان . ومن خلال خبرات التاريخ المتعاقبة ونمو الفكر البشرى الإجتماعى والسياسى وجد الناس ضرورة أن يكون هناك نظاما ثابتا ينظم ويكفل تطبيق مبادئ الحرية وا لعدل والمساواة ويحول فى ذات الوقت دون انقضاض أى مستبد مغامر على هذه القيم الأساسية فى حياة البشر، وكان هذا النظام هو الديموقراطية .وربما يجد البعض حساسية خاصة فى تطبيق نظام غربى فى المجتمعات الإسلامية خاصة أن مرجعية الديموقراطية هى الشعب ومرجعية

المجتمعات الإسلامية هى ا لكتاب والسنة، وهذه إشكالية يجب مناقشتها بصدر رحب وإيجاد الحلول المناسبة لها مع الحذر من الإنتقاص من قيمة ا لحرية تحت دعاوى الخصوصية الثقافية (راجع مناقشة هذه الإشكالية وغيرها فى كتاب حوار لا مواجهة للدكتور / أحمد كمال أبو المجد، إصدار الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠، وكتاب فتاوى معاصرة للدكتور / يوسف القرضاوى، إصدار دا ر الوفاء للطباعة والنشر بالمنصورة) .

٣- **وسائل تقييم الإصلاح:** عندما نعالج أى مرض فلابد لنا من علامات و محكات ومقاييس توضح لنا مدى التحسن أو عدم التحسن بعد استخدام العلاج . وهذه أيضاً آلية نفتقدها فنحن لا نهتم ابدا بالرؤية المرتجعة أو التقيم المرتجع Feed back لأى نشاط قمنا به، وهذا التقييم المرتجع هو سر كبير من أسرار الحضارة لأنه يتيح الفرصة للمراجعة والتطوير والتحسين على أسس علمية .

٤- **الإيمان بروح الفريق ومنظومات العمل:** فقد عشنا دهراً نطرب للبطولات الفردية ونصفق لها ونصنع لها الملاحم (عنترة بن شداد، أبو زيد الهلالى، سيف بن ذى يزن، أدهم الشرقاوى) ومازلنا نعمل بشكل فردى ونفتقد لروح الفريق ولمنظومات العمل، وقد أصبح واضحاً أن العمل كفريق والعمل من خلال منظومة (System) يعتبر سراً من أسرار التقدم والحضارة، وأن الإنجازات الفردية مهما عظمت فلن تصنع أمه أو حضارة وإنما تصنع مجداً شخصياً لصاحبها وربما بالإضافة لذلك أصابته بالنرجسية وصنعت منه مستبدا .

الفصل الثالث

سيكولوجية التعذيب

لم يعرف التعذيب فى المخلوقات الأخرى، حتى الحيوانات المفترسة حين تتقاتل فإنها تفعل ذلك من أجل الحصول على الطعام أو حماية أنثاها وذريتها، وهى تكف عن القتال حين يتحقق الشبع ويتحقق الأمان، ولم يعرف عنها ممارستها للتعذيب والاستمتاع به والتفنن فيه كما يفعل البشر.

إذن فالتعذيب صناعة بشرية يمارسه فئة من الناس يتسمون باضطرابات فى الشخصية، تجعلهم قادرين على تجاوز الحدود المعروفة للرحمة والشفقة والعدل واحترام قدسية الحياة وكرامة الإنسان.

والإنسان كائن متفرد، فبقدر استحقاقه للتكريم والرفعة حين يصعد من خلال المنهج الإلهى إلى أعلى مراتب السمو، فإنه فى المقابل حين يهبط أو تهبط به غرائزه إنما يصل إلى أعماق سحيقة من الانحطاط والدناءة لا تعرفها المخلوقات الأخرى ولا تصل إليها.

والإنسان لديه غريزتان هامتان ومؤثرتان هما غريزة الجنس وغريزة العدوان، وهاتان الغريزتان تقعان فى الأحوال الطبيعية تحت سيطرة العقل الواعى (الأنا) والضمير (الأنا الأعلى) . أما إذا ضعفت هذه السيطرة بتغيب العقل أو تنحية الضمير كما هو الحال فى الحضارة الغربية الأمريكية المخمورة المتنكرة لقواعد الأخلاق والضمير فإن هاتين الغريزتين البدائيتين المتوحشتين تنطلقان بلا ضابط وتتجاوزان كل الخطوط الحمراء فى قتل البشر وتعذيبهم واحتقارهم، وربما تغطى كل هذا التجاوز باستخدام كلمات خادعة مثل الاستخدام المفرط للقوة أو الأخطاء الفردية لبعض الجنود.

وإذا كنا سنتحدث عن التعذيب وسيكولوجيته فنحن نتحدث عنه بمنظور شامل كعمل بشرى بغيض ربما يقوم به المعتدى الخارجى الأمريكى أو البريطانى أو

الإسرائيلى أ و المعتدى الداخلى (حاكم مستبد أومسئول ظالم) ، ولا فرق بين الاثنين فى بشاعة هذا الفعل، بل ربما يكون الجرح من المعتدى الداخلى من بنى جلدتنا أشد إيلاما لنفس المعذبين.

الخصائص النفسية للمعذبين:

(المعذِّبون بكسر الذال) إما أن يقوموا بذلك بشكل غير مباشر وهو إعطاء الأوامر أو إعطاء الضوء الأخضر أو التغاضى أو التعامى وهؤلاء يمثلون أحيانا قمة الهرم السياسى أو العسكرى وغالبا يفلتون من المسئولية لأنهم عادة يكونون على قدر من الحيطة والحذر بحيث لا يسهل وقوعهم تحت المساءلة أو أنهم يدوسون القانون (كما يدوسون آدمية الإنسان) تحت أقدامهم، وإما أن يقوموا به بشكل مباشر وهؤلاء هم المنفذون للتعذيب وغالبا ما يكونون جنودا أو ضباط صف أو ضباط صغار، وقد يقدمون ككبش فداء إذا انكشفت فضائح التعذيب.

وإذا تتبعنا خصائص المعذِّبين النفسية فسنجدها كالتالى:

١- **السادية** :Sadismوهى تعنى استمتاع الشخص برؤية الآخرين وهم يتألمون وحصوله على نشوة نفسية (وأحيانا جنسية) من القيام بتعذيب الآخرين، وهذه السادية تعتبر اضطرابا شديدا فى الشخصية يجعلها تسعى نحو إذلال الآخرين والتنكيل بهم، والشخصية السادية لا تستطيع العيش إلا بهذا الأسلوب.

وهذه الصفة قد تكون فى الآمرين بالتعذيب أو المنفذين له.

٢- **المسايرة:** هذه الصفة قد تكون مستغرَبةً ومتناقضةً مع الصفة السابقة، ولكنها ضرورية جدا لمن يقومون بالتعذيب، فهم يستجيبون لأوامر رؤسائهم استجابة تتسم بالاستلاب والخضوع والمسايرة، ولا يناقشون هذه الأوامر ولا يعرضونها على عقل واع أو ضمير حى، فهم فى هذه الحالة يطيعون رؤساءهم طاعة عمياء وينفذون أوامرهم فى التعذيب دون بصيرة، وغالبا ما يكون هؤلاء المسايرون المنفذون من

أصحاب الذكاء المحدود والثقافة الضحلة أو المنعدمة، ومن الذين يسهل إقناعهم واستهوائهم والإيحاء لهم بأن ما يفعلونه فيه مصلحة للبلد أو للبشرية أو لقضية ما.

٣ - الشخصية السيكوباتية (المستهينة بالمجتمع) Dissocial Personality وهى شخصية مضادة للمجتمع لا تحترم قوانينه ولا قيمه ولا أعرافه، وهى شخصية عدوانية لا تعرف الإحساس بالذنب أو الندم ولا تتعلم من تجاربها السابقة ولا تعرف الشفقة أو الرحمة أو العدل أو الكرامة، وكل ما يهم هذه الشخصية هو تحقيق أكبر قدر من اللذة حتى لو كانت هذه اللذة مبنية على أكبر قدر من الألم الذى يصيب الآخرين.

والسيكوباتى ليس بالضرورة لصا بل أحيانا تجد هذه الصفات فى رؤساء أعتى الدول وفى مسئولين كبار، وفى هذه الحالة نجد الصفات السيكوباتية مغلفة بقناع من الدبلوماسية والنعومة ولهذا يطلق على هذا النوع وصف (السيكوباتى المهذب- Decent Psychopath وهو أخطر من السيكوباتى العنيف الظاهر العنف لأن الأول يحمل كل صفات السيكوباتية مضافا إليها صفات الخداع والتستر ,وهذه الشخصية تتسم بالانتهازية والبراجماتية...... والقانون والأخلاق لديها كلمات ليس لها معنى أو وجود وهى تستخدمها فقط حين تجد ذلك فى مصلحتها .

٤ - الشخصية البارانوية (الزورانية) PARANOID PERSONALITY وهى شخصية متعالية متغطرسة ترى فى الجميع أعداءً لها، وتتوقع النوايا السيئة والأفعال السيئة من الناس، لذلك فهى تتسم بسوء الظن وتلجأ إلى العدوان الاستباقى أو الوقائى وتبرر هذا العدوان بأنه لحماية نفسها أو غيرها من الإرهاب أو الأذى المتوقع من الغير (الأشرار دائما فى نظرها)، وهذه الشخصية تحتقر الآخر وتسحقه إذا استطاعت وبالتالى فلن ترعى له حرمة أو كرامة ولن تأخذها الرحمة أو الشفقة بها لأنها تعتبر الجميع شياطين أو حشرات صغيرة تستحق السحق والتعذيب والإذلال.

٥ - التبرير Rationalization ، وهو أحد الدفاعات النفسية التى يستخدمها المعذّبون من غير الأنواع السابقة لكى يقوموا بالتعذيب وهم مرتاحو الضمير، فمثلا

يعتبرون التعذيب وسيلة مشروعة لتحقيق الأمن لبقية الناس أو لانتزاع اعترافات مهمة تؤدى إلى تحقيق السلام (فى نظرهم أو نظر آمريهم وقادتهم)، فهم فى النهاية يربطون التعذيب بقيمة وطنية أو أمنية تسمح لهم بقبوله والتفنن فيه.

وسائل التعذيب:

تعددت وتنوعت وسائل التعذيب فى الثقافات المختلفة من الضرب إلى الكى بالنار إلى غمس الرأس فى الماء شديد البرودة أو شديد السخونة، إلى وضع الرأس فى كيس ملئ بالفئران أو الثعابين، إلى منع الشخص من النوم، إلى تعليقه من رجليه فى سقف لفترة طويلة، إلى الاعتداء عليه جنسيا أو الاعتداء على زوجته أو ابنته أمامه، إلى صعقه بالكهرباء إلى إطلاق الحيوانات المتوحشة عليه... الخ.

وهناك خبراء فى التعذيب يجمعون بين دراسة علم النفس ودراسات أمنية وسياسية أخرى، وهؤلاء الخبراء يضعون أنفسهم فى خدمة الطغاة والمستبدين ليحققوا لهم السيطرة على خصومهم من خلال معرفة نقاط ضعف الإنسان والنفاذ منها والتأثير عليه من خلالها.

وقد جمع علماء النفس العوامل المشتركة فى وسائل التعذيب فوجدوها كالتالى:

١ - **تحقيق أكبر قدر من الألم لدى الضحية (المعذب)**: وذلك بالتأثير على جهازه العصبى الطرفى بكل الوسائل المتاحة كالضرب والكى والصعق وغيرها، وهم يحرصون على تجاوز حدود احتمال الضحية للألم لكى تنهار دفاعاته ولذلك يقومون بعمل زيادة تصاعدية لحدة الألم حتى ينهار الضحية نفسيا أو يموت نتيجة صدمة الألم وهم لا يعرفون متى سينهار ولا متى سيموت لذلك يحدث هذا أو ذاك فى أى لحظة.

٢ - **غياب السقف الزمنى**، وذلك من خلال الإيحاء للضحية بأن تعذيبه مستمر إلى ما لا نهاية، ولهذا يفقد الأمل فى الخلاص وهذا يساعد على انهيار دفاعاته ومقاومته.

٣ - **غياب سقف الوسائل**، وذلك من خلال تنويع وسائل التعذيب ومفاجأة الضحية بوسائل لا يعرفها وهذا يجعله يصاب بما يسمى بقلق التوقع Anticipation Anx-iety، فهو يتوقع فى كل لحظة ما هو أكثر إيلاما وبشاعة.

٤ - **الاستباحة الجسدية**، وذلك من خلال تعريض هذا الجسد لكل أنواع الإيذاء بما يوحى بالرغبة فى تدميره تماما فى أى لحظة دون اعتبار لحرمته أو لسلامته.

٥ - **الاستباحة النفسية**، ويتم من خلالها تجاوز كل الخطوط الحمراء لدى هذا الشخص، فإذا عرفوا عنه مثلا اعتزازه بنفسه أهانوه وأذلوه حتى ينكسر كبرياؤه وتتحطم كرامته، وإذا عرفوا عنه اعتزازه بشرفه وأخلاقه اعتدوا عليه جنسيا ليوصلوه إلى الإحساس بالخجل والعار، وإذا عرفوا عنه حبه لزوجته وأولاده جاءوا بهم واستباحوهم جسديا ونفسيا وجنسيا أمام عينه حتى تنهار مقاومته.

الآثار النفسية للتعذيب:

تتوقف تلك الآثار على شدة التعذيب وتنوعه وتتوقف أيضا على شخصية الذى يقع عليه التعذيب، وعلى وجود وسائل دعم بعد تخلصه من التعذيب. وبشكل عام يمكن أن نوجز هذه الآثار فيما يلى:

١ - انهيار الافتراضات الأساسية لدي الشخص الذي وقع عليه التعذيب

(Breakdown of Basic Assumptions)

فقد كان يعتقد فيما سبق أن للجسد حرمة وللنفس حرمة وللإنسانية كرامة، وكان يعتقد فى وجود الرحمة والشفقة والعدل، ولكن بعد التعذيب الشديد تهتز كل هذه الافتراضات، وتهتز معها ثوابت كثيرة وقيم متعددة، ويهتز بنيانه النفسى بأكمله ويعيش سنوات بحثا عن صيغة جديدة تفسر ما حدث وتساعده على استيعابه فى بنائه الفكرى والوجدانى فى الوصول إلى ذلك ويعيش ما تبقى من عمره بقايا إنسان، خاصة إذا كان طفلا أو شابا صغيرا

٢ - كرب ما بعد الصدمة أو الكرب التالى للرضح

(Post -Traumatic Stress Disorder)

وهو اضطراب يقع لمن تعرضوا لأحداث مروعة عرضتهم للتهديد الشديد أو الخطر الداهم المهدد لحياتهم أو سلامتهم وهنا نجد الشخص يستعيد ذكرى التعذيب فى أثناء يقظته وكأنه شريط سينمائى أو يستعيده فى أحلامه، وكلما رأى أو سمع شيئا يذكره بهذه الأحداث فإنه يشعر وكأنها تحدث فى اللحظة والتو، وهو يحاول تجنب كل ما يذكره بها.

بالإضافة إلى ذلك فإنه يصاب باضطراب فى الجهاز العصبى يجعله شديد الحساسية لأى مؤثرات بصرية أو سمعية فنجده يرتجف لسماع أى صوت أو رؤية أى شىء.

٣ - الاكتئاب :(Depression):

وهو يحدث حين يشعر الإنسان المعذب بفقد الحيلة وفقد الأمل فى القصاص وضياع كرامته أو كرامة من يحبهم فيصاب بحالة من الحزن وفقد الشهية للطعام ولكل شىء وعدم الإحساس بمعنى الحياة واضطراب النوم وربما تساوره بعض الأعراض الذهانية كوهامات الاضطهاد أو الهلاوس.

٤ - الاضطرابات النفسجسدية: (Psychosomatic Disorders)

وتأتى فى صورة اضطرابات فى الجهاز الهضمى أو الجهاز الدورى والقلب أو الجهاز التنفسى أو الجهاز التناسلى أو غيرها، وهذه الاضطرابات تأخذ صورة الأعراض الجسمانية المختلفة، وهى تحدث حين يتم كبت مشاعر الغضب ومشاعر العدوان تجاه ما حدث للشخص من تعذيب.

٥ - الاتجاه للعنف والرغبة فى الانتقام

(Aggression & Tendency To Revenge)

وهذا يحدث حين يجد الشخص المعذب فرصة للتعبير عن كل مشاعر الغضب

والانتقام تجاه من قام بتعذيبه وربما تتفجر داخله مشاعر هائلة للعنف والعدوان تفوق بكثير ما تعرض له من ظلم.

التوصيات:

ولكى لا يواجه أحد من البشر أيا كان لونه أو جنسه أو دينه هذا الموقف شديد الصعوبة فإن على عقلاء الإنسانية أن يضعوا من القوانين ما يردع الشخصيات المضطربة أيا كان مستواها السياسى والاجتماعى عن ممارسة اضطرابها من خلال تعذيب الآخرين تحت أى دعوى أو مسمى أو تبرير، وهذه القوانين تطبق على الحكام والمحكومين على السواء وتقوم على تنفيذها جهات دولية محايدة ومحترمة كمحكمة العدل الدولية أو محكمة مجرمى الحرب أو ما نقترح تسميتها (محكمة مجرمى التعذيب)، وهذه المحاكم أو اللجان الدولية المحايدة والملتزمة بالشرعية الدولية ومواثيق الأديان والأخلاق يكون لها حق التفتيش المفاجئ على المعسكرات والمعتقلات والسجون وأقسام الشرطة فى كل جزء من العالم وكتابة تقارير ترفع لمحكمة عليا تقوم بإصدار أحكامها التى يلتزم مجلس الأمن (بعد تخليصه من الهيمنة الأمريكية وغيرها) بتنفيذها.

ويلحق بذلك تشديد العقوبات ليس فقط على من يقومون بالتعذيب بشكل مباشر من الجنود وصغار الضباط وإنما على كل من أصدر أمرا أو أعطى ضوءا أخضرا أو تقاضى أو تعامى أو ساهم بأى شكل فى حدوث هذه الجريمة البشعة.

وهذه الجريمة كما هو معروف فى أغلب الدساتير والقوانين لا تسقط بالتقادم وتظل تلاحق مرتكبيها مهما مرت عليها السنون، ولابد وأن يسبق هذا ويواكبه تدريس مادة حقوق الإنسان لطلبة المدارس وطلاب كليات الشرطة والكليات العسكرية، وتدريس أحكام القوانين الخاصة بانتهاك تلك الحقوق وارتكاب جريمة التعذيب أو غيرها.

إذا كانت الأديان كلها تعطى قداسة وحرمة لحياة الإنسان وكرامته وسلامته، فإن إيضاح ذلك لعامة الناس وخاصتهم يعمق فى وعيهم قيمة الحياة وقيمة الكرامة الإنسانية ويربط كل ذلك بالعقيدة الدينية وبمنظومات القيم والأخلاق النابعة منها.



الفصل الرابع

أمــراض السلطــة

هناك ما يسمى بالأمراض المهنية، تلك الأمراض التى يصاب بها أصحاب مهنة معينة نتيجة تعرضهم لمخاطر ممارسة هذه المهنة خاصة إذا مارسوها لفترات طويلة، فمثلا يصاب عمال المناجم والمحاجر بأمراض الصدر، ويصاب الفلاحون بالبلهارسيا ويصاب الجراحون بالإلتهاب الكبدى ..... وهكذا، وبناءا على هذا يبرز تساؤل : ما هى الأمراض التى يمكن أن تصيب أصحاب السلطة ؟ وماهى تداعيات هذه الأمراض عليهم وعلى من هم تحت سلطتهم ؟ وما هى وسائل الوقاية والعلاج من هذه الأمراض ؟

أذكر زميلا قابلته حين كنت أعمل فى السعودية وتزاورنا مرات عديدة وترسخت علاقتنا ثم كلل هذا بأن ذهبنا للحج سويا وقضينا يوما من أجمل أيام عمرنا على عرفات وكان طيبا وودودا، ومرت سنوات وافترقنا، ثم إذا بى ألتقى به فى مصر فأندفعت نحوه بحرارة العلاقة السابقة ودفئها لأسلم عليه كما اعتدنا من قبل ولكننى فوجئت به يستقبلنى ببرود ولمحت فى عينيه تعاليا وسلم علىّ بأطراف أصابعه وتحدث من أنفه ولست أذكر من كلامه شيئا إلا قوله بأنه أصبح رئيسا للقسم فى تخصصه، وكانت هذه – بحمد الله – آخر مرة ألقاه فيها .

شاب آخر عرفته منذ كان صغيرا وهو من أسرة طيبة وتربى على أخلاقيات عالية وعمل ضابط شرطة فى أحد الأماكن، وجمعتنى به الظروف فى مكان عمله فلا حظت استخدامه لألفاظ نابية لم أعهدها فيه من قبل، وكأنه فهم ما يدور فى ذهنى فبادر بتبديد حيرتى قائلا : ما علهش يا دكتور أصل دول عيال ولاد .... ما ينفعش التعامل معاهم بالذوق، الواحد فيهم أمه .... وييجى يعمل لنا فيها محترم، دول ما يجوش إلا بضرب الجزمة ، ففزعت من هذا التغيير، ولم أدر أأعذره أم ألومه، ولكن المؤكد أننى فضلت عدم اللقاء به بعد ذلك .

شغلنى التغيير الذى لاحظته على هذين الشخصين وغيرهما من أصحاب السلطة فى مستوياتها المختلفة، وفهمت عزوفى عن الإقتراب من أى صاحب سلطة حتى ولو كان من أعز أصدقائى، وحاولت أن أجد تفسيرا علميا لما يحدث للناس حين يصبحون فى موقع سلطة، وكان أقرب شئ يعطينى تفسيرا سريعا هو نظرية المجال التى مفادها أن الإنسان يختلف باختلاف المجال الذى يتواجد فيه، وبما أن المَجال السلطوى يحوى فولتا عاليا ومجالا مغناطيسيا هائلا، وهالة مبهرة لذلك نتوقع تغييرا فى الشخصيات التى تتواجد داخله خاصة إذا كانت القيمة الحقيقية لهذه الشخصيات متدنية فهى فى هذه الحالة تفقد ثباتها الضعيف من البداية، ولكى أقرب لك عزيزى القارئ هذه الفكرة تذكر أى يوم حاولت فيه الإقتراب من شخصية مهمة وتذكر كيف كنت تشعر بأن الجو مكهرب فى الدائرة المحيطة بهذه الشخصية، تلك الدائرة التى يزداد اتساعها بقدر أهمية سلطته .

وقد انشغل عالمان كبيران بدراسة هذا الأمر فحاول نيقولا مكيافيلى تصور سيكولوجية السلطة من خلال كتابه الأمير ، وحاول جوستاف لوبون تصور سيكولوجية الجماهير (الخاضعة للسلطة) من خلال كتاب سيكولوجية الجماهير ، وقد صدم العالمان الوعى الإنسانى العام بما كتباه، حيث صور مكيافيلى سلطة الأمير منقطعة الصلة عن أى قواعد أخلاقية وأطلق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ورأى أن السلطة دائما قاسية وغاشمة وظالمة ومستغلة وأن هذا من حقها ولو لم تفعل ذلك لاستضعفتها الجماهير وسحقتها، وصور جوستاف لوبون الجماهير على أنها كائن غير منطقى يميل للإستهواء والإستلاب وتتحكم فيه عواطفه واحتياجاته البدائية وأن هذا الكائن الجماهيرى حين يثور يصبح أكثر عدوانا وطغيانا من الفرد .

ولكى نفهم أمراض السلطة سنضطر للعودة قليلا للوراء لكى نفهم خصائص السلطة وأنماطها .

الخصائص النفسية للسلطة:

هناك خصائص نفسية مشتركة لا تكاد تخلو منها أى سلطة نذكر منها :

١- الرغبة فى الإستقرار والإستمرار

٢ - الرغبة فى خضوع الآخرين وكسب ولائهم

٣- الهاجس الأمنى الذى يجعل السلطة فى حالة خوف وحذر واستنفار

٤- الضيق بالمعارضين ومحاولة دفعهم بعيدا عن دائرة النفوذ والتأثير

٥- العناد والكبر

٦- الميل للإنتقام ممن يهدد أو يظن أنه يهدد استقرار أو استمرار أو هيبة السلطة

٧ - الإذدواجية (الإنفصام) : بمعنى أن السلطة تعلن مبادئ معينة تبدو براقة ومثالية وعادلة وفى ذات الوقت تخفى أنانيتها وحرصها الشديد على مصالحها الذاتية، وهو ما يعرف بالفجوة بين الأيدولوجية والسيكولوجية، فالسلطة تصدر للجماهير شيئا وتحتفظ لنفسها بشئ آخر، وبمعنى آخر فإن السلطة رسميا مع الأيدولوجية المثالية المعلنة ونفسيا مع مصالحها الذاتية.

كيفيات ممارسة السلطة:

ذكر جون كينيث فى كتابه «تشريح السلطة» أن هناك ثلاث كيفيات لممارسة السلطة هى باختصار:

١- الكيفية القسرية:

وهى تقوم على العنف والقهر والترويع للرعية حتى تحكم السلطة قبضتها عليها دون أى احترام أو تقدير لإرادة هذه الرعية، بل على العكس تنظر السلطة إلى الرعية باحتقار واستخفاف وتجاهل . وهذه السلطة تميل إلى استخدام قوانين الطوارئ وإلى تقوية أجهزة الشرطة والجيش وإلى استعراض القوة فى كل مناسبة

وحتى بغير مناسبة، ويصبح الجهاز الأمنى هو صمام الأمان ومبرر الوجود لهذه السلطة، وبالتالى لا تهتم بالحوار مع الجماهير أو محاولات إقناعهم أو استمالتهم أو إرضائهم بالوسائل السياسية أو غيرها، وإنما هى دائما تستخدم الحل الأمنى بشكل مفرط . وهذا هو أكثر أشكال السلطة بدائية ووحشية وغباء، وهذا النمط منتشر بكثرة فى دول العالم الثالث المتخلفة .

٢-الكيفية التعويضية:

هذه السلطة تنال رضا شعبها عن طريق المكافآت المادية وفرص الرفاهية والإستهلاك وبعض الحرية الفردية، فكأنها تشترى ولاء الشعب برشوته ببعض التعويضات المادية، وتنتشر هذه الكيفية فى الأنظمة الرأسمالية الليبرالية .وهذه السلطة تشترى إرادة شعبها ولكن بصورة أكثر قبولا حيث تخلو من العنف والإزدراء .

٣-الكيفية التلازمية:

وهى تعنى تبادل الرأى واحترام كل طرف للآخر واللجوء للتثقيف والإقناع والحوار الحقيقى، ووجود حالة من الشفافية والتعددية الحقيقية، والتوازن بين السلطة والشعب .

أنواع الأنظمة السياسية:

يمكن تقسيم الأنظمة السياسية إلى نوعين رئيسين :

١- أنظمة الطفرة:

وهى أنظمة تتشكل فى ظروف غير طبيعية (كانقلابات عسكرية أو تعيين أو توريث) وكأنها تأتى بالمصادفة، وهذه الأنظمة تكون غير منطقية وتصرفاتها غامضة وفجائية وغير مفهومة، فهى تخضع لمزاج فرد على رأس السلطة، ولايمكن التنبؤ باتجاهاتها أو قراراتها، وهى دائما فى حالة تخبط واضطراب وتنتقل من فشل إلى فشل حتى تصل إلى الإنهيار. والسلطة فى هذه الأنظمة هى سلطة الفرد أو سلطة السلطة أو سلطة الطغيان والإستبداد .

٢- أنظمة الإستقرار:

وهى أنظمة قامت على قواعد ديموقراطية سليمة حيث تم انتخابها بشكل طبيعى من الشعب، وهى تعمل طبقا لدستور حقيقى تحترمه (ولا تغيره حسب رغبتها واحتياجاتها) ، كما أنها تستند إلى مؤسسات حقيقية تضمن ثباتها برغم تغير الأشخاص، وهذه الأنظمة تقوم عل الإرادة الجماعية للشعب ومؤسساته وتضمن تداول السلطة بشكل سلمى لذلك تتجدد دماؤها من وقت لآخر بشكل صحى بعيدا عن المغامرات والمهاترات . ويستطيع المراقب لهذه الأنظمة أن يفهم كيف تسير ويتوقع خطواتها واتجاهاتها لأنها سلطة منطقية شفافة وشريفة ومتناسقة مع أهدافها وغاياتها ومع مصالح شعوبها .والسلطة فى هذه الأنظمة هى سلطة الإدارة القائمة على الدستور والقانون .

أنماط السلطة:

ويمكن تصور أنماط السلطة بطريقة أخرى كالتالى :

١- السلطة المنطقية:

وهى قائمة – كما ذكرنا – على أسس واضحة ومفهومة

٢- السلطة غير المنطقية:

وهى تتسم بالغموض والعشوائية وعدم الإتساق .

٣- السلطة الأبوية:

وفيها يعتبر صاحب السلطة نفسه أبا للرعية وفى نفس الوقت ينظر لرعيته على أنهم أطفال قاصرين لا يعرفون مصلحتهم، ولذلك لا يتورع عن إلغاء إرادتهم (من خلال حكم مستبد) أو تزييف إرادتهم (من خلال انتخابات وهمية تحقق لصاحب السلطة أهدافه باسم الشعب ومن خلال إجراءات شبه ديموقراطية مزيفة) .

٤- السلطة الفرعونية :

وفيها يشعر الحاكم بملكية الوطن وملكية الشعب والأحقية المطلقة فى التوجيه والتصرف، وهذه السلطة يصورها فرعون بقوله : «أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى» ... وقوله «ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد» وقوله «ما علمت لكم من إله غيرى».

٥- سلطة السلطة :

وهى تقوم على شرعية القوة الشرطية والعسكرية

٦- سلطة الفرد :

وفيها يتحكم فرد فى كل شئ ويمسك بكل الخيوط، ويلعب بقية الناس أدوار الكومبارس أو السكرتارية أو العبيد

٧- سلطة الإدارة :

وهى تقوم على مؤسسات حقيقية معبرة عن إرادة الجماهير، وتوجد آليات حقيقية لمراقبتها ومحاسبتها وتعديل مسارها وتجديدها من وقت لآخر بطرق سلمية

أمراض السلطة :

حاولت البشرية على مر العصور ومن خلال تجاربها المريرة والمؤلمة أن تتجنب أمراض السلطة ومساوئها، وقد نجحت إلى حد معقول فى ذلك حين اتجهت إلى أنظمة الإستقرار وإلى سلطة الإدارة وإلى السلطة المنطقية، ولذلك فالأمراض التى سنذكرها ستكون بالطبع لصيقة بالنظم غير المنطقية وبسلطة السلطة وسلطة الإدارة والسلطة الأبوية والسلطة الفرعونية وأنظمة الطفرة :

الهاجس الأمني :

أى سلطة يشغلها الجانب الأمنى، ولكن يزداد هذا الإنشغال حتى يصل إلى

أقصى درجاته لدى السلطة غير المنطقية ولدى السلطة الفرعونية ولدى سلطة السلطة، والسبب فى ذلك هو أن هذه الأنواع من السلطة تشعر فى دخيلة نفسها أنها اغتصبت شيئا هاما من الجماهير لذلك فهى تتوجس خيفة من هذه الجماهير ولا تصدق مظاهر ولائها لأنها تعلم يقينا أنها مظاهر كاذبة وأن الجماهير تتمنى اللحظة التى تزول فيها السلطة سواءا بأيديها أو بأيدى القدر، ولذلك تأخذ السلطة احتياطات أمنية كثيرة ومبالغ فيها تتناسب مع قدر خوفها من الجماهير وعدم ثقتها بها أو احتقارها لها، فالسلطة التى تحتقر الجماهير تبالغ كثيرا فى الحلول الأمنية والإحتياطات الأمنية فهى ترى فى هذه الجماهير بوادر الخداع والغدر كما أنها ترى هذه الجماهير غير جديرة بالحوار السياسى أو الثقافى وإنما هى تستحق التأديب بعصا غليظة متمثلة فى بطش الجهاز الأمنى لأى نبضة تبدر من هذه الجماهير، فهذه السلطة ترى فى الجماهير أكبر عدو يتربص بها ولذلك تعد العدة لمقاومته وقهره ولا تدع له فرصة يفيق فيها أو يستعيد عافيته أو وعيه . وإذا حدث وخرج أحد من هذه الجماهير عن النص المسموح به فإن السلطة تواجهه بكل قسوة (حتى لو أدى ذلك إلى تشوه صورتها فى الخارج أو اتهامها بأنها ضد حقوق الإنسان) لأن ذلك يعطى العبرة للآخرين فلا يحاولون تهديد السلطة بعد ذلك، لأنهم يعرفون وسائل العذاب الرهيبة التى تملكها السلطة لكل من يخرج عن الإطار المرسوم، والسلطة فى هذه الحالة تسعد ربما بنشر حوادث التعذيب وانتهاك الشرف للمعارضين وذلك لبث الرعب فى قلوب الباقين فيلزمون الصمت للأبد .أما الأثر الخارجى لهذه الممارسات فتعرف السلطة كيف تخفف من حدته ببعض التنازلات أو الرشاوى السياسية .ومن علامات اشتداد الهاجس الأمنى كثرة عدد المنتمين للأجهزة الأمنية وكبر حجم الإنفاق على الجهاز الأمنى من مرتبات ومعدات وأجهزة تنصت ومراقبة وتعذيب، وتجنيد عملاء سريين فى كل مكان ينقلون لها كل شئ يدور بين الناس خاصة فى أماكن التجمعات .وجهاز الشرطة حين يستعين بهؤلاء العملاء السريين والعلنيين يصبح عليه دفع فاتورة لهم لضمان استمرار تدفق المعلومات وضمان الولاء، والفاتورة تتمثل فى تعيين هؤلاء العملاء فى

أماكن وظيفية مهمة، وشيئا فشيئا يحدث تغلغل سرطانى لهؤلاء العملاء بما يحملونه من صفات سيئة تساعد على تنامى الفساد بشكل كبير .

والسلطة فى هذه الأنظمة كثيرا ما تقوم بعمليات استباقية هدفها إجهاض أى محاولة حقيقية أو متخيلة لتجمع الجماهير الغاضبة أو المطالبة بحقها أو المتمردة على ظلمها، فتلجأ فى سبيل ذلك إلى إصدار القوانين التى تحول دون تكون كتلة جماهيرية تكون قادرة فى الحاضر أو المستقبل على تحريك الجماهير الأوسع ضدها أو تكون نواة لتجمعات خطرة من وجهة نظر السلطة، وتحظر التجمعات والمسيرات وتستخدم قوانين الطوارئ والأحكام العرفية التى تسمح بالحركة السريعة للسيطرة على أى بادرة تجمع أو تظاهر . وقد يتم تقسيم الميادين أو الشوارع بحواجز حديدية للحيلولة دون تكون كتل كبيرة من الناس، وربما يتم تقسيم المدن والأحياء بناءا على هذه الإعتبارات الأمنية . فالسلطة تعرف جيدا سيكولوجية الجماهير وتعرف أنها ربما يطول سكوتها وخضوعها ولكنها حين تنتفض تجرف فى طريقها كل شئ، فالجماهير فى حالة ثورتها وانتفاضتها تصبح كيانا غير عاقل لايستطيع أحد التحكم فيه أو كبح جماحه، فالجماهير حين تستشعر الظلم أو الطغيان أو إهدار الكرامة قد تسكت لبعض الوقت ولكنها عند نقطة معينة تسمى النقطة الحرجة تنفجر انفجارا مفاجئا (أو يبدو مفاجئا) فتتحول هى الأخرى إلى طغيان مقابل قد يدمر السلطة ويمتد أثره التدميرى لأبعد من السلطة، فالغضب الجماهيرى يكون مثل الطوفان لا يعرف أحد أين سيتوقف ومتى، فبركان الغضب يسعى نحو التدمير والتغيير ولا يوجد ميزان حساس فى هذه الظروف يوائم بين قدر التدمير للأبنية السلطوية القائمة والمرفوضة وبين قدر التغيير المطلوب، ويزداد الخطر أكثر حين يكون انفجار الجماهير بغير قيادة، أى انفجار عشوائى منفلت يحدث تحت تأثير ضغط وقهر فاقا الإحتمال فانفجرت براكين الغضب دون ترتيب سابق ودون هدف محدد غير الإنتقام ممن قهرها أو سحقها أو خدعها . وهناك أمثلة كثيرة لانتفاضات الجماهير حدثت بصور مفاجئة وأحدثت تغييرات

جذرية، وقد قفزت هذه الإنتفاضات فوق حواجز أمنية أسطورية مثل ما حدث فى إيران وفى ألمانيا الشرقية ورومانيا وبولندا وغيرها .وعلى الرغم من وجود الخوف لدى الناس كأفراد إلا أنهم فى حالة تجمعهم فى مسيرات أو مظاهرات يقل هذا الخوف ويصل أحيانا إلى درجة التلاشى كما يزداد الإحساس بالظلم والإحساس بالكرامة المنتهكة فتنطلق الكتلة الجماهيرية لا تعبأ بأى محاذير أو حسابات فمجموع الأفراد فى هذه الحالة يكونون فى حالة استلاب وقابلية شديدة للإيحاء والإستثارة فإذا ظهرت قيادة لها تأثير كاريزمى فى هذه اللحظات الحرجة فإنها تأخذ الجماهير إلى حيث تريد بشرط أن يكون ذلك فى اتجاه التغيير والإنتقام اللذان خرجت من أجلهما الجماهير.

وللسلطة أساليب متنوعة أخرى فى منع تكون أى تجمع حزبى أو جماهيرى مؤثر، ومن هذا قيامها بزرع عملاء داخل أى تجمع محتمل وتكون وظيفة هؤلاء الرصد لأى نبضة حركة وفى ذات الوقت ربما يقومون بعملية تفجير للتجمع من الداخل وذلك بإثارة الخلافات أو إحداث تيارات فى اتجاهات متشتتة . والمهم لدى السلطة دائما هو عدم تكون مايسمى بالكتلة الجماهيرية الحرجة تلك الكتلة القادرة على إزاحة النظام أو الضغط عليه ضغطا شديدا .

وكلما ازدادت الطبيعة البارانوية (الشك وسوء الظن والتعالى) لدى رمز أو رموز السلطة كلما تضخم الهاجس الأمنى وتسرطنت وسائل التجسس والقمع لأنها فى هذه الحالة تمثل حالة من إسقاط المشاعر العدائية لدى الشخصية البارانوية المتحكمة فى السلطة والمحركة لها .

تزييف الوعى:

فالسلطة غير المنطقية أو غير الشرعية أو المستبدة لاتستطيع الإستمرار لفترات طويلة إلا إذا قامت بعمليات تزييف للوعى الجماهيرى فهى تريد أن تشكل هذا الوعى لكى يقبل منظومة السلطة وتوجهاتها ومصالحها دون الحاجة إلى الإفراط فى استخدام القمع الأمنى الذى ربما يكلفها ثمنا سياسيا أو اجتماعيا كبيرا، لذلك تشكل أجهزة

الدعاية والإعلام والإعلان لدى السلطة الجناح الآخر لبقائها (بجانب الجناح الأمنى)، فتقوم هذه الأجهزة بالمبالغة فى إظهار إنجازات السلطة وتبرير أفعالها وتحويل هزائمها إلى انتصارات تاريخية كما تقوم بإضفاء صفات البطولة والحكمة والتضحية على رموز السلطة وتضع صورهم وتماثيلهم فى كل مكان (وهو ما يسمى فى علم النفس : الإعلان بالغمر أو الإعلان بالتكرار والإلحاح) فحيثما ذهبت يطالعك وجه القائد أو الزعيم أو تطالعك أقواله وإنجازاته وتوجيهاته . وتنجح عمليات تزييف الوعى أكثر فى المجتمعات ضعيفة الثقافة التى لا تملك عقلية نقدية تزن بها الأمور، تلك المجتمعات القابلة للإيحاء والإستهواء والتنويم والتغييب، تلك المجتمعات العاطفية التى يسهل تحريك مشاعرها فى الإتجاه الذى تريده الأدوات الإعلامية للسلطة . غير أن هذا التزييف يتراكم فيحجب الحقيقة عن السلطة وعن الجماهير ثم يجد الناس أنفسهم فى حالة من الإضطراب والتناقض وتكرار الكوارث والهزائم على الرغم من الوعود والبيانات الوردية المتفائلة، وهنا يقترب الخطر حين تكتشف الجماهير أنها تعرضت لحالة من الخداع المنظم خاصة وهى تعيش حياة تعسة كل يوم تكذب كل ما تبثه الآلة الإعلامية الجبارة، عندئذ تشعر الجماهير بالغضب لسببين : الأول هو خداعها واللعب بها والثانى هو شقاءها الذى تعيشه فى كل لحظة، عندئذ تحدث الإنتفاضة أو يحدث الإنفجار طالبا بالثأر ممن خدعوا وزيفوا وأفقروا . وهناك إرهاصات لفشل عمليات تزييف الوعى منها لا مبالاة الجماهير بما تقوله أجهزة إعلام السلطة أو التندر وإطلاق النكات عليها أو الإنصراف عنها والبحث عن مصادر أخرى لمعرفة الحقيقة خاصة فى أوقات الأزمات .

الإدعـــاء:

فصاحب السلطة شيئا فشيئا يفقد تلقائيته ويتورط فى سلوك ادعائى غير طبيعى وبعيدا عن الصدق والأصالة ولذلك يفقد تعاطف الناس معه وإحساسهم به، وتزيد صفة الإدعاء كلما زادت الأطماع فى استمرار السلطة أو توريثها لأن صاحب السلطة

هنا يريد أن يشكل وعى وتفكير الجموع فى اتجاه مصالحه الخاصة فيلبس قناعا يراه مناسبا لتحقيق هذا الهدف . ولذلك كلما رأيت الشخص يبالغ فى ادعائه تعرف تلقائيا أنه يريد تحقيق مصالح خاصة باستخدام مبادئ أو شعارات عامة .

العـــزلة:

فكلما ابتعدت السلطة عن الشرعية والعدل وكلما طال التشبث بها زادت العزلة لأن صاحب السلطة يشعر فى أعماقه بما يدور فى أعماق الجماهير من رغبة فى الإنقضاض عليه لذلك يزيد باستمرار من احتياطات الأمن والسلامة خاصة إذا تكررت محاولات الإغتيال، ومن هنا تبدأ العزلة، وهى ليست فقط عزلة جسدية بمعنى وجود حواجز متعددة تحول بين الجماهير وصاحب السلطة ولكن أيضا عزلة شعورية بمعنى وجود هوة بين مشاعر وأفكار واحتياجات الطرفين، وهذه الهوة تزداد يوما بعد يوم حتى تصل إلى الحالة الحرجة التى يفقد فيها كل طرف إحساسه بالآخر وهنا تحدث حالة من الغربة والإغتراب بين الجماهير والسلطة .

تضخم دافعى التملك والخلود:

إن دافعى التملك والخلود من أقوى الدوافع فى النفس البشرية، وقد عرف إبليس هذه الحقيقة مبكرا وحاول الإستفادة منها عندما أراد أن يغوى آدم فقال له مغريا إياه بالأكل من الشجرة المحرمة : «هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» (طه ١٢٠) «وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين» (الأعراف ٢٠) . وفعلا نجح الإغواء لآدم من هذا الطريق على الرغم من التحذير الإلهى له «ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» (البقرة ٣٥)، وعلى الرغم من إتاحة فرص التنعم المتعددة فى الجنة، وهذا يدل على قوة هذين الدافعين وعمقهما فى النفس البشرية، وعلى أنهما نقطتى ضعف يسهل الإغواء عن طريقهما .
ويبدو أن هذين الدافعين يكونان متضخمين فى نفس الشخص الساعى للسلطة أو المتشبث بها فهو لا يشبع من التملك ودائما يسعى إلى الخلود فى الدنيا وينكر فى

أعماقه فكرة الموت . وكلما ا تسعت دائرة نفوذه وانتشرت صوره وتماثيله فى كل مكان كلما انزلق إلى الإعتقاد بفكرة خلوده، ولو أصابه المرض أو أدركته الشيخوخة وأيقن بفكرة موته فإنه يتمسك بملكه ويتعلق بخلوده من خلال أبنائه فيحرص على توريثهم كل ما استطاع أن يتملكه فهم امتداد لذاته، وهذه هى سيكولوجية الأنظمة التى تقوم على فكرة التوريث حفاظا على بقاء الملك وخلود الذكر . وقد وقع فى هذا صحابى مثل معاوية رضى الله عنه حين حارب عليا رضى الله عنه من أجل الخلافة وحين حرص بعد ذلك على توريث ابنه يزيد رغم ماكان يعرفه عنه من سلوك ينافى احتياجات هذا المقام . ومن سنن الله فى الكون أن كل من يتعلق بالملك أو الخلود يزول منه لأن الملك لله وحده والخلود له وحده، وحين سعى آدم نحو الملك الذى لا يبلى والخلود ابتلاه الله بالحرمان من الجنة بل والحرمان مما يستره من الملابس «فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما» (الأعراف ٢٢)، وهذا يحدث مع كل من تخدعه ذاته أو يخدعه شياطين الإنس أو شياطين الجن بفكرة الخلود أو الملك الذى لا يبلى حيث يبتلى بضياع الملك ويبتلى بالطرد من الجنة التى عاش فيها وظن أنها لا تزول.

الرعب الدفين مما بعد السلطة ومحاولة استبعاد ذلك الإحتمال :

فصاحب السلطة يرتعد خوفا كلما مر بخاطره لحظة فقدانه لسلطانه وخروجه من دائرة التحكم والسيطرة وما يصاحب ذلك من فقد اهتمام الناس وتزلفهم له ومن المزايا الهائلة التى كانت تتيحها السلطة، يضاف إلى ذلك شماتة أعدائه أو محاولات الإنتقام من جانب أناس كثيرون ظلمهم وقهرهم، أو محاولات الحساب له على ما ضيع وأهدر وسلب فى فترة وجوده بالسلطة، لذلك يصعب على الكثيرين من أصحاب السلطة ترك سلطتهم طواعية وذلك لما يعرفونه من عواقب ما بعد السلطة خاصة إذا كانت هذه السلطة غير شرعية أو غير منطقية أو مستبدة . أما فى النظم الديموقراطية فلا يوجد مثل هذا الرعب حيث يعرف صاحب السلطة مقدما حدود سلطته زمنا ومساحة ويعرف

حتمية خروجه من السلطة طبقا للدستور (الذى لا يتغير لبقائه فى السلطة حين يريد) وتتم محاسبته أولا بأول فيخرج من السلطة بالطرق السلمية المعتادة لينعم بحياته الشخصية والعائلية بعيدا عن أعباء السلطة وقيودها وهو يشعر أنه خدم بلده فى الفترة التى قضاها فى السلطة ومن حقه الآن أن يخلو إلى نفسه أو إلى أسرته أو يمارس أعمالا خيرية أو ثقافية، وهكذا تمر الأمور بسلام دون شماتة أو انتقام.

تضخم الذات:

يسعى إلى امتلاك السلطة والتشبث بها نوعان من الشخصيات هما الشخصية البارانوية والشخصية النرجسية وكلاهما لديه مشكلة مع ذاته، فالشخص البارانوى يشعر بالدونية وباحتقار الآخرين له ومحاولاتهم اضطهاده وسحقه وتدميره (هكذا يعتقد) لذلك فهو لا يثق بأحد ويتوقع السوء من أقرب الناس إليه ويشعر فى بدايات حياته بالظلم والإضطهاد وينظر إلى الناس بعين الشك ويسئ الظن بهم ويتوقع منهم الإيذاء والتآمر ضده، ويفسر أقوالهم وأفعالهم على محمل سئ ويأخذ حذره منهم ويبالغ فى ذلك، ونراه مفتوح العينين مستنفر القوى طول الوقت لأنه يتصور أن الخطر يحوطه من كل مكان، لذلك يسعى لامتلاك أدوات القوة ويسعى بكل ما يملك نحو السلطة عساها تحميه من غدر الناس وتعطيه القوة والسيطرة والإستعلاء على هؤلاء الأوغاد المتآمرين (الناس - كل الناس) . لذلك فصاحب هذه الشخصية لا يضيع وقتا فى أشياء جانبية تعطله عن هدفه . وهو لا يعرف قانون الحب وإنما يعرف التسلط والسيطرة للحفاظ على ذاته التى يقلق من تلاشيها أو سحقها لذلك فالوصول إلى السلطة يعتبر بمثابة دعم للذات وهو طول الوقت يحاول أن يزيد ويقوى من سلطاته لأن ذلك يدعم ذاته الهشة المهتزة، وفى مرحلة معينة تمتزج الذات بالسلطة فيصبحان شيئا واحدا لذلك تصبح السلطة بالنسبة له مسألة حياه أو موت وليست شيئا يمكن الإستغناء عنه فى وقت من الأوقات، وهذه هى اللحظة الفاصلة أو المرحلة الفاصلة التى يتحول عندها صاحب السلطة إلى مستبد أبدى ويصل إلى نقطة اللاعودة

ولا يتخلى عن السلطة طواعية مهما كانت الأمور لأنه توحد معها وأصبحت جزءا من نسيجه النفسى، وربما يكون هذا وراء تحديد فترات السلطة فى الدول الديموقراطية حتى لا يصل الشخص المعرض لذلك إلى تلك الحالة المرضية . أما الشخص النرجسى فهو يشعر شعورا مبالغا فيه بذاته ويتصور أنه متفرد وأنه شئ خاص جدا وأنه محور الكون وأن لديه ملكات لا يملكها غيره وأنه جدير بكل الحب والإحترام والتقدير، لذلك يحاول أن يضع نفسه حيث يراها فنراه يهتم بصحته ومظهره وشياكته بشكل واضح ويبذل جهدا كبيرا للوصول إلى مستوى النجومية والتألق فلديه ذات متضخمة من البداية ويشعر أن الجماهير التى يحكمها محظوظة بحكمه إياها وكلما اتسعت سلطته طولا وعرضا وزمنا كلما تضخمت ذاته أكثر وأكثر حتى يصعب عليه فى مرحلة من المراحل أن يرى بجواره أحد فهو الملهم والعظيم والقادر والحكيم، وتتعقد الأمور حين يعمل من حوله من المتزلفين والمنتفعين على النفخ فى هذه الذات لتتضخم أكثر وأكثر حتى تمحو ما حولها ويشعر صاحب السلطة بامتلاكه لكل شئ ويتوحد الوطن مع ذاته، وهذه هى نقطة اللاعودة التى يصعب عليه عندها ترك السلطة طواعية لأنه ابتلع الوطن فى ذاته المتضخمة . وفى الحالتين نلاحظ حالة من التوحد بين ذات صاحب السلطة وبين الوطن على اختلاف دوافع التوحد ومبرراته، وهذا موقف فى غاية الخطورة لأنه يضع الجميع فى ورطة فقد أصبح الوطن فى هذه الحالة رهينة فى شخصية الحاكم وتصبح عملية الفصل غاية فى الخطورة (مثل عملية فصل التوأمين المتصلين) لأنها تحمل فى طياتها احتمالات تدميرية ربما تودى بالحاكم والوطن أو تكبدهما خسائر فادحة تستمر لسنوات طويلة .

ومن هنا نفهم مغزى عزل سيدنا عمر رضى الله عنه لسيدنا خالد بن الوليد وهو فى قمة انتصاراته وعظمة فتوحاته المذهلة، فكأن عمر خشى على خالد من الفتنة (تضخم الذات) وخشى على المسلمين من الإعتقاد بأن النصر يأتى به خالد، وعمر رضي الله عنه صاحب رسالة تهمه القيم أكثر مما تهمه الفتوحات لذلك لم يتردد فى

عزل خالدبن الوليد قبل أن يدخل فى مرحلة الخطر كما ذكرنا على الرغم من أنه صحابى جليل وسيف الله المسلول . ويبدو أن سيدنا عمر ﷺ كان يقظا لهذا الأمر فى نفسه وفى غيره، فحين ولى أمر المسلمين وقف فيهم وقال : قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن وجدتم فىّ خيرا فأعينونى وإن وجدتم غير ذلك فقومونى ، وكان دائم اللوم والتقليل لنفسه وكأنه يلجمها ويحميها من الزهو أو التضخم . فإذا كان سيدنا عمر يفعل ذلك مع نفسه ومع سيدنا خالد رضوان الله عليهما رغم ما يتمتعان به من نضج شخصى وصلاح وورع فمن باب أولى يصبح هذا الأمر أكثر ضرورة لشخصيات تقترب من السلطة وتسعى إليها وهى تحمل فى داخلها سمات بارانوية أو سمات نرجسية (منتشرة كثيرا فى مستويات السلطة المختلفة) قابلة للإنحراف فى أى مرحلة .

التلوث السيكوباتى والفساد :

كما قلنا من قبل فإن الشخصية البارانوية والشخصية النرجسية هما أكثر شخصيتين يسعيان نحو السلطة ويتواجدان فيها ويتشبثان بها، والسلطة بالنسبة لهما احتياج شخصى لتدعيم الذات وتضخيمها لذلك نراهما فى طريق سعيهما للسلطة ينتهكان الكثير من القيم أو الأعراف أو القوانين تحت زعم الغاية تبرر الوسيلة أو تحت وهم أنها ضرورات مرحلية يتم فيها التجاوز عن بعض المحظورات، وحين تصل هذه الشخصيات إلى السلطة وتذوق طعمها وتتوحد معها تتأكد أنه لا وجود لها بدون السلطة لذلك تستمر فى محاولات الإستبداد بالسلطة والتشبث بها وهذا يستدعى ممارسة سلوكيات سيكوباتية للتحايل والإلتفاف والتلفيق والخداع والكذب، وتصبح هذه الأشياء من ضرورات الإستمرار فى اغتصاب السلطة، وهكذا يحدث التلوث السيكوباتى لشخصية صاحب السلطة وينتشر هذا التلوث فى كافة جوانب المجتمع فى صورة فساد عام، والفساد هنا ضرورة بقاء حتى يحدث تناغم بين المنظومة السلطوية والمنظومة العامة (لأن المنظومة العامة لو بقيت نقية فى حالة فساد وتلوث المنظومة

السلطوية فإنها سرعان ما تلفظها) ، وكل هذا يحدث طبقا للمعايير السيكوباتية التى تهتم بالمبالغة فى إعلان عكس ذلك فنجد مبالغة فى الحديث عن الشفافية والطهارة والمبالغة فى الحديث عن المثاليات الأخلاقية والمبالغة فى الطقوس والمظاهرالدينية الخالية من روحانيات الدين، فى الوقت الذى يستشرى فيه الفساد ويتوحش .

إدمان السلطة :

يحدث الإدمان نتيجة الشعور بعائد التعاطى من نشوة وانبساط ويحدث أيضا نتيجة ارتباطات شرطية تثبت السلوك الإدمانى وتدعمه، ولا شك أن السلطة تعطى نشوه ويحدث معها ارتباطات شرطية مدعمه وذلك بما تعطيه لصاحبها من مكانة وتميز وما تضفى عليه من هالة وما تهيؤه له ولأسرته من هيبة وما تتيح له من خضوع الناس واستعدادهم لخدمته والتفانى فى تلبية ما يريد . هذا الوضع حين يستمر طويلا يؤدى إلى حالة من إدمان السلطة، وكما هو الحال فى صعوبة علاج إدمان المخدرات أو إدمان التدخين أو إدمان أى شئ فإن علاج إدمان السلطة يكون غاية فى الصعوبة وقد يصل إلى درجة الإستحالة، فالسلطة شهوة من أقوى شهوات النفس فى حياة الإنسان وخاصة حين يتجاوز الإنسان مرحلة الشباب (التى تكون فيها الشهوة الجنسية هى أقوى الشهوات) ، ولذلك كان بعض المعترضين على نظرية فرويد فى الغرائز يقولون بأن الغريزة الجنسية ليست هى الغريزة الوحيدة المحركة للسلوك فى كل مراحل العمر، حتى وإن كان ذلك صحيحا فى المراحل المبكرة من العمر إلا أنه فى مراحل تالية كثيرا ما تتفوق عليها غرائز أخرى مثل غريزة جمع المال أو غريزة السلطة، ونحن نرى رجالا كثيرين لا يهتمون كثيرا بالموضوعات الجنسية خاصة فى المراحل المتأخرة من عمرهم ولكنهم يهيمون عشقا ويضعفون أمام إغراءات السلطة أو المال .

العزلة وافتقاد الحياة الطبيعية :

فصاحب السلطة يعيش حياة تحوطها المحاذير والقيود، فعلى الرغم من تمتعه بسلطات واسعة تبهر من يراه من بعيد إلا أنه محاط بآلاف المحاذير فهو غير قادر أن

يعيش حياة تلقائية عفوية مثل بقية الناس وغير قادر على التجول فى الشوارع وارتياد المحلات والشواطئ والمنتزهات العامة، وكل تعاملاته مع الناس تحدث من وراء ستار لذلك فهى تعاملات غير صادقة وغير أصيلة وغير حقيقية، فكل المحيطين به يظهرون له الولاء والطاعة ليس بدافع من حب حقيقى وإنما بدافع من خوف حقيقى من سطوته، لذلك فهو محروم من المشاعر الطبيعية التى يتعامل بها البشر مع بعضهم . لذلك فالإستمرار فى السلطة لفترات طويلة يؤثر بالسلب فى شخصية صاحب السلطة حيث يبعده عن حقيقة الحياة وطبيعتها وعن حقيقة الناس ومشاعرهم ويفرض عليه وجودا كاذبا خادعا فهو لا يرى الحياة إلا من خلال تقارير تعكس وجهة نظر من كتبوها ولا يرى من الناس إلا أقنعة لبسوها رغبا ورهبا، ولا يبقى له من معرفة بالحياة الحقيقية إلا ذكرياته عنها قبل أن يجلس على كرسى السلطة وكلما تقادم به العهد فى السلطة خفتت هذه الذكريات فلا يبقى بينه وبين الحياة الحقيقية أى ارتباط . وهذا أحد الأسباب الذى جعل الدول الديموقراطية تحول دون أبدية السلطة حفاظا على السلامة النفسية لصاحب السلطة وحفاظا على صحة العلاقة بينه وبين شعبه .

سكرة السلطة:

وهى تعنى ذهول صاحب السلطة عن الواقع المحيط به (باستثناء ما يهدد السلطة) وعن العواقب الدنيوية والأخروية لأفعاله، وعن احتمال زوال السلطة، وربما يضطرب لديه الإحساس بالزمان والمكان نظرا للظروف التى تعطيه إحساسا بإمكانية كل شئ (على الأقل فى إطار احتياجاته الشخصية)، فصاحب السلطة يعيش حالة خاصة من الوعى تؤثر كثيرا فى إدراكه وفى قراراته .

الإغراء بالقدرة:

فالسلطة قدرة قد تبدو لصاحبها هائلة وغير نهائية، وهذا يغريه بتفعيل هذه القدرة المتاحة واستخدامها فى تحقيق ما يريد دون النظر لكثير من المعايير المعتادة لدى عموم الناس، والمثل الشعبى يصور هذا الموقف الذى تتحول فيه القوة إلى قانون

بقوله : القوى عايب ، فعند مرحلة معينة من الشعور بالقدرة والسيطرة يشعر صاحب السلطة بأنه هو القانون والدستور وكل شئ، فإذا وقفت إحدى مواد الدستور حائلا بينه وبين إحدى رغباته أو احتياجاته فلا مانع أبدا من تغيير هذه المادة أو حتى تغيير الدستور أو تعطيله أو إلغائه وعمل دستور جديد يحقق له ما يريد مع إعطاء قناع قانونى زائف لكل هذا كاستفتاء الجماهير على الدستور الجديد وتزييف إرادتهم خلال عملية الإستفتاء، وسوف يجد صاحب السلطة من حوله ومن تحته من هم جاهزون لعمل كل ما يريد فهم أيضا عبّاد للسلطة ولأصحابها .

العناد :

وهو شعور مركب يتكون من الغرور والكبر واحتقار الآخرين والرغبة فى السيطرة المطلقة واغتصاب إرادة الآخرين بحجة أن الشخص المعاند هو الأعلم والأحكم والأقدر، وأن الآخرين جهلاء وقصّر . والعناد يحمل قدرا كبيرا من العدوان لأنه يبعث برسالة للرعية بأنها ليست ذات وزن حتى يستجيب لها صاحب السلطة، وبأنه ليس فى حاجة إلى إرضائها أو استرضائها فهو متحكم فيها بقوته وسطوته وليس برضاها أو قبولها

التأله :

وهو قمة تضخم الذات لدى صاحب السلطة إلى الدرجة التى لا يستطيع معها رؤية أى ذات أخرى بما فيها الذات الإلهية، وقد أعلنها فرعون صراحة حين قال ما علمت لكم من إله غيرى ، وقد يعلنها أصحاب سلطة آخرون بأشكال ولغات مختلفة تتفاوت درجتها حسب حالة تضخم الذات التى وصلوا إليها وانكماش ذوات الجماهير التى تحتهم .والتأله يؤدى إلى التجبر والإستعلاء والطغيان والإستبداد بلا حدود، والمتأله لا يكسره شئ إلا الموت يخطفه وهو فى قمة انتفاخه وزهوه .

الجمود:

وهوسمة للنظام الذى يفتقد الأمان فيلجأ إلى تثبيت الأوضاع وتجميدها لأن الحركة عنده تعنى تهديد الإستقرار، وشعار هذا النظام : استقرار الإستمرار واستمرار الإستقرار .

الإحتراق (الإفلاس):

ويحدث حين تطول مدة الحكم حيث تسرى حالة من الملل والفتور حياة السلطة وصاحبها نتيجة للروتين والتكرار الطويل الممل، وقد يحاول صاحب السلطة إيهام الآخرين بأن ثمة تجديد يطرحه من وقت لآخر من خلال بعض الإجراءات الهامشية السطحية، أو بعض الإعلانات التى توحى أو تعد من وقت لآخر ببداية مرحلة جديدة أو تبنى فكرا جديدا، ولكن يكتشف الجميع بعد وقت قصير أن الأمور كما هى وأنه لم يعد هناك غير الفتور والملل اللانهائيين

الشيخوخة:

قد تشيخ السلطة فتصبح غير قادرة على استيعاب منظومات الحياة الحديثة أو تصبح غير قادرة على مواكبة الأحداث كما ينبغى، لذلك تتمسك بالأنماط القديمة والشعارات القديمة، وتصبح حركتها بطيئة وبليدة واستجاباتها باهتة شاحبة، ولا تستطيع مواكبة حركة الزمن أو التفاعل مع احتياجات الجماهير المتجددة، وتسعى إلى تكبيل حركة المجتمع وضبط إيقاعه بما يتناسب مع الإيقاع البطئ لصاحب السلطة

عبادة الأبناء:

حين يكتشف صاحب السلطة أن أبديته مستحيلة يلجأ مباشرة إلى السعى نحو الأبدية عن طريق توريث الأبناء الذين هم امتداد طبيعى لذاته التى عاش يعبدها ويسخر كل شئ من أجلها، لذلك يتشبث بتوريث أحد الأبناء والذين يصبحون بالنسبة له حبل نجاة من الفناء والإنتهاء، ولذلك يعبدهم كامتداد لعبادته لذاته ويضحى فى سبيلهم بمصالح الوطن والرعية .

الوقاية والعلاج:

مثل أى مرض معروف تحتاج أمراض السلطة لإجراءات وقائية وعلاجية تحول دون حدوثها وتخفف من آثارها على صاحب السلطة وعلى الرعية، ونذكر من هذه الإجراءات ما يلى :

١- **شرعية السلطة** : بمعنى أن تكون منتخبة انتخابا حقيقيا بواسطة جموع الناس، فهذا يعطيها ولاءا واحتراما لمصالحهم، واعترافا بإرادتهم

٢- **مدة السلطة** : كلما طالت مدة السلطة كلما استفحلت أمراضها حتى تصل إلى مرحلة اللاعودة عند نقطة معينة، ولذلك حرصت الدول الديموقراطية المتقدمة – كما قلنا- على تحديد فترتين للرئاسة ولا يجوز التمديد أو الإستمرار أكثر من ذلك مهما كانت عبقرية الرئيس وإنجازاته

٣- **مساحة السلطة** : فكلما ازدادت مساحة سلطة الفرد أو كانت تلك السلطة مطلقة كلما كانت احتمالات أمراض السلطة عالية لأن السلطات الواسعة أو السلطة المطلقة تغرى صاحبها بالإستبداد والطغيان مهما كانت بداياته طيبة ومتواضعة .

٤- **مابعد السلطة** : بمعنى أن يكون هناك تصورا واضحا لحياة كريمة بعد السلطة ينعم فيها صاحب السلطة بحياة هادئة وجميلة، بحيث يخرج من السلطة شاكرا مشكورا راضيا مرضيا لكى ينعم بحياة شخصية وعائلية هادئة بعد أن أدى لوطنه حقه بشرف وإخلاص .أما إذا كان هذا المفهوم غامضا فإن صاحب السلطة يتشبث بها خوفا من الضياع أو المحاسبة أو الإنتقام أو التشفى، ولا يترك السلطة حينئذ إلا بالموت .

٥- **المحاسبة** : بحيث يتم محاسبة صاحب السلطة أولا بأول عن أفعاله وتصرفاته حتى لا تتضخم أخطاؤه ويصل إلى نقطة اللاعودة فيضطر لأن يأخذ الوطن رهينة يحمى بها حياته وحياة أسرته.

مراجع الفصل الرابع:

- برتراند راسل . السلطة والفرد . ترجمة لطفيه عاشور، مكتبة الأسرة ٢٠٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- جوستاف لوبون . سيكولوجية الجماهير . ترجمة هشام صالح ١٩٩١، دار الساقى، بيروت .
- جون كينيث . تشريح السلطة . ترجمة عباس حكيم، الطبعة الثانية ١٩٩٤، دمشق.
- سالم القمودى . سيكولوجية السلطة . الطبعة الأولى ١٩٩٩، مكتبة مدبولى، القاهرة.
- نيقولو مكيافيلى . الأمير . تعريب وتقديم خليل حنا تادرس ٢٠٠٦ الطبعة الأولى، مكتبة النافذة، القاهرة.



الفصل الخامس

قادة العالم واضطرابات الشخصية

فى مؤتمر الطب النفسى المنعقد بالقاهرة وبالتحديد يوم ٢٠٠٥/٩/١٤، كان أحد حكماء الطب النفسى العالميين وهو البروفيسور أوتو و. ستينفيلد (Otto W. Stenfeldt) يلقى كلمته عن حقوق المريض وحقوق الإنسان، وكان يقرأ كلمته من أوراق مكتوبة، ولكنه حين وصل إلى نقطة معينة رفع عينيه عن أوراقه ونظر إلى الحاضرين الذين كانوا يملئون قاعة خوفو بمركز القاهرة الدولى للمؤتمرات، وبدأ ينبه بشكل خاص إلى خطر قادم ألا وهو انتشار اضطرابات الشخصية فى المجتمعات ربما بشكل وبائى أكثر من معدلاتها المعروفة والمتوقعة فى المجتمعات البشرية على مر العصور، والسبب فى ذلك يرجع فى رأيه إلى أن قيادات العالم لم يعودوا قدوة للناس بشكل عام وللصغار والشباب بشكل خاص، حيث أسقطت هذه القيادات من حساباتها الكثير من القيم الأخلاقية واختارت مسارات تتسم أغلبها بالكذب والخداع والنفعية والتحايل والبطش والسيطرة والإستغلال والإبتزاز (راجع من فضلك تصريحات وسلوكيات معظم قادة العالم فى السنوات الأخيرة)، وبالتالى نشروا قيما سلبية بشكل هائل عبر وسائل الإعلام المسلطة عليهم ليل نهار، وأصبحت هذه القيم غير مستنكرة من الناس بسبب شيوعها على هذه المستويات القيادية (راجع قبول الناس لانحرافات كلينتون الجنسية وقبولهم لكذب بوش – الأب والإبن – فى حرب الخليج وقبولهم لخداعات تونى بلير ونجاحه ونجاح بوش الإبن بعد كل هذا، وتواطؤ وسكوت حكام الصين واليابان)، وقد كان الناس قبل هذا فى المجتمع الغربى يسقطون أى زعيم يكذب عليهم أو يخدعهم، ولكن يبدو أن الأمور تغيرت وأن الفساد الأخلاقى يعم، ويصبح مألوفا وأحيانا مبررا أو مقبولا طالما يحقق مصالح من يقومون به .

ثم انتقل العالم الكبير إلى نقاط أخرى فى كلمته، ولكننى رحت أسترسل فى تتبعاتى لهذه النقطة الخطيرة فى كلمته، والتى كنت أستشعرها ولكنها لم تكن قد

تبلورت إلى هذا الحد، تلك الظاهرة التى لو أخذناها على محمل الجد (ولا بد أن نأخذها كذلك) لعرفنا أنها تجر البشرية كلها إلى هاوية سحيقة .

وبعد ذلك بيومين بثت وكالات الأنباء من لندن (أهرام الجمعة ٢٠٠٥/٩/١٦) نتيجة استطلاع عالمى أجراه معهد جالوب لحساب إذاعة بى بى سى وشمل ٥٠ ألف شخص فى ٦٨ دولة، وكانت نتيجة الإستطلاع أن ثلثى سكان العالم تقريبا يعتقدون أن دولهم لا تحكم بإرادة شعوبها وأن ١١٪ فقط يثقون فى رجال السياسة . وذكر الإستطلاع أن غالبية الشعوب تود أن يحكمها واحد من فئة المفكرين مثل الكتّاب والعلماء، وحصلت هذه الفئة على ٣٥٪ من الأصوات .

(تذكر فكرة ترشيح الدكتور أحمد زويل - صاحب نوبل لانتخابات الرئاسة فى مصر، وتولى عبد الكلام - ا لعالم الفيزيائى الشهير - لأمور السلطة فى الهند) ، بينما قال ٢٥٪ انهم يودون أن يحكمهم زعماء دينيون (لاحظ أيضا تدنى الثقة فى الزعماء الدينيين) . وكشف الإستطلاع عن أن ٤٨٪ من الناس لا يصدقون أن الإنتخابات فى دولهم تجرى بطريقة حرة ونزيهة .

وإذا تأملنا هذه الأرقام عرفنا إلى أى مدى وصلت الأمور حيث أن ٨٩٪ من الناس لايثقون فى رجال السياسة فما الذى أدى إلى هذه النتيجة المفزعة ؟ .... يكفى أن تستحضر صورة أى قائد أو زعيم أو رئيس أو حاكم فى أى بلد من بلدان العالم (المتقدم أو المتأخر مع استثناءات قليلة) وتبدأ فى استعراض تاريخه وقراراته وسلوكياته ثم تحاول عرض ذلك على ميزان قيمى سليم، فستفاجأ بوجود كم هائل من القيم السلبية ظاهرة وباطنة، وأخطر مافى الأمر أن هذه القيم السلبية مغلفة بغشاء من الكذب والإدعاء والزيف تضاعف من خطورتها وبشاعتها وسلبيتها . ويكفى أن تراجع مواقف القادة الأمريكيين والبريطانيين واليابانيين وا لصينيين والعرب قبل وأثناء غزو العراق لترى إلى أى مدى وصل الوضع الأخلاقى والسلوكى بوجه عام لدى هؤلاء، فهذا يتحدث عن وجود أسلحة لادليل على وجودها، ويتحدث عن الشرعية وينتهكها، ويتشدق بالعدل

ويدوسه تحت قدميه، ويتحدث عن المبادئ ويكيل بمكيالين أو الف مكيال، ويتحدث عن السلام وهو يشعل النار فى كل مكان فى العالم، ويتحدث عن نشر الديموقراطية فى دول العالم الثالث وهو يدعم الإستبداد ويمارسه عالميا ليل نهار، وذاك يتحدث عن رفاهية شعبه المزعومة فى حين يقاسى شعبه شظف العيش و ويتحدث عن الحرية وهو يحتجز الآلاف خلف جدران سجونه ومعتقلاته، ويعد بالرفاهية فلا يرى الناس إلا مزيدا من التعاسة والشقاء . وهذا يتحدث عن الصدق والنزاهة والشفافية والعدل واحترام كرامة الإنسان بينما كل أعماله الظاهرة والباطنة تطفح بالكذب والتزوير والغموض والظلم وإهدار كرامة الإنسان . وذاك زعيم غريب الأطوار والأفكار يتحدث ليل نهار عن ترك الأمور للشعب بالكامل فى حين أنه يقبض بيد من حديد على عنق شعبه منذ ما يقرب من أربعين سنة، وقد ألقى بظلال تشوهاته وشطحاته النفسية على كثير من مناحى الحياة فى بلده ، وأدت مغامراته السياسية الطائشة إلى إفقار شعبه وإضاعة ثرواته، وذاك يستفيد من فساد النظام العالمى فى تنمية قدراته الصناعية وتحقيق أكبر العائدات الإقتصادية ولتذهب الأخلاق إلى الجحيم .

وهذه هيئة دولية المفترض أنها محايدة ومحترمة وتعمل على مستوى إنسانى عام كى تكون بمثابة صمام أمان يحمى العالم من نزوات وطيش بعض أفراده، ومع هذا نجدها وقد وقعت فريسة فى أيدى القوة الأمريكية الغاشمة، تتخلى عن حياديتها وموضوعيتها وتصبح أداة للبطش والظلم وانتهاك سيادة الضعفاء، بعد أن كانت ملاذا للضعفاء ومستقرا للشرعية . وحين تسقط الشرعية الدولية على أيدى حكام أمريكا وتوابعها فهل نطالب بعد ذلك مجموعات العنف والإرهاب بأن يلتزموا بتلك الشرعية؟

وهذا رئيس تحرير صحيفة باهت الملامح متبلد المشاعر، لا طعم له ولا لون ولا رائحة، يكتب منذ سنوات طويلة مقالا افتتاحيا بجريدة مهمة (أو كانت مهمة) كلمات تقرأها فتكتشف أنك لم تقرأ شيئا، فهدفه النهائى هو تمجيد الحاكم الفرد الأوحد وتبرير أخطائه وتحويلها إلى إنجازات عظيمة .

وذاك رئيس وزراء ذو ابتسامة لا معنى لها ولا مبرر، يبدو متفائلا فى سذاجة طفلية، ويستعرض أرقاما توحى بأن عصر الرخاء والإزدهار قد حل على البلاد والعباد، بينما الناس يعيشون فى ضنك شديد يلتهمهم الخوف والجهل والمرض فى كل مكان، وتمتلئ بهم السجون والمعتقلات ومستشفيات الكبد والكلى والسرطان .

وهذا مدير مصلحة قد وعى الدرس من الكبار فاستخدم نصف موظفيه (أسوأهم) ليتجسسوا ويكتبوا له التقارير عن النصف الآخر (المبعدين، المحبطين، الساخطين، المحرومين من الشرعية، أعداء الوطن والإستقرار) .

وذاك رئيس مجلس إدارة شركة متعددة الجنسيات تعمل فى صناعة الدواء وتسويقه، قد انشغل معظم وقته بمحاولات استرضاء وزراء الصحة وتابعيهم فى الدول المختلفة للسماح بدخول الدواء بسعر مرتفع وانتشاره فى هذه الدول بصرف النظر عن فاعليته أو أضراره، وهو يستخدم فى سبيل ذلك كل الوسائل غير النظيفة من رشاوى وحفلات وإكراميات وتسهيلات .

لانريد أن نسترسل أكثر من ذلك فى نماذج الفساد والإفساد فى المجتمعات البشرية، ونترك لذاكرة القارئ وفطنته وخبراته استكمال باقى النماذج على مهل . ولكن ربما يقول قائل : وما الغريب فى هذا ؟ أليست تلك طبيعة البشر ؟ اليست هذه النماذج موجودة فى المجتمعات البشرية على مر العصور ؟ ..... وهذا صحيح .... لكن الغريب والجديد فى هذه الحقبة هو سعة الإنتشار والتغلغل الوبائى لهذه النماذج على كافة المستويات خاصة فى مراكز القيادة على مستوى العالم المتقدم والمتأخر، وفى نفس الوقت قدرة وتوحش الآلة الإعلامية الجبارة فى تقديم هذه النماذج ليل نهار للعالم على أنهم قادة السياسة والرأى والفكر والصناعة، وأن ما يتبنونه من قيم هى قيم التفوق والنجاح والتأثير . والنتيجة المتوقعة والحاصلة هى توحد كثير من الناس (حتى المتضررين من سلوك هذه النخبة) مع هذه القيم وتبنيها، وهو ما نسميه التوحد مع المعتدى، حيث نجد الشعوب المظلومة والمنهوبة والمنتهكة فى مرحلة من المراحل

تفقد استنكارها لما يحدث لها وتبدأ فى تبنى قيم من أهدر كرامتها وأضاع حقوها وسجن أبناءها فنجدهم مع كل هذا يحملون صوره ويعلقونها فى كل مكان ويهتفون بحياته (والتى تعنى ضياع حياتهم) ويعطونه أصواتهم فى الإنتخابات، وهذه الحيلة الدفاعية النفسية (التوحد مع المعتدى) تحمى المعتدى عليهم (بشكل وهمى غير ناضج) من الشعور بأنهم ضحايا للمعتدى حيث أصبحوا جميعا فى صف واحد (كما يتخيلون) . وهذه العملية النفسية حين تحدث لأى شعب فهى كارثة كبرى حيث يفتقدون الرؤية النقدية للتشوهات السلوكية فى القيادة وفى المجتمع ومن هنا تصبح الإفاقة بعيدة المنال وتتوقف على قدرة قلة من نخبة المثقفين وأصحاب الر أى قد نجوا من حالة الإستلاب والتوحد مع المعتدى (المستبد) يقودون حركة إصلاح ربما تنجح أو تفشل حسب ظروف المجتمع الذى يعيشون فيه، وحسب قدرتهم على المثابرة ودفع ضريبة التغيير .

وحين يسود الفساد ويتغلغل، يصبح مألوفا ويصبح هو القاعدة التى تحكم غالبية سلوكيات الناس، وفى هذا الوضع تقل أو تدفن أو تتوارى أو تضعف أو تستبعد كل القيادات الأخلاقية المتميزة، ويعيش أصحابها حالة من العزلة والإنكماش والإستبعاد والإستضعاف والإغتراب فلا يراهم الناس ولا يسمعون لهم صوتا، وهذه هى الحال التى وصل إليها قوم لوط حين قالوا عن المؤمنين الطاهرين منهم : أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ، فقد أصبح التطهر فى هذا المجتمع الموبوء جريمة تستحق الإبعاد . والمجتمعات التى على هذه الشاكلة تعرفها بوجود هيئة أو مؤسسة وظيفتها التحرى حول ميول واتجاهات المرشحين للوظائف (بعيدا عن مؤهلاتهم العلمية أو مهاراتهم أو قدراتهم الوظيفية) ، وتصبح الوظائف القيادية مقصورة على من تنطبق عليهم مواصفات هذا المجتمع، ومع مرور الوقت واستمرار عملية الإنتقاء تفرغ المراكز القيادية العليا والمتوسطة من العناصر النظيفة أو الأخلاقية أو الفاعلة وتقتصر على المستسلمين والموافقين والمنبطحين والفاسدين، وهكذا تقوى منظومة

الفساد وتتسع دوائره لكى تحمى بعضها بعضا، وتكون النتيجة النهائية سيادة سمات اضطرابات الشخصية فى عدد هائل من أفراد المجتمع خاصة الصفات السيكوباتية النفعية والإنتهازية (الكذب، التحايل، الخداع، النفاق، السرقة، الإبتزاز، التضليل، التزييف) .

وقد يتساءل متسائل : ألا يدل انسحاب وتراجع أصحاب الأخلاق فى مقابل أصحاب القوة والسيطرة على أحقية القوة فى القيادة والتأثير ، وعلى أن منطق القوة هو منطق الواقع، وأن منطق الأخلاق هو منطق الخيال والأحلام ؟

والحقيقة أن البشرية عاشت وأنتجت حضارات وحياتها خليط من القوة والقيم مع تفاعل وتوازن بينهما، إلى أن جاءت الحقبة الأمريكية الحالية فضربت القيم ضربة قاضية لصالح القوة، فانطلقت القوة منفردة فى الساحة متجاهلة كل القواعد الأخلاقية والشرعية بل ومستهينة بها ومسفهة إياها بشكل على غير مسبوق، وهذا يحقق مثلا شعبيا مصريا يقول: «القوى عايب» ، وهو يعنى أن القوة تميل إلى التجرد من الأخلاق ومن الشرعية، وهذا ما حدث بالضبط فى عصر الإمبراطورية الأمريكية حين انفردت مستبدة بحكم العالم . ولا نعنى هنا القوة العسكرية الباطشة المستعمرة بلا وجه حق لأفغانستان والعراق والمتواطئة فى احتلال فلسطين والجولان والمتنمرة لاحتلال سوريا وإيران، ولكن نعنى أيضا القوة الإقتصادية التى تبحث عن الربح بأى شكل وتستنزف ثروات الضعفاء والمغفلين والمستغفلين، والقوة الإعلامية التى تخدع عين المشاهد وأذنه وتزيف وعيه وتوقظ دوافع العنف والعدوان والجنس لديه بصرف النظر عن أى اعتبارات أخلاقية أو مهنية . ويمكن تفسير هذا الإنشقاق والخصام بين القوة والقيم إلى طبيعة نشأة المجتمع الأمريكى المبكرة حيث تكون من المنفيين والمستبعدين وخريجى السجون والغاضبين والساخطين على مجتمعاتهم الأصلية فى أوروبا (أى الذين يحملون جينات اضطرابات شخصية) ، هؤلاء ذهبوا إلى أمريكا وهم يحملون فى نفوسهم كراهية للقيم والقوانين السائدة فى

المجتمع الأوروبى، تلك القيم التى عانوا تحت مظلتها واستبعدوا أو هربوا بسببها، لذلك لفظوها أو جنبوها وراحوا ينهلون من خيرات المجتمع الجديد، وحين واجهتهم مشكلة السكان الأصليين (الهنود الحمر) حسموا أمر هم بعيدا عن أى اعتبارات أخلاقية حيث قاموا بقتلهم أو استبعادهم أو استعبادهم كى تخلو لهم هذه الجنة الجديدة، وكان هذا هو منطقهم وا ستمر إلى الآن رغم ما يغلفه من مظاهر ديموقراطية وادعاءات الحرية والعدا لة (راجع سلوكهم الوحشى وغير الأخلاقى فى ا لحرب العا لمية الثانية تجاه اليابان، وفى حربى الخليج وفى الإغارة على افغانستان والعراق) .

والمشكلة أن طريقة وصول قيادات العالم للحكم سواء بالإنتخابات فى – الدول ا لمتقدمة أو بالإنقلابات فى الدول المتخلفة – تعطى فرصة أكبر لمن استطاع أن يخادع أو يناور أو يشترى الذمم والأصوات أ و يستولى على السلطة با لقوة والقهر أن يصل إلى سدة الحكم، فى حين أن أصحاب الأخلاق غالبا ما يفشلون فى الوصول عن طريق هذه الآليات فهم لا يملكون القدرة على المناورات الإنتخابية فى الدول الديموقراطية، وربما لايملكون ا لمال، ولا يملكون ا لقدرة للوصول بالقوة العسكرية فى الد ول المتخلفة ، وفى الحالتين نجدهم مستبعدين من النخبة الحا كمة إلا فيما ندر .

ونتيجة هذا الخلل هو فى النهاية خلل فى التركيبة النفسية للأفرا د والشعوب حيث تتجه الأنماط والسمات الشخصية إلى الجانب الأيسر من المنحنى فيتبنى الناس الكثير من قيم الكذب والخداع والإستغلال والإبتزاز والتحايل والتلون والتزوير والتلفيق والعنف والتسلط والقهر، يقابل هذا حالة من غياب القيم الدينية أو تغييبها أو تشويهها أو وصمها بالتطرف والإرهاب، والقيم الدينية هى منبع القيم المطلقة المرتبطة بالسماء وليس بأطماع الناس وشهواتهم، وهى مطلقة بمعنى أنها لا تتغير حسب الظروف أو الأشخاص أ و المصالح فالصدق صدق فى كل الأحوال والظروف والأمانة كذلك والرحمة والتسامح والإخاء والتكافل والحب ....إلخ . وقد أضحى أصحاب القيم الدينية الأصيلة والمطلقة مشغولون – بفعل القادة العالميون – بالدفاع عن أنفسهم

ضد محاولات الوصم والتشويه والإختراق، وبالتالى لم يعد لديهم نفس القدرة على التأثير والتوجيه والقيادة، هذه الأشياء التى انتقلت لمن ملكوا أسباب القوة .

إذن فهذا الواقع ينذر بأننا أمام حالة من التلوث الوبائى يصيب الشخصية البشرية على نطاق واسع، أو فيروس يخترق البرنامج الإنسانى ويشوهه . وهذا التلوث أو هذا الفيروس عابر للثقافات والقارات والمجتمعات، وهذه خطورته، لذلك لا تفيد فيه المحاولات ا لبسيطة أو المحلية للمواجهة، بل يحتاج لعقل الحكماء والعلماء الموضوعيين الموجودين على سطح الأرض ليقوموا بالتشخيص واقتراحات العلاج وآلياته ومتابعة تنفيذه بعد أن يخترقوا سحب الزيف والكذب والخدا ع والضلال لكى يصلوا إلى جوهر الحقيقة وينبهوا البشرية إلى الطريق الصحيح بعد أن ضلت أو كادت أن تضل الطريق .

وقد كان هناك اتجاه فى الجمعية العالمية للطب النفسى بأن تقترح آلية لاكتشاف الإضطرابات النفسية لدى القادة والرؤساء والملوك والزعماء واتخاذ ما يلزم لتجنيب ا لمجتمعات البشرية مخاطر قرارات هؤلاء الناس الذين يملكون فى أيديهم ترسانات هائلة من الأسلحة أو مليارات الدولارات أو الجنيهات أو الدينارات أو الفرنكات أو الريالات، ويمكن أن يهددوا بقرراراتهم الملايين من أرواح البشر ,أو يهددوا راحة واستقرار ونمو شعوبهم . ومن المعروف أن أى فرد فى أى مجتمع يطلب رخصة لحمل سلاح لابد وأن يعرض أولا على طبيب نفسى لتقرير مدى سلامته من الناحية النفسية ، فكيف لايتم هذا مع قادة وزعماء يملكون تحت أيديهم قدرات عسكرية (نووية أو بيولوجية أو تقليدية) واقتصادية هائلة . وهناك مشكلات منهجية وتقنية تصعب من هذا الأمر، إذ كيف يتم تقييم الحالة النفسية أو الإضطرابات الشخصية لهذه الفئة من الناس، ومن له الحق فى ذلك، وكيف نضمن حياده وعدالته، وإذا تم التقييم فمن يملك القدرة على المحاسبة، وكيف نضمن أن هذا الأمر لن يتم استغلاله بواسطة القوة الأمريكية المهيمنة (أو أى قوة تهيمن بعد ذلك)

لمعاقبة من لا يسيرون فى فلكها بحجة إصابتهم باضطرابات نفسية أو شخصية .
عموما مازال هذا الأمر يستحق الكثير من التفكير الجاد والمنهجى لتجنيب البشرية مخاطر التشوهات النفسية والخلقية التى تصيب بعض قادتها وتؤدى إلى تشوه شعوبها وتلوث البيئة العالمية والمجتمع الإنسا نى .

الباب الثانى

(سيكولوجية الجماهير)



سيكولوجية الجماهير

الجماهير هى الطرف المقابل للسلطة، وهى تؤثر بالسلب والإيجاب فى السلطة كما تتأثر بها، ولا يمكن فهم منظومة الحياة السياسية أو الإجتماعية بغير فهم التركيبة النفسية لكل من السلطة والجماهير وديناميات العلاقة بينهما . وإذا كانت هناك أصوات وأقلام تعلى من قيمة الجماهير وتتملقها فإن هناك أصوات أخرى تصف الجماهير بأوصاف غاية فى السلبية . ومن أشهر من حاولوا دراسة التركيبة النفسية للجماهير جوستاف لوبون فى نهاية القرن التاسع عشر فى كتابه «سيكولوجية الجماهير» . وقد ولد جوستاف لوبون فى باريس عام ١٨٤١ وتوفى عام ١٩٢١ م . وكتابات جوستاف لوبون تميل إلى رؤية الجانب السلبى فى الجماهير وقد يرجع ذلك لغلبة الجوانب السلبية على سلوك الجماهير أو لظروف الفترة التى عاشها جوستاف لوبون إبان الثورة الفرنسية حيث سادت فرنسا حالة من التمرد الشعبى وحالة من الفوضى فى تلك الفترة الإنتقالية ولم يكن يعرف على وجه التحديد مآل هذا التمرد الجماهيرى وتلك الفوضى الشعبية، فقد انطلقت الجماهير كمارد جبار خرج من القمقم ولا يستطيع أحد السيطرة عليه أو ترشيده . وقد اعتقد لوبون وقتها أن نضال الجماهير هو القوة الوحيدة التى تتزايد هيبتها وجاذبيتها باستمرار، وأن العصر الذى ندخل فيه هو عصر الجماهير ... وأن التقاليد السياسية والتوجهات الفردية للملوك والحكام والمناقشات الكائنة بينهم لا تؤثر على مسار الأحداث إلا قليلا، وقد أصبح صوت الجماهير راجحا وغالبا، فهو الذى يملى على الملوك تصرفاتهم، ولم تعد مقادير الأمم تحسم فى مجالس الحكم وإنما فى روح الجماهير .

من السوقة والدهماء إلى عصر المجتمع المدنى:

حاولت الرجوع إلى عصور عربية سابقة لأرى توصيفا نفسيا أو اجتماعيا لما يعرف حاليا باسم الجماهير أو المجتمع المدنى أو الأحزاب والقوى الشعبية فرأيت أن كل هذه الأسماء والتنظيمات والتشكيلات الشعبية كانت تحمل فى التاريخ العربى

(ويبدو أنها مازالت تحمل) معان غاية فى السلبية والإحتقار وسنترك للقارئ إدراك الأمر بعد استعراض الألفاظ والتسميات المستخدمة : العامة ... الدهماء .... السوقة ..... الرعاع ..... السفلة .... العصابة المنحرفة .... الأوباش ... الزعار (الزعران) . بالطبع تؤثر هذه الألفاظ على الصورة الذهنية لما نسميه نحن الآن الشعب أو الجماهير أو جماعات الضغط أو المجتمع المدنى أو الأحزاب المعارضة . وقد يفسر هذا ولو جزئيا ابتعاد المجتمعات العربية عن الديموقراطية الحقيقية حتى الآن وتوجس جميع الأنظمة العربية من العمل الأهلى ومن مجموعات المعارضة ومن حركة الجماهير، على الرغم من أن العالم كله الآن يتجه نحو تقوية العنصر الجماهيرى بكل تجلياته وتشكيلاته ويحد من توحش السلطة وسيطرتها واستبدادها .

والقارئ للتاريخ العربى يلمح اهتماما شديدا بتاريخ السلاطين والملوك والحكام ويلمح أيضا إهمالا لتاريخ الشعوب مع أن الشعوب حافظت على التيار الحضارى فى كثير من مراحل التاريخ العربى والإسلامى فى الوقت الذى كان تاريخ الحكام يتسم بالفساد والإنهيار، وكان الضمان لاستمرار التيار الحضارى فى فترات التدهور السياسى طائفتان هامتان هما الفقهاء (يقصد بهم المتخصصون فى علوم الشريعة) والعلماء (يقصد بهم المتخصصون فى العلوم الطبيعية والعلوم الطبية والإنسانية) وكان الشعب يتحرك مع هاتين الطائفتين متجاوزا فساد الحكام ومشاكلهم وصراعاتهم، وهذه هى روح المجتمع المدنى بلغة العصر الحديث .

والمتتبع لأدبيات الخطاب السياسى فى مراحل التاريخ العربى يلمح بسهولة أن الخطاب فى أغلبه على الأقل لم يكن يوجه للرعية باعتبارها كيانا محترما له وزن أو اعتبار وإنما كان الخطاب يوجه للسلطان أو الملك أو الخليفة، ولا يأتى ذكر الرعية إلا فى معرض دعاءها له بطول البقاء والنصرة على الأعداء وفى معرض امتنانها له على جزيل العطايا وامتنانها لله على منحته العظيمة فى صورة السلطان أو الملك أو الخليفة العظيم الملهم والمعلم . ولم تكن ذات الرعية تظهر فى الخطاب السلطانى إلا من حيث

كونها مجموعة من العامة والدهماء والسوقة يخشى عليها من المنحرفين والمضللين ومثيرى الشغب والمتمردين والعصاة والفسقة الخارجين على طاعة السلطان .والرعية ليست إلا مرآة يتبدى عليها عدل السلطان وحكمته ورحمته وعفوه ورعايته . وبمراجعة كتاب الأحكام السلطانية وغيره من الكتب ذات العلاقة نرى تباينا واضحا فى المساحة التى تشغلها السلطة الحاكمة والمساحة التى تشغلها الرعية لدرجة تكاد تنعدم فيها مساحة الرعية أو تستدمج فى ذات السلطان وتصبح جزءا منه وليس العكس . وتبدو أهمية الرعية فى دعم ملك السلطان ليس إلا فالسلطان هو الرأس وهو المركز وهو الأساس وهو الوجهة فهو الذى يقيم الحق والعدل والعمران (فى نظره) ويحمى سياج الدولة، والرعية تشكل ساحة للعمل السلطانى وتشكل موردا للمال والبشر يسخره السلطان لتحقيق الأهداف المرجوة (له وبه) . فالرعية موضوعا لذات السلطان ، وكما يصورها أبو بكر الطرطوشى أنها جسدا مآله الموت لولا الروح السلطانية وأرضا ظمأى بدون ماء وظلاما حالكا لولا سراج الملوك. ويعتبرها الماوردى يتيما تضيع حقوقه من دون ولى ، و أمانة (بلغتنا الحديثة : عهدة) فى يد السلطان المؤتمن عليها . ويصفها الشيزرى ب «الغنم السائبة إن تعذر راعيها» ، «ونبتا يتوق إلى قطرات الغيث» . ويصورها بن عبدربه «إبلا» تحتاج إلى من يقودها و ولدا يتعلق وجوده بأبيه . وهى عند الثعالبى بمنزلة «الخشب» المتهرئ لن يقوم أوده من دون نار . ويصورها ابن رضوان وابن طباطبا وأبو حمو الزيانى وابن الأزرق «كائنا مريضا يحتاج لاسترداد عافيته إلى الدواء السلطانى» . ويراها ابن قتيبة «جيفة أمام النسر السلطانى» ، وابن عبد ربه يصورها «حصاة يجرفها السيل و تفاهة تحت رحمة عاصفة» (الآداب السلطانية، عزالدين العلام ٢٠٠٦، عالم المعرفة ٣٢٤) .

والرعية فى نظر الكثيرين مجبولة على الفساد واتباع الهوى وقلة السداد وأن جور الرعية أشد من جور السلطان . ويتضح من هذه الأوصاف فى التراث العربى الصورة السلبية لما يسمى الآن الجماهير أو الشعب أو المجتمع المدنى، ويبدو أن هذه

الصورة متجذرة فى اللاوعى الجمعى للحكام والمحكومين على حد سواء ويبدو أنها تشكل قانون العلاقة بين السلطة والشعب فى كافة المراحل التاريخية مع استثناءات قليلة، وتبدو هنا صورة السلطان على أنه الأب والمنقذ والروح والموجه والمعلم والمرشد والغيث والرأس والعمود والوصى والمؤتمن والراعى . والرعية تأخذ شكل المحتاج المتوسل والمتسول والجاهل والضعيف، صاحب النفس الأمارة بالسوء، الساعى إلى الفتنة التى لا يعرف مداها، والسلطان الراعى يأخذ شكل المعطى المتفضل القوى المهيمن الضامن للأمن والأمان ودرء الفتنة . وهذه الصورة الذهنية للراعى والرعية ترسخت فى نفوس الكثيرين من الفقهاء والمفكرين العرب وجعلتهم يفضلون فساد الحاكم وظلمه وجبروته واستبداده على الفتنة التى تذهب بالأخضر واليابس .

تقنيات سياسة الجماهير:

١- الترهيب (السياسة القسرية) : وهى تعتمد على إحداث أكبر قدر من الهيبة للسلطة فى قلوب الجماهير فتحوط السلطة نفسها بكل مظاهر القوة والعظمة والأبهة والبطش، فترتعد الجماهير خوفا خاصة إذا ترسخ فى وعيها أن بطش السلطة بلا حدود وبلا منطق ولا يمكن لأحد توقعه أو التنبؤ به . ولكى تحقق السلطة هذا القدر الهائل من الترهيب الذى تظل أعناق الجماهير له خاضعة تستعين السلطة بأجهزة أمنية جبارة ووسائل تنصت وتجنيد عملاء فى كل مكان وممارسة كل أنواع البطش والتعذيب والتنكيل لإحداث أكبر قدر من الرعب فى نفوس الناس . والسلطة إذ تمارس هذا النوع من السياسة تحتقر الجماهير وتراها غير جديرة بالتحاور أو التفاهم على المستوى السياسى أو الثقافى وأنه لا ينفع معها إلا العصى الغليظة تؤدبها وتنهرها عن سوء فعلها

٢ - الترغيب (السياسة التعويضية) : هنا تشترى السلطة ولاء الجماهير من خلال حياة الرفاهية والوفرة، ومن خلال بعض الحريات الفردية ونظام الإقتصاد الحر . وتسعى السلطة لاستمالة رموز المجتمع ومفكريه من خلال إغداق

العطايا والمناصب، وتستميل الجماهير من خلال إعلان مبادئ الحق والعدل، وتسهيل عمليات النمو الإقتصادى والإجتماعى .

٣ – الترغيب والترهيب (سياسة الإحتواء المزدوج) : وهى سياسة تتبع منهج الجزرة والعصا فمن لا تغريه الجزرة ترهبه العصا .

٤– التحاور والتعاون (السياسة التلاؤمية) : فنرى احتراما متبادلا بين السلطة والجماهير ، وحالة من الشفافية والتعددية الحقيقية، وتداول السلطة بشكل سلمى سلس، واللجوء إلى التثقيف والإقناع والحوار فى حالة من التوازن الدينامى بين السلطة والجماهير .

الترفيه والتسلية وتعزيز الوضع الراهن:

قد يعتقد البعض أن برامج الترفيه والتسلية هى بطبيعتها برامج محايدة ليس لها علاقة بالأفكار أو القيم أو التوجهات أو الصراعات وأنها لا تتعدى كونها وسائل لملء الوقت وراحة النفس، وهذا الإعتقاد يستفيد منه الذين يخططون لتعزيز الوضع الراهن فى مجتمع ما وذلك بزيادة مساحات البرامج والأنشطة الترفيهية والتى تجذب انتباه الناس عما يدور فى الحقيقة وتعطيهم إحساسا بأن الحياة تدور بشكل لطيف مبهج وأنهم مدعوون للإستمتاع بما تتيحه لهم الكثير من المؤسسات الترفيهية، أى أننا هنا أمام عملية إلهاء وإغراء، وهى عملية مزدوجة تمتص الكثير من حالات الغضب أو ميول التمرد الشعبى . والبرامج الترفيهية تتجنب تماما الحديث أو الإشارة إلى أى منغصات أو مشكلات أو صعوبات ولذلك فهى تخلق عالما وهميا ولكنه لذيذ يعيش فيه الناس وينسون واقعهم المؤلم .

والدور الأخطر لوسائل الترفيه والتسلية يكمن فى الترويج للنزعة الإستهلاكية وتعزيز قيمة المتعة والمصلحة الشخصية، وحب المكسب، واستهداف النجاح الفردى، وكل هذه الأشياء تسوق كوسائل إشباع بديلة للحاجات الإنسانية الأرقى كالأمان والحب والتقدير الإجتماعى والحرية والكرامة وتحقيق الذات . وقد نجحت الفضائيات

التليفزيونية ومواقع الإنترنت فى جذب اهتمام الجماهير وإلهائها عن معاناتها ومشاكلها وامتصاص غضبها وتأجيل ثورتها، وقد يفسر هذا حالة اللامبالاة الشعبية تجاه أحداث جسام كانت تحرك هذه الجماهير بعنف فى الماضى، وكأن هذه الجماهير فى حالة تخدير ترفيهى أو إعلامى يشبه إلى حد كبير حالة متعاطى المخدرات الذين يعيشون واقعا وهميا ينعمون به ولا يرغبون فى تغييره رغم ما يحيط بهم من كوارث، فالطلاب الجامعيون أو العمال (وقود الحركة الشعبية فى الماضى) يسرعون فى العودة إلى منازلهم للإستمتاع بالتجوال بين القنوات الفضائية ومواقع الشبكة العنكبوتية وألعاب الكومبيوتر بما تتيحه هذه الأشياء من لذة تطغى كثيرا على عائد المطالبة بالحقوق أو الكرامة أو التغيير . وهكذا يصبح ثمة اتفاق غير مكتوب بين الجميع للمحافظة على الوضع الراهن بما يذخر به من وسائل استمتاع مع القناعة بالإشباع البديل للحاجات الإنسانية والمطالب الشعبية .

مفتاح شخصية الجماهير العربية:

لكى نفهم سلوك الجماهير (ونحن هنا نتكلم عن العالم العربى بشكل خاص) فسنحاول أن نمسك بخيط يدلنا على مفتاح شخصية هذه الجماهير والذى يفسر الكثير من أفكارها ومشاعرها وسلوكياتها، وهذا المفتاح يمكننا بواسطته أن نقرأ الكثير من الظواهر المرتبطة بهذه الجماهير وأن نفهمها بشكل منطقى سلس .

ومفتاح شخصية الجماهير العربية ليس صعب المنال حيث أنه وارد فى الكثير من أدبياتنا وتراثنا بشكل مكثف وملفت للنظر، فعلى مدى مراحل التاريخ يطلق لفظ الرعية على الشعوب العربية، واللفظ مأخوذ من البيئة العربية (الرعوية بشكل خاص) حيث يكثر مشهد الراعى فى صورة رجل أو امرأة يمسك عصا ويهش بها على الغنم ليقودها إلى مواطن العشب ويحميها من الذئب ومن التفرق، والأغنام هنا تضع رأسها لأسفل أغلب الوقت لتأكل العشب أو تشرب الماء (وهذا أغلب فعلها) ولا ترفع رأسها إلا لتهزه للحظة قصيرة كعلامة على انتشاء الشبع . والأغنام تتحرك فى

مجموعة يشكلها الراعى طولا أو قصرا أو عرضا وإذا شردت منهم واحدة يردها بإشارة أو ضربة من عصاه . ولا يتصور أن يكون لهذه الأغنام رؤية أو إرادة أو اختيار، وللراعى الحق كل الحق فى بيع بعضها وذبح البعض الآخر دون مساءلة من أحد . هذا هو مشهد عملية الرعى التى اشتقت منها الكلمة، وقد ينزعج القارئ من بشاعة هذه الصورة إذا تخيل نقلها إلى عالم البشر أو اتهام مجموعة من الناس بأنهم يتبعون هذا النمط، ونحن لا نقصد ذلك (وإن كان فى الواقع كثير مما يؤيده) ، ولكن نحاول أن نرى جذور السلوك من خلال تتبع معانى ودلالات التسمية والتى استقرت فى طبقات عميقة من الوعى العربى العام فشكلته . قد يبدو هذا المفهوم سلبيا أو موجعا أو جارحا خاصة إذا نقله أى شخص من المشهد الرعوى الحقيقى إلى المشهد الإنسانى دون تحويرات لازمة تتصل بعالم البشر، ولكن من المؤكد أنه حتى بعد هذه التحويرات يبقى للإسم تأثيراته العميقة والتى نستطيع تتبعها فى صور العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى كثير من مراحل التاريخ العربى، فقد كانت السلطة دائما فى يد الحاكم (الراعى) فهو الذى يرى ويوجه ويجمع أو يفرق ويعطى أو يمنع ويحمى أو يضيع، ولم يكن ثمة دور للرعية (أو الرعايا) إلا الإستجابة (رد الفعل) للراعى . وهذا المفهوم يدعمه مفهوم أخلاقى آخر وهو فكرة المجتمع الأبوى الذى ترى فيه صورة الأب خفاقة عالية وترى فيها صورة الأبناء صغيرة تابعة ومتطفلة . وهذا المفهوم الرعوى أو الأبوى يجعل الرعية دائما فى حالة تبعية وأحيانا فى حالة تسول، فهم لا يعتقدون أن لهم حقوقا وإنما ما يحصلون عليه هو منحة من الراعى أو من الأب إن شاء أعطاهم إياها وإن شاء منعها عنهم، وهذا يفسر مانراه من ظاهر التزلف والإسترضاء والتسول والتوسل والدعاء بطول العمر للراعى أو للأب المانح القادر . وقد تعجب أنك فى كثير من المجتمعات العربية حين تقدم لأحد خدمة معينة فى حدود وظيفتك أو عملك تجده يكثر لك من الدعاء وكأنك قدمت له شيئا لم يكن يستحقه، فى حين أن هذا لا يحدث فى مجتمعات كثيرة تستشعر أن لها حقوقا تأخذها بكرامة وهى رافعة الرأس شاكرة بموضوعية وأدب، وفرق كبير بين شكر الأحرار ودعوات

المتسولين، فما نجده فى بلاد العرب هو أشبه بدعوات المتسولين لمن قدموا لهم عطاء، تلك الدعوات التى تظهر فقط أمام صاحب العطاء لتستبدل بعد غيابه عن أعينهم بأشياء أخرى كثيرا ما تكون مناقضة .

وهذه المفاهيم تختلف كثيرا عن مفاهيم المواطنة التى تستوجب حقوقا وواجبات وتستوجب تفاعلا ناضجا وحيويا بين الحاكم والمحكوم وبين الأب الحكيم وابنه الناضج المسئول .

إذن فنحن طبقا لهذا المفتاح أمام سلوك رعايا تابعين لا مواطنين فاعلين إيجابيين، وهؤلاء الرعايا ليست لهم حقوق معروفة واجبة الأداء يأخذونها بعزة وكرامة وإنما لهم عطايا ومنح تأتى إليهم من الراعى وتستوجب ما تستوجبه العطايا والمنح من الإنحناء وكثرة الدعاء والثناء والمدح وطلب الرضا والتمنيات بطول العمر للراعى وذريته .

ديناميةالعلاقة بين الجماهير والسلطة:

حين تكون السلطة منطقية وشرعية وقائمة على الشورى وملتزمة بها، وحين تكون الجماهير على درجة جيدة من التعليم والثقافة ولديها ملكة التفكير النقدى يصبح الأمر علاقة سلطة ناضجة بجماهير ناضجة فيسود العقل وتحتل الموضوعية مساحة كبيرة فى العلاقة بين الطرفين فلا تتحول إلى حب حتى التقديس والإستلاب أو إلى كراهية حتى التدمير . ونتاج ذلك منظومة سياسية واجتماعية تتسم بالسلام وارتفاع معدلات الإنتاج والنمو والإبداع .

أما حين تكون السلطة غير منطقية، أو غير شرعية، أو استبدادية، أو فرعونية، حينئذ تسود ديناميات مرضية مثل الكذب والخداع والنفاق والعدوان السلبى واللامبالاه من جانب الجماهير، بينما تتعامل السلطة مع الجماهير باذدراء وشك وتوجس، وترى أنها غير جديرة بالتحاور والتشاور وإنما تساق بالعصا . وإذا وصفنا نمط هذه العلاقة بمصطلحات علم النفس نقول بأنها علاقة بين والد ناقد مستبد وطفل يميل إلى العدوان

السلبى . وهذا الطفل العدوانى السلبى ينتظر اللحظة المناسبة لينقض على الوالد الناقد المستبد ليتحول بذلك إلى طفل متمرد .وبالتعبير الشعبى الدارج نصف هذه العلاقة بأنها علاقة القط والفأر .

هذين هما القطبين المتضادين على متصل العلاقة بين السلطة والجماهير وبينهما درجات عديدة من أشكال العلاقات حسب نوعية السلطة وطبيعة الجماهير .

تزييف الوعى:

ولكى تتمكن السلطة من قيادة الجماهير دون مواجهات أو مشكلات أو اضطرار للحل الأمنى بكثرة فإنها تقوم بتشكيل وعى الجماهير بما يتفق مع مصالح السلطة، وهى تلح طول الوقت بأن ما تفعله هو فى صالح الجماهير، وقد تتمادى السلطة فى تشكيل الوعى الجماهيرى حتى تصل إلى تزييف ذلك الوعى خاصة حين تكون أهداف السلطة غير مشروعة وغير أخلاقية، لذلك فهى تقوم بتزييف وعى الجماهير حتى يرى تلك الأهداف الذاتية غير الأخلاقية أهدافا عظيمة ومشروعة ويخيل إليه أن السلطة تسعى لصالحه . وبالطبع فإن هذا العمل يتطلب مهارات عالية لذلك يختار أصحاب السلطة ذوى الكفاءات فى الإعلام الموجه للإلحاح ليل نهار على حواس الجمهور من خلال الصحيفة والإذاعة والتليفزيون لإقناعه بما تراه السلطة . وقد يتم التزييف من خلال شخصية كاريزمية فى السلطة أو فى المجتمع يتم من خلالها تسويق أفكار السلطة إلى الجماهير التى تتقبل هذه الأفكار بناءا على تقبلها وحبها للشخصية الكاريزمية . وهذا التزييف لوعى الجماهير وبالتالى لخياراتهم يحدث فى الأنظمة المستبدة والأنظمة الديموقراطية على السواء، ولكن تختلف وسائله وأساليبه ودرجة فجاجته أو وقاحته من مجتمع لآخر فبينما يحدث فى الأنظمة المستبدة بشكل سلطوى غاشم يمجد إرادة الفرد ويرفعه إلى مصاف الآلهة نجده فى الدول الديموقراطية يحدث من خلال آلة إعلامية هائلة التأثير تقوم بعمل غسيل مخ للناخب وتوجهه إلى حيث تريد من خلال التأثير على أفكاره ورؤاه .

والجماهير بعد تزييف وعيها تصبح كائنا انفعاليا غير منطقى يميل إلى التحيز على أساس عاطفى وحماسى، ويميل إلى الإندفاع فى الإتجاه الذى يحدده له من قاموا بتزييف وعيه . وهذا السلوك الجماهيرى يستمر على هذا النحو إلى أن تكتشف الجماهير أنها قد غرر بها أو خدعت، وحينئذ يتغير مسارها وتنقض بلا رحمة على من غرروا بها أو خدعوها، وقد يحدث هذا التحول بسبب كارثة كبرى تقع (هزيمة عسكرية ساحقة أو انهيار اقتصادى يهدد لقمة العيش) أو بسبب تراكم جرعات الوعى التى يبثها بعض المصلحون من أبناء الشعب .

الخصائص العامة للجماهير العربية:

١ - السلبية:

ربما يدهش بعض المراقبين تلك السلبية الشعبية غير المسبوقة تجاه الأحداث الساخنة، والحقيقة أن هذه السلبية ليست حالة طبيعية وإنما هى نتيجة جهود حثيثة عملت على مدى سنوات طويلة على خلق حالة من السلبية الفردية وإعلاء قيم المصلحة الذاتية، وإعاقة أى بادرة للتجميع أو الفعل، والهدف فى النهاية هو التأكيد على بقاء الوضع القائم برضا الجميع .

وقد تحدثنا للتو عن تأثير أجهزة التليفزيون والكومبيوتر على الوعى العام، وهنا سنزيد من رؤية هذا التأثير بطريقة كمية ونوعية، فلو حسبنا الساعات التى يقضيها الناس أمام هذه الأجهزة لوجدناها بالملايين، أى أن هناك ملايين الناس يقضون ملايين الساعات أمام الشاشة وليس لديهم أية رغبة فى مغادرة غرف النوم حيث تقبع هذه الشاشة اللذيذة . والأمر لا يقتصر على استهلاك طاقة ملايين الأجساد وإنما يمتد إلى عقولهم، فكثير من البرامج تقتل ملكة التفكير النقدى وتدع الشخص فى حالة تلقى سلبى لكل ما يراه على الشاشة أو معظمه فهو مستلق على ظهره يشاهد برامج مبلدة للعقول ومخدرة للتفكير النقدى الواعى ومحشوة بالتفكير الخرافى أو الإستهلاكى وقاتلة لأى قدرة على الفعل الإجتماعى الجاد والمؤثر . وهذا النوع من المشاهدة

السلبية يعود المشاهد على أن دوره لا يتعدى حالة المشاهدة فهو كل يوم يرى فى نشرات الأخبار من يقتلون أو يدمرون أو يزورون وهو لا يبرح مكانه أمام الشاشة وفى غرفة نومه ومن هنا تتكون لديه عادة الإكتفاء بالمشاهدة وفى أقصى تقدير التحسر على ما يحدث والدعاء على من يفعلون والغضب ممن يسكتون وفقط . وربما يفسر لنا هذا سلبية الناس أمام أحداث كانت تحركهم لأقصى درجات التحريك فمثلا حدثت حالات اغتصاب أو محاولات اغتصاب فى بعض الميادين العامة دون أن يحدث التدخل الشعبى المتوقع، وحدثت عمليات قتل وبلطجة فى كثير من الأحداث دون أن تكون هناك استجابة مكافئة لذلك وكأن الناس تعودوا على المشاهدة دون الفعل من خلال ملايين ساعات المشاهدة التليفزيونية أو الكومبيوترية .

وما يتبقى من الوعى يتم تسكينه أو تخديره بواسطة السينما أو الإذاعة أو الصحف أو المباريات الرياضية أو الإنتخابات الشكلية أو الحوارات الإلهائية أو الوعود الزئبقية، وكلها تساهم فى امتصاص طاقة رد الفعل الإنسانى . وقد يقول قائل إن هذا تجن على وسائل الإعلام والوسائط التكنولوجية الحديثة، فهى وسائل تنوير وإيقاظ للوعى وتحريك للمشاعر ودفع نحو التغيير، وهذا صحيح ولكن فى حدود ضيقة تجعل هذه التأثيرات الإيجابية فى حكم الإستثناءات فى كثير من دول العالم خاصة دول العالم الثالث التى تبقى يقظة للحيلولة دون تجاوز البرامج الجادة حد الخطورة أو التأثير، فهى لا تمانع فى وجود بعضا من هذه البرامج الموقظة للوعى أو الكاشفة للحقيقة ولكن فى حدود تجعلها مجرد تزيين للصورة العامة ودرء للإتهام بالتزييف الشامل، وتحسين الصورة فى الخارج والداخل، مع الإبقاء على التفوق النوعى والكمى لبرامج وفعاليات غسيل العقول وتخدير الهمم وتزييف الوعى والحيلولة دون انتصاب الفعل الإنسانى فى اتجاهات التغيير الحقيقى. فالناس تعرف الكثير عن نجوم الكرة ونجوم الغناء وفاتنات السينما وملكات الجمال ومواعيد المسلسلات ومفتى الفضائيات أكثر مما يعرفون عن زعماء الإصلاح وجماعات الضغط من أجل التغيير .

ولا يغيب استعمال الدين فى عمليات التخدير هذه من خلال برامج دينية تكرس للتفكير الخرافى وتكرس للإعتمادية السلبية من خلال مفتون يشغلون الناس بقضايا هامشية ومشاهدون وطالبى فتاوى وتفسير أحلام أدمنوا التلقى السلبى والإعتمادية الطفلية الساذجة على ما يقوله المفتون، ونسوا تماما استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك فقد باعوا قلوبهم وعقولهم لنجوم الإفتاء كما باعوها قبل ذلك لنجوم الكرة والفن .

ويتعلم الناس مزيدا من السلبية من خلال انتخابات تزور إرادتهم ومن خلال بقاء أوضاع يرفضونها لسنوات طويلة ومن خلال إجهاض المحاولات التغييرية أو الإصلاحية المتكررة أو من خلال فشل الحملات الصحفية الكاشفة للفساد والعوار ثم فشل كل هذه المحاولات فى إحداث أى تغيير ملموس، أو من خلال الملاحقات الأمنية المستمرة والضاغطة، كل هذا يحمل الجماهير على الرضوخ للأمر الواقع والإعتقاد فى أن الوضع الراهن قدر لا يمكن تغييره إلا بقدر آخر لا دخل لهم فيه .

٢ - القابلية للإيحاء والإستهواء والإستلاب:

هذه إحدى الخصائص الهامة فى الجماهير خاصة حين يتدنى مستواها التعليمى والثقافى فتصبح فريسة لأى شخصية قادرة على اللعب على مشاعرها وتصوراتها واحتياجاتها فتندفع بلا عقل إلى التصديق والإتباع دون تثبت أو تحقق ويساعد على ذلك غريزة القطيع التى تشكل نوعا من الضغط الجماعى على الناس فيندفعون إلى اتجاه معين لا لشئ إلا لأن غيرهم مندفعين أو مساقين إلى نفس الإتجاه . وهذه الخاصية يلعب عليها كثيرا السياسيون أصحاب الشخصيات الكاريزمية حيث يمتلكون القدرة على إلهاب حماس الجماهير وتوجيههم إلى حيث يريدون، وفعلا تستجيب تلك الجماهير وهى مغمضة الأعين وتسلم قيادها إلى من تثق به ثقة عمياء دون أن تسأل إلى أين ؟ . وفى انتخابات العالم الثالث غالبا لا تطرح برامج حقيقية للمرشحين وإنما ترفع شعارات رنانة تحرك المشاعر ولا تقنع العقول فالعقول هنا لا تعمل ولا تفند أو تنتقد . ويلعب الإعلام

الموجه دورا كبيرا فى تسهيل عمليات الإيحاء والإستلاب والإستهواء للجماهير الجاهلة الغريرة، وكأن الإعلام هنا يقوم بالدور الذى قام به من قبل سحرة فرعون، فهم يسحرون أعين الناس ويزيفون وعيهم ويحتلون إدراكهم ويوجهونه لخدمة مصالح معينة بعيدة غالبا عن مصالح الجماهير المخدوعة . ويستطيع الإعلام أن يقوم بهذا الدور حتى فى الدول الديموقراطية حيث يستغل أدواته المؤثرة فى صياغة الرأى العام وصناعته والتأثير فى خيارات الناخب وتوجهاته من خلال الإلحاح والتزييف وتسليط الأضواء على أشياء بعينها وإطفاء الأضواء فى مناطق ومساحات أخرى بهدف خلق الصورة المطلوبة لتزييف الوعى وتوجيه الإرادة.

ولا ينجو من هذا التأثير إلا قلة من المثقفين المستنيرين الذين يحتفظون بقدرتهم على الرؤية من خارج إطار القطيع ولديهم القدرة على الإحتفاظ بإدراكهم دون تلوث أوتشويه أو تزييف ولديهم القدرة على التفكير النقدى وتنبيه الجماهير الساذجة المخدوعة . ولهذا يتعرض هؤلاء لمصاعب كثيرة خاصة فى النظم الإستبدادية فتلفق لهم القضايا ويزج بهم فى السجون ويستبعدون من مواقع التأثير .

٣ - أخلاق العبيد :

حين يعيش شعب من الشعوب تحت أنظمة استبدادية لفترات طويلة فى تاريخه دون أن يتمكن من تغيير هذه الأنظمة فإن أفراد هذا الشعب يكتسبون صفات العبيد، فيتعاملون مع كل صاحب سلطة بالخضوع والخنوع والإستسلام، ويرون أنهم غير جديرين بالحياة الكريمة، ويرضون بالفتات الذى يلقى إليهم من يد السيد صاحب السلطة والسطوة . وشيئا فشيئا تذوب الكرامة وتنمحى النخوة والعزة والرجولة وتسود صفات الإنتهازية والنذالة والجبن والتسول المهين، وينطبق على الناس فى هذه الحالة ما قاله الشاعر :

خمسون عاما أنحنى

مذ كنت يوما سيدى طفلا رضيعا

واليـوم تأمـرنى لأرفع هامـتى

فبكل أسفى سيدى لا أستطيعا

٤ - السادوماسوشية:

ومع الوقت يتعود الناس على القهر والإذلال ، بل ويصبح مطلبا نفسيا لهم، إذ يستعذبون الشعور بالظلم وخاصة حين تسود ثقافة «يا بخت من بات مظلوم ولا بات ظالم» فالناس حينئذ ينقسمون إلى ظالم ومظلوم، فيختار أغلبهم موقع المظلوم الذى ينتظر إنصافه فى الآخرة من الظالم، وهذه هى بذور الماسوشية فى سلوك الجماهير . وعلى الرغم من هذا الخضوع الماسوشى من الجماهير تجاه كل من يملك سلطة عليهم إلا أننا نجد فى المقابل حالة من السادية تجاه من هو تحتهم، بمعنى أننا نجد الموظف يقبل حذاء رئيسه فى العمل، ثم حين يتعامل مع بقية الناس من الجمهور الذى يتردد عليه لقضاء مصالحه نجده يذيقهم أشد العذاب ويوقف مصالحهم ويذلهم ويبتزهم بوعى أو بغير وعى، وحين يذهب هذا الموظف إلى البيت إما أن تجده زوجا جبارا مستبدا أو تجده خاضعا مستسلما منسحبا وذلك طبقا لموازين القوى بينه وبين زوجته . أى أن الناس فى هذه الظروف المشوهة تتعامل بماسوشية (خضوع واستسلام وتلذذ بذلك) مع الأعلى وتتعامل بسادية (قهر وتعذيب واستغلال وتلذذ بذلك) مع الأدنى، وتغيب فى هذا الجو العلاقات السوية الناضجة بين أغلب الناس .

الكتلة الحرجة:

على الرغم من إمكانية خداع الجماهير واستلابها واستغلالها وقهرها، وربما يستمر هذا لفترات قد تطول إلا أن قوانين النفس وقوانين الجماعات تؤدى لا محالة إلى حالة من اليقظة والإفاقة تؤدى إلى غضبة الجماهير، وهى حين تغضب تتحرك كديناصور ضخم يفيق من نومه شيئا فشيئا وتبدو حركته بطيئة فى البداية ثم يتجه إلى من أذاه فيدهسه بلا رحمة وربما دمر أشياء أخرى كثيرة فى طريقه . وهذه الهبّة الجماهيرية وما يتبعها من حركة فى اتجاه التغيير تحتاج لتجمع إرادة نسبة معينة من

الناس فى اتجاه واحد، وهذا ما يسمى بالكتلة الحرجة، وهذه الكتلة الحرجة يمكن أن تتكون بإحدى طريقتين :

١- **التراكم**: وذلك بالزيادة الكمية على فترات طويلة نسبيا من الزمن حتى تصل إلى مستوى يؤدى حتما إلى التغيير .

٢- **الطفرة**: وتحدث حين تستفز مشاعر الجماهير بشكل مؤثر ومفاجئ خاصة فيما يمس لقمة عيشها أو مشاعرها الدينية أو كرامتها الوطنية .

ولهذا تعمل الأنظمة (الإستبدادية بوجه خاص) على منع تكون الكتلة الجماهيرية الحرجة وذلك من خلال بعض أو كل الآليات التالية :

١- **التفتيت**: وذلك بتجريم التجمعات وسلب حق التظاهر أو اشتراط تصريحات يصعب الحصول عليها، أو التفجير من الداخل بواسطة العملاء المندسين فى أحزاب المعارضة أو فى التجمعات الجماهيرية خاصة الطلاب والعمال لتفجيرها وقت اللزوم من خلال إثارة الخلافات والصراعات .

٢- **الإجهاض**: ويتم من خلال المتابعة الدقيقة واللصيقة لأى بادرة تجمع جماهيرى أو إثارة من أى شخص أو جماعة فيتم إجهاضها قبل أن تبلغ مرادها . ومع تكرار عمليات الإجهاض تسود لدى قوى التغيير حالة من اليأس والإحباط، فإما أن ينصرفوا عما هم فيه وإما أن يتجهوا إلى العمل السرى أو العنف وبهذا يعطوا مبررات لاجتثاثهم بدعاوى جنائية تحرمهم من شرف البطولة الشعبية .

٣- **الترغيب والترهيب**: حيث يتم احتواء بعض القيادات المؤثرة من خلال الإغراء بالمناصب أو المكاسب أو المكانة الإجتماعية، ومن لا تنجح معه هذه الوسائل تكفيه العصا الغليظة تهوى على رأسه فتردعه وتردع غيره ممن تساورهم أنفسهم بالتفكير فيما فكر هو فيه .

٤- **الرقابة**: وهى عين ساهرة ترصد بدقة أى بادرة تفكير أو نية تغيير فتتعامل

معها بأى طريقة من الطرق السابقة . والرقابة تستدعى عيونا فى كل مكان لرصد أفكار واتجاهات ومشاعر الجماهير، وقد تتم من خلال أفراد سريين أو من خلال أجهزة وتنظيمات أو من خلال مؤسسات شبه علمية .

٥- الإبعاد : وهو طريقة للحفاظ على مراكز الرأى والتأثير خالية من أى بادرة تفكير أو تغيير لا يخدم المصالح القائمة، فتوضع اشتراطات ولوائح معينة تحول دون وصول المعارضين للمراكز أو المناصب المؤثرة . وفى بعض الدول التى تقوم على النظام الطائفى يوضع فى الإعتبار أن مستويات معينة من الوظائف لا يتقلدها أبناء طائفة معينة حتى تظل السيطرة فى يد الطائفة الأكثر سيطرة .

سلوك الحشد :

اهتم علماء النفس بسلوك البشر حين يتجمعون فى أعداد كبيرة حيث اتضح اختلاف سلوكهم فى هذه الحالة عن سلوكهم فى حالاتهم الفردية، وكأن الحشد (التجمع) يأخذ أبعادا نفسية تتجاوز مجموع اتجاهات وآراء الأشخاص منفردين، وكأن تغيرا نوعيا يطرأ يساعد على خروج أفكار ومشاعر لم تكن متاحة لوعى الفرد فى حالته الفردية أو فى التجمعات الصغيرة (عدة أفراد)، وهذه هى خطورة سلوك الحشد، وهذا هو السبب وراء حرص السلطة (أى سلطة) على تجنب المواقف الحاشدة للجماهير خاصة حين تكون غاضبة أو تكون ممنوعة من التعبير لفترات طويلة حيث تصبح إمكانات الإنفجار المدمر أكثر احتمالا . ويصف جوستاف لوبون الجماهير فى حالة احتشادها وانفعالها واندفاعها وغضبها بأنها أبعد ماتكون عن التفكير العقلانى المنطقى، وكما أن روح الفرد تخضع لتحريضات المنوم المغناطيسى الذى يجعل شخصا ما يغطس فى النوم فإن روح الجماهير تخضع لتحريضات وإيعازات أحد المحركين أو القادة الذى يعرف كيف يفرض إرادته عليها، وفى مثل هذه الحالة من الإرتعاد والذعر فإن كل شخص منخرط فى الجمهور يبتدئ بتنفيذ الأعمال الإستثنائية التى ما كان مستعدا إطلاقا لتنفيذها لو كان فى حالته الفردية الواعية والمتعقلة .

فالقائد أو الزعيم إذ يستخدم الصور الموحية والشعارات البهيجة بدلا من الأفكار المنطقية والواقعية يستملك روح الجماهير . ويمكن تفسير سلوك الحشد على أنه خروج للمشاعر المكبوتة بعد إزالة عوامل الكبت والقمع مع الإحساس بالأمان فى وسط المجموع ومع هدير أصوات الشعارات الجماعية وبتيسير من قائد يعرف ما يعتمل بطبقات الوعى الأعمق للجماهير فيناديها ويحركها، أى أن القائد الجماهيرى هنا لا يستلب الجماهير ولا ينشئ موقفا جديدا وإنما ييسر خروج مشاعر مكبوتة لديهم ويوجهها إلى حيث يريد بموافقة الجماهير . وفى حالات التجمع والحشد يتكون ما يسمى بالجمهور النفسى، وهو كيان نفسى اجتماعى مؤقت يقوم بدور مطلوب من قبل هذا الكيان . ويصف لوبون هذا الجمهور النفسى بقوله : الظاهرة التى تدهشنا أكثر فى الجمهور النفسى هى التالية : أيا تكن نوعية الأفراد الذين يشكلونه وأيا يكن نمط حياتهم متشابها أو مختلفا، وكذلك اهتماماتهم ومزاجهم أو ذكاءهم فإن مجرد تحولهم إلى جمهور يزودهم بنوع من الروح الجماعية، وهذه الروح تجعلهم يحسون ويفكرون ويتحركون بطريقة مختلفة تماما عن الطريقة التى كان سيحس بها ويفكر ويتحرك كل فرد منهم لو كان معزولا، وبعض الأفكار والعواطف لا تنبثق أو لا تتحول إلى فعل إلا لدى الأفراد المنضوين فى صفوف الجماهير ... إن الجمهور النفسى هو عبارة عن كائن مؤقت مؤلف من عناصر متنافرة ولكنهم متراصوا الصفوف للحظة من الزمن، إنهم يشبهون بالضبط خلايا الجسد الحى التى تشكل عن طريق تجمعها وتوحدها كائنا جديدا يتحلى بخصائص جديدة مختلفة جدا عن الخصائص التى تملكها كل خلية ..... وفى حالة الذوبان هذه يحدث تلاشى الشخصية الواعية، وهيمنة الشخصية اللاواعية، وتوجه الجميع ضمن نفس الخط بواسطة التحريض والعدوى للعواطف والأفكار، والميل إلى تحويل الأفكار المحرض عليها إلى فعل وممارسة مباشرة، وهكذا لا يعود الفرد هو نفسه، وإنما يصبح عبارة عن إنسان آلى ما عادت إرادته بقادرة على أن تقوده .... ولذلك يرى لوبون «أن الجمهور دائما أدنى مرتبة من الإنسان الفرد، فيما يخص الناحية العقلية الفكرية، ولكن من وجهة نظر العواطف والأعمال التى

تثيرها هذه العواطف فإنه يمكن لهذا الجمهور أن يسير نحو الأفضل أو نحو الأسوأ – وكل شئ يعتمد على الطريقة التى يتم تحريضه أو تحريكه بها، . والسلطة تعرف بفطرتها كما تعرف بمفكريها وعلمائها كل هذه الحقائق عن سيكولوجية الحشد وطبيعة الجماهير أثناء المظاهرات أو التجمعات الهائلة لذلك تحول قدر الإمكان دون تكون هذا الكائن الخطر، وإذا حدث وتكون فإنها تحاول حرمانه من قائد يوجه حركته ضدها، أو تدفع هى بقائد يوجه حركة الجمهور فى صالحها، أو تحاول تملق هذه الجماهير بإظهار احترامها وتقديرها (فى الوقت الذى تنظر فيه السلطة إلى الجماهير بأنها لا عقلانية ولا منطقية وكأنها تتعامل مع طفل صغير تريد استرضاءه حتى يهدأ ثم تفعل هى ماتشاء بعد ذلك)، وفى حالة السلطة الطاغية المستبدة يكون الحل هو قمع هذه الجماهير أو تفريقها بقوات الشرطة وإذا استدعى الأمر قوات الجيش، وقد تفشل هذه الجهود أو تنجح بناءا على موازين القوى بين السلطة والجماهير والتى كثيرا ما تتغير بتعاطف أو انضمام قطاعات من السلطة إلى صفوف الجماهير خاصة حين تكتشف تلك القطاعات أن فردا يريد استخدامها لسحق الجماهير لصالحه وأنه لا يدرك عواقب ما يفعله، خاصة وأن قوى الشرطة والجيش فى لحظات حرجة فى المواجهة تتذكر أنها منتمية إلى هذه الجماهير انتماء قرابة وانتماء مصير، وهنا تتمرد على رأس السلطة (خاصة إذا كان فردا) وتنحاز إلى الجماهير فتنقلب موازين القوى بسرعة وتنتصر إرادة الجماهير .

وفى وسط الحشد يشعر الفرد بالأمان لأنه الآن جزء من كيان ضخم يصعب عقابه أو مساءلته، ويتمركز الشخص حول هذا الكيان الضخم أكثر من تمركزه حول ذاته، ويضعف التزامه بالقيود السياسية أو الإجتماعية أو الأمنية أو الأخلاقية، ويتوحد مع الجموع الهائجة فى حركة أقرب ما تكون إلى حركة القطيع، وتصبح العواطف الملتهبة هنا هى سيدة الموقف فتتحرك الجموع بمشاعر الحرمان أو الرغبة أو الظلم أو القمع أو الإحباط أو الغضب .

وسلوك الحشد من الناحية النفسية أشبه ما يكون بالهستيريا الجماعية حيث يبدأ الحشد بفرد أو مجموعة من الأفراد يظهرون حماسا معينا بشكل مؤثر فينتقل هذا الحماس بما يشبه العدوى إلى الأفراد المحيطين بهم ثم تتسع دائرة العدوى بسرعة تتوقف على قدرة المحركين للحماس وعلى الحالة الإنفعالية لبقية الجموع وكل هذا يحدث بشكل غير واع . ولكى يحدث هذا لابد من وجود أرضية مشتركة تدعم انتقال هذا الحماس وتصاعده بشكل تلقائى وسريع، كأن يكون تحمسا وحبا لفريق كرة معين أو كرها وغضبا تجاه شخص أو نظام معين، أو استجابة لشائعة أو فكرة تجد لها فى اللاوعى مقابلا يدعمها، كل هذا يوفر أرضية مشتركة للتحرك الجماعى غير الواعى والذى يفجر طاقات طال كبتها فى اللاوعى الفردى والجمعى على السواء .

وسلوك الحشد لا يقتصر على المواقف السياسية التى نراها فى المظاهرات، وإنما نراه أيضا فى مباريات كرة القدم حيث تندفع الجماهير فى حماس طاغ نحو تأييد فريق معين أو الغضب من قرار الحكم فينفلت عيارها وتندفع فى خطورة بلا ضابط أو رادع، وقد يؤدى ذلك إلى كارثة يموت فيها الكثيرون أو يصابون .

ومثال آخر لسلوك الحشد حدث فى وسط القاهرة فى شارعى عدلى وطلعت حرب وأمام سينما مترو حين حضرت إحدى الراقصات لترقص أمام السينما ترويجا لفيلمها، واندمجت فى الرقص وظهرت ملابسها الداخلية المثيرة وسط حماس الشباب الهائج فاستدعى ذلك من ذاكرتهم صورا ومشاهد أكثر عرى للراقصة واستدعى بعضهم أو أكثرهم مشاهد تسربت عبر اسطوانات كومبيوتر تصور الراقصة فى أوضاع جنسية، إضافة إلى ذلك كان هناك مطرب شعبى مبتدئ دخل عالم الشهرة من خلال أغنية تتحدث عن العنب لتسقط عليه تلميحات وتصريحات جنسية فاضحة ومثيرة، كل هذا فى أول أيام عيد الفطر عام ٢٠٠٦ حيث يتناول بعض الشباب أنواعا من المخدرات والمسكرات تساعد على إذابة ضمائرهم وانفلات رغباتهم وغرائزهم وهنا انطلقت الجموع الهائجة من الشباب فى حالة سعار جنسى غير مسبوق فى وسط

مدينة القاهرة تحت سمع وبصر الناس والأمن وكان الجميع فى دهشة ربما لتسارع الأحداث واختلاط الحابل بالنابل، كل هذا حدث على الرغم مما هو معروف عن المجتمع المصرى أنه مجتمع متدين ومحافظ، وذلك دليل على أن هناك شئ ما كان يجرى تحت السطح مفاده أن هناك أعدادا هائلة من الشباب تعانى كبتا وجوعا جنسيا ولا تجد منصرفا لذلك بل تجد استثارة مستمرة لكل ذلك عبر الفضائيات ومواقع الإنترنت، كل هذا تفجر فى لحظة معينة وفى ظروف معينة فتحولت أعداد غفيرة من الشباب (الذى ربما يبدو كل منهم بمفرده مؤدبا وملتزما بالدين والأخلاق والعرف والتقاليد) إلى حيوان يبحث عن إشباع شهواته خاصة حين تيقن من غياب أو ضعف الضابط الأمنى والإجتماعى فى هذا السياق .

مراجع الباب الثانى

-جوستاف لوبون . سيكولوجية الجماهير . ترجمة هاشم صالح، الطبعة ١٩، دار الساقى، بيروت، ١٩٩١

– سالم القمودى (١٩٩٩ م) . سيكولوجية السلطة (بحث فى الخصائص النفسية المشتركة للسلطة) . الطبعة الأولى، مكتبة مدبولى، القاهرة .

– عزالدين العلام (٢٠٠٦) . الآداب السلطانية . عالم المعرفة، ٣٢٤ الكويت .

– هربرت شيللر (١٩٩٩) . المتلاعبون بالعقول . ترجمة عبدالسلام رضوان، عالم المعرفة ٢٤٣، الكويت .

الباب الثالث

(سيكولوجية المعارضة)

سيكولوجية المعارضة

إشكاليات التعريف والإيحاءات:

حاولت كثيرا أن أسأل معارفى وأصدقائى وغيرهم ممن ألقاهم مصادفة (على اختلاف توجهاتهم وثقافتهم) عن إيحاءات كلمة معارضة، وكانت الردود تدور حول المخالفة والإختلاف، والمشاغبة والمشاكسة، وحب الشهرة، والمظاهرات والعنف والإعتقالات، وقلب أنظمة الحكم، والخيانة، والمحاكم العسكرية، والمقالات العنيفة فى الصحف، والخروج على النظام العام، والقلة المارقة، وشق الصف، وتكدير الصفو العام، والصراع على السلطة، ومحاولة إثبات الذات بالإختلاف (خالف تعرف .. أو تضرب)، والخروج على الصف، والناس المغامرين، والمتهورين .... إلخ، ومن الملاحظ أن أغلب التعبيرات تدور حول معان سلبية (مع استثناءات قليلة) وكأنها استخدامات عصرية لنفس مقولة فرعون إنهم شرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون، ووصف الحكام المستبدين فى المراحل التاريخية المختلفة لمعارضيهم بأنهم قلة مارقة، وهذا يعكس سلبية مفهوم المعارضة أو تشويهه أو اختزاله فى الثقافة العربية، وربما يستغل البعض هذا المفهوم السلبى أو المختزل أو المشوه لعزل المعارضة فى كنتونات صغيرة غير فاعلة، ووصمها بالتهور وعدم المسئولية والنزق والطمع والإنحراف. ويبدو أن هناك مشكلة تاريخية لنا مع المعارضة فعلى مدار التاريخ كان ينظر إليها على أنها حركات مارقة أو أصوات نشاذ أو خروج على الإجماع، أو خراف ضالة تخرج عن القطيع فيأكلها الذئب، وهذا موقف ربما يحتاج لسنوات كى يتم تعديله فى الوعى العام.

فإذا جئنا إلى مفهوم المعارضة من الناحية النفسية والعلمية والحياتية فإننا نجد أن المعارضة تعنى رفضا كاملا لإدارة السلطة إذا ما كانت هذه السلطة غير شرعية، فهى لا ترضى منها بأى شئ وتسعى لزعزعتها من الأساس لكونها غير شرعية، ولا ترضى من هذه السلطة بأى تعديل حتى ولو كان بعضه إيجابيا، فغياب الشرعية هنا

عن السلطة يجعل المعارضة فى حالة رفض مطلق لا يقبل التفاهم، وهنا تكون المعارضة والسلطة فى حالة استقطاب وصراع شديد لأن كل منهما يسعى لاجتثاث الآخر من جذوره وتصفيته نهائيا، أى أن العلاقة هنا علاقة استعبادية واستبدادية واستبعادية من جانب السلطة وعلاقة رفضية اجتثاثية من جانب المعارضة، وهذا أسوأ نموذج للعلاقة بين السلطة والمعارضة ولا يستبعد فيه العنف بكل أشكاله، ويدفع المجتمع ثمنا باهظا جراء هذه العلاقة وذاك الصراع .

أما إذا كانت السلطة شرعية فإن المعارضة هنا تعنى رفضا لكيفية ما لتنفيذ إدارة السلطة أو سعيا إلى تحوير أو تعديل الكيفيات والوسائل التى تتم بها تلك الإدارة، والعلاقة هنا بين السلطة والمعارضة تكون منطقية وموضوعية، ومنضبطة بقواعد اللعبة السياسية القائمة على مبدأ التعددية وتداول السلطة بطريقة سلمية شفافة من خلال صناديق الإنتخابات، وبدلا من أن تتصارع السلطة والمعارضة لتصفية بعضهما البعض (كما فى النموذج السابق) نجد أن كلا من السلطة والمعارضة يتوجهان إلى المواطن (صاحب المصلحة الحقيقى) لإقناعه بما يريد كل منهما على أمل الحصول على ثقته فى أقرب انتخابات تصعد بهذا أو ذاك إلى موقع السلطة (المؤقتة بالضرورة) وليس إلى سدّة الحكم (كلمة سدّة هذه تعطى إيحاءات بسد الطريق على أى تيار آخر لتبادل السلطة ولهذا يكثر استخدامه فى العالم العربى لأسباب مفهومة) .
وقد تستهجن المعارضة بناءا على تصور دينى يفترض السمع والطاعة لولى الأمر حتى ولو كان فاسقا ما دام لم يمنع الناس من الصلاة (كما هو المعتقد لدى طائفة من علماء الدين يدعمهم أو يدفعهم الحكام المستبدين لترسيخ هذه المفاهيم على أساس أن الفتنة الناتجة عن الخروج على الحاكم المستبد أشد خطرا من الإستبداد فى رأيهم أو رأى المستبد الذى يستثمر هذا الموقف فيعيس فى الأرض فسادا واستبدادا، ثم تحدث الفتنة بعد ذلك كنتيجة طبيعية للفساد والإستبداد فيدفع الناس ثمن الفتنة مضافا إلى ضريبة الفساد والإستبداد)، أو ينظر إلى المعارضة على أنها خروج على إجماع الأمة،

أو يقرن بينها وبين مجموعات نالتها وصمة المروق الدينى أو السياسى أو الإثنين معا كالخوارج والمعتزلة والفرق الضالة أو المارقة . ونجد أن المستبدين على مدار التاريخ العربى يحبون أن تترسخ هذه المعانى لدى الناس فينظرون بريبة إلى كل مخالف أو معارض، ويستحضرون فى وعيهم بشكل تلقائى كل سمات المروق والعصيان والتمرد والفتنة .

المعارضة داخل النفس:

يقول هنرى مرى فى وصفه للمنظومة النفسية داخل الشخصية : الشخصية أشبه بمؤتمر كامل يضم عددا كبيرا من الأفراد، منهم الخطباء وجماعات الضغط والأطفال، ومنهم الغوغائيون والشيوعيون والإنعزاليون وتجار الحروب، وفيهم المستقل والمحافظ ومبتز الأموال ومقايض الأصوات، وبينهم أشباه قيصر والمسيح وميكيافيلى ويهوذا وبروميثيوس الثورى .

فمن المعروف أن النفس ليست شيئا واحدا وإنما هى عدة كيانات تتناغم أو تتصادم أو تتكامل مع بعضها، وحصيلة تفاعل هذه الكيانات هو الذى يحدد حالة الصحة النفسية من عدمها، وقد اختلفت تسمية هذه الكيانات من مدرسة لأخرى، ففى مدرسة التحليل النفسى نجد الهو (الجزء من الشخصية الملئ بالرغبات الجنسية والعدوانية غير المقبولة اجتماعيا)، والأنا الأعلى (الجزء من الشخصية الذى يحتوى على القانون الدينى والأخلاقى ويهتم بموضوعات الحرام والحلال والصحيح والخطأ من المنظور الأخلاقى)، وبين هذين الكيانين المتباعدين يوجد الأنا (وهو الجزء الموضوعى المحايد فى الشخصية فهو يهتم بالحقائق الموضوعية ويركز على الجوانب الواقعية وعلى حسابات المكسب والخسارة، ويقوم بالتوفيق بين رغبات الأنا المندفعة والخطرة والمرفوضة اجتماعيا وبين احتياجات الأنا الأعلى وواقع المجتمع، أى أنه يشكل عامل التوازن داخل الشخصية) . والتركيبة النفسية للشخصية تتوازن بوجود هذه الكيانات فى حالة توازن وتفاعل، فإذا طغت إحدى هذه الكيانات على الأخرى أو

استبعدتها أو أضعفتها هنا ينتج الإضطراب، فمثلا إذا طغى الهو وجدنا الشخص منفلتا نزويا عابثا أو عدوانيا، وإذا طغى الأنا الأعلى وجدناه متشددا متعصبا صارما متجهما مكبلا وكابتا لقوى النفس و وإذا طغى الأنا وجدنا الشخص يميل إلى الحلول الوسط ويتحول إلى شئ اشبه بالكومبيوتر لا حياة فيه ولا لون ولا طعم، وكأنه مجموعة حسابات وأرقام ليس إلا . أما إذا أتيحت الفرصة لهذه القوى والكيانات أن تعمل بتوازن وتكامل فنحن أمام شخصية متوازنة ومتعددة الأبعاد ذات لون وطعم مميز .

وفى مدرسة التحليل التفاعلاتى للعالم النفسى إريك برن نرى النفس تتكون من ثلاث كيانات هى الطفل والوالد والراشد، فذات الطفل تحوى الرغبة فى الحركة والإنطلاق والعفوية والإبداع، وذات الوالد تميل إلى الضبط والربط والإلتزام بالقواعد الدينية والأخلاقية، وذات الراشد تميل إلى الواقعية والموضوعية، ويحدث التوازن فى الشخصية من خلال تبادل الأدوار بين هذه الذوات المختلفة حسب ما تقتضيه المواقف والظروف، فإذا كنا فى عيد أو نزهة فإن ذات الطفل تنشط لتواكب ظروف الفرح والبهجة والإنطلاق، إما إذا كنا فى موقف تربوى فى المدرسة أو المسجد أو البيت فإن ذات الوالد تنشط لدى المربى، فإذا ذهبنا للعمل نحتاج ذات الراشد الموضوعية الواقعية لتضبط حركة الإنتاج بحسابات المكسب والخسارة، وهذه الذات -أى ذات الراشد - هى عامل التوازن فى الشخصية حيث تتسم بالنضج والتروى والقدرة على ضبط إيقاع الحياة بعيدا عن نزق الطفل وتحكمات الوالد .

وفى التصور الإسلامى هناك النفس الأمارة بالسوء (المشحونة بالرغبات والشهوات والمندفعة نحوها)، والنفس المطمئنة التى توازنت فيها القوى وتناغمت حركتها ورضيت عن الله ورضى عنها الله وأعطت للدنيا حجمها وحقها وللآخرة أيضا حجمها وحقها، وتطلعت إلى معالى الأمور وتنزهت عن الدنايا، وأخذت من الحلال ورضيت به وتعففت عن الحرام وعافته، ثم تأتى النفس اللوامة وهى نفس تتأرجح بين رغبات النفس الأمارة بالسوء واضطراباتها وبين رضا وسكينة النفس

المطمئنة . والإنسان تتناوبه تلك الأحوال من وقت لآخر وتتوقف صحته النفسية على قدرته على إدارة المنظومة الشخصية بين هذه القوى بعضها البعض، أما محاولات الإستبعاد أو الإلغاء أو التنكر لجزء من أجزاء الشخصية فإن نتيجته اضطرابا نفسيا بشكل أو بآخر لأن ثمة نوع من التوازن المطلوب بين القوى المختلفة يخلق تنوعا وانسجاما فى داخل النفس .

وهناك تصور للخريطة النفسية على أنها تتكون من ثلاث دوائر : دائرة المعرفة (تحوى الأفكار والنشاطات العقلية المجردة)، ودائرة العاطفة (تحوى المشاعر والوجدانات والإنفعالات)، ودائرة السلوك (تحوى كل أنواع السلوك من حركة وكلام) . ولكى يكون الإنسان صحيح نفسيا يجب أن نرى توازنا بين هذه الدوائر وتناغما وتبادلا للأدوار حسب الظروف والمواقف والملابسات، ففى المواقف العقلانية الذهنية نجد أن دائرة المعرفة تتولى قيادة الشخصية، وفى المواقف العاطفية تتراجع دائرة المعرفة بطواعية ومرونة وتترك المجال لدائرة العاطفة، أما حين يكون الكلام أو الحركة مطلوبان لذاتهما أو للتعبير عن دائرتى المعرفة والعاطفة فإن دائرة السلوك تتقدم لتقوم بالمهمة، وكل هذا يحدث فى توازن وتناغم ومرونة وسلام . أما إذا استبدت دائرة منهم – أيا كانت – بالظهور فإن ثمة اختزال يحدث فى الشخصية يجعلها ناقصة أو مبتورة أو مشوهة، وهنا يحدث المرض أو أحادية الرؤية أو الوجود، وهى أشياء عكس الفطرة التعددية فى النفس البشرية، فمثلا إذا استبدت دائرة المعرفة نجد أن الشخص عقلانيا مجردا أكثر من اللازم، لذلك يفقد مذاقه كإنسان متكامل، أما إذا طغت دائرة العاطفة فنجده حماسيا وانفعاليا أكثر من اللازم مما يجعله فى دائرة الإندفاع والتهور، أما إذا طغت دائرة السلوك فنجده يهتم بالكلام والطقوس والمظاهر الخارجية على حساب المعنى العميق وعلى حساب الوجدانات التى تعطى لونا وطعما للأشياء . وهكذا سنة الله فى النفس (كما هى فى الكون والحياة) أن تكون هناك قوى وكيانات مختلفة ومتعددة تتبادل الأدوار والقيادة والتوجيه والتأثير، وذلك يضمن

للحياة التناغم والسلام والإستقرار، أما فى حالة استبداد كيان واحد بالسيطرة على النفس فإن الكيانات الأخرى قد تضمر وتموت وتترك الكيان المستبد يأكل بعضه بعضا حتى يموت مثل خلايا السرطان الجامحة والطامعة، أو أن هذه الكيانات المستبعدة تكمن وتنتظر الفرصة للإنقضاض على الكيان المستبد وقهره، أو تحدث انشقاقات وتصدعات فى الشخصية من وقت لآخر تعبر عن أزمة داخلية لم تجد حلا تكامليا أو صيغة للتعايش بين قوى النفس المختلفة التى خلقها الله وشاء لها أن تؤدى وظائفها داخل المنظومة النفسية .

شرعية السلطة وشرعية المعارضة:

قد تقوم السلطة على شرعية دينية (الحكم بأمر الله أو بتفويض من الله كما يدّعى الحاكم)، أو على شرعية ثورية (مبنية على تخليص الشعب من سلطة استعمارية أو حاكم ظالم) أو على شرعية قبلية (أقوى القبائل شكيمة هى التى تحكم) أو على شرعية القوة(من يملك الجيش هو الذى يحكم) أو على شرعية دستورية (من خلال أحكام الدستور وصناديق الإنتخابات) ,أو على شرعية تلفيقية تزويرية (من خلال شكل دستورى مزيف وعن طريق انتخابات تم تزويرها) . والسلطة الشرعية الدستورية هى أكثر السلطات موضوعية وواقعية وتوازنا وأقربها لتحقيق السلام الإجتماعى والتوازن بين قوى الشعب المختلفة لأنها تسمح بالتعبير المتوازن لكل القوى والطوائف التى يتشكل منها المجتمع، أما بقية الشرعيات الأخرى فهى تفتقد لهذه الموضوعية وتفتقد لحالة التوازن ولقيمة العدل، ولذلك تجدها فى حالة توجس ويسيطر عليها الهاجس الأمنى بشكل دائم ,كالقطة الشرسة التى خطفت قطعة لحم وتعرف أن هناك من يطاردها، فتجد مبالغة فى إظهار القوة (عربات الأمن فى كل مكان تحمل جحافل الجنود المدججين بالسلاح) والبطش السلطوى (عمليات الإعتقال والتعذيب وانتهاك الأعراض.. وتعمد إظهار ذلك وشيوعه لدى الناس بصرف النظر عن ثمنه السياسى داخليا أو خارجيا)، وتجد توقفا تاما عن ممارسة السياسة بقوانينها ووسائلها

والإكتفاء بالضبط الأمنى والضغط الأمنى والتوجيه الأمنى، فالمفهوم السائد هنا عن الشعب أنه قطيع، والقطيع لا يساق إلا بالعصا .

أما شرعية المعارضة فتأتى من رغبة حقيقية لدى الناس فى تغيير السلطة (إذا كانت غير شرعية) أو تعديل كيفية ممارستها للسلطة (إذا كانت شرعية) . وعلى الرغم من أن المعارضة تتشكل من النخبة غالبا إلا أنها لكى تقوى وتنجح لابد وأن تكون معبرة عن أشواق واحتياجات قطاع مهم من الجماهير يشكلون الدعم والحماية لها من محاولات بطش السلطة . أما إذا كانت المعارضة تشكل فقط رؤية النخبة دون جذور جماهيرية فإن ذلك لا يمنحها شرعية مهما كان بريق أفكارها ومبادئها . وهذا يطرح سؤالا مهما : هل تبدأ المعارضة من القمة أم من القاعدة ؟ والجواب هو أن تفاعلا ما غير منظور يحدث بين القاعدة والقمة، فالقمة تستشعر رفضا معينا لبعض الأوضاع فتقوم هى ببلورة هذا الرفض وتنشيطه لدى القاعدة، ثم تشكل مسارات تستقبل فيها جهود القاعدة ومساهماتها وتقود العمل نحو إحداث ضغط على السلطة يكفى لأن تغير السلطة فى نفسها أو تتغير بالكامل . ولكى تحافظ المعارضة على شرعيتها فإنها مطالبة بأن تلتزم بقواعد اللعبة السياسية والإجتماعية وأن لا تستجيب لاستفزازات السلطة بهدف جرها إلى ممارسات غير شرعية وبالتالى تجد السلطة مبررا لتصفيتها، وهذه تكاد تكون أهم وسيلة تستخدمها السلطة لتصفية معارضيها وتجريدهم من شرعيتهم، وقد تلجأ إلى الكذب أو التلفيق أو تستغل أخطاء المعارضة أو تدفعها لارتكاب الأخطاء المبررة لاجتثاثها بدعوى خروجها على الشرعية .

والمعارضة فى حقيقتها ليست خروجا على الشرعية أو خيانة أو تآمرا أو عصيانا أو تمردا (كما تحب السلطة المستبدة أن تسميها أو تصفها) ، ولكنها فى الحقيقة جزء مهم من منظومة الشرعية، لا يحدث التوازن السياسى أو الإجتماعى بدونه، فالرأى لا تتضح قيمته وأهميته وصوابه من عدمه إلا بوجود الرأى الآخر الذى يعضده أو يفنده أو يعدله أو يعارضه، كل ذلك بعيدا عن التآمر أو الخيانة أو العصيان

أو العمل السرى الذى يعطى السلطة المستبدة وغير المستبدة الحق فى تصفية المعارضة أو قمعها أو تشويهها .

والمعارضة فى مفهومها السوى هى حوار بين كيان ناضج وكيان ناضج آخر يختلفان فى الرؤى والمفاهيم والممارسات ويتنافسان فى تقديم الأفضل للجماهير صاحبة المصلحة العليا، أما فى الأوضاع غير السوية، فإن العلاقة تكون بين سلطة والدية (تدعى ملكية الحق والحقيقة والتوجيه المطلق) ومعارضة تأخذ دور الطفل المتمرد الساخط المنفلت، والذى يعطى التبرير للسلطة الوالدية لقمعه (راجع نموذج مسرحيتى مدرسة المشاغبين والعيال كبرت لترى العلاقة – فى شكل كوميدى – بين سلطة والدية مستبدة وغير منطقية وبين ذات أو ذوات طفلية غير ناضجة تعطى للسلطة الوالدية المبرر للوصاية الدائمة عليها) .

وشرعية المعارضة تبدأ من البيت حيث يتربى الأولاد والبنات على أن لهم الحق فى إبداء آرائهم بحرية وبشكل بناء مع الإحتفاظ بواجب الإحترام للأبوين ككبار لهما تجربتهما وسلطتهما الأبوية، وينتقل هذا المبدأ إلى المدرسة فيستشار الطلاب فى الكثير من أمور العملية التعليمية دون انتقاص من حق المدرسين والمديرين والموجهين اصحاب العلم والخبرة، ويتصاعد هذا النموذج المحترم للرأى والرأى الآخر إلى كافة المؤسسات حتى يصل إلى المؤسسة السياسية فى صورته الناضجة الراشدة . وبدون ذلك النمو الطبيعى والتصاعد الهرمى الراسخ يصبح بناء المعارضة محاطا بالكثير من الشكوك، وهذا هو الوضع القائم فى مجتمعاتنا العربية، فالشعوب تتطمح إلى الحرية والتعددية والمساواة والعدل على المستوى السياسى الأعلى فى حين تفتقد كل هذه القيم على كل المستويات بدءا من الأسرة مرورا بالمدرسة والمسجد والكنيسة وأماكن العمل والمؤسسات والأحزاب الشكلية (فى حالة وجودها) والجماعات.

والنظم الإستبدادية قد تحرم مجموعات معارضة من الشرعية (من خلال حظر نشاطها أو تجريمه ووضعها تحت سيف القانون المدنى العادى أو قانون الطوارئ أو

القانون العسكرى) وبذلك تدفعها للعمل السرى الذى قد يتحول فى أى وقت إلى عنف وتمرد وعصيان، وقد يجر المجتمع إلى حالة صدام بين العنف والعنف المضاد، وصراع غير سلمى على السلطة يدفع المجتمع كله فيه ثمنا فادحا . وهذا ما يجعل مبدأ المعارضة الشرعية تحت مظلة الدستور (وليس مظلة السلطة ورؤيتها فقط) أساسا هاما فى استقرار المجتمعات . وقد ثبت عمليا أن المجتمعات التى أسست بناءها السياسى والإجتماعى على مشروعية السلطة والمعارضة هى المجتمعات الأكثر استقرارا والأكثر شفافية والأكثر عدلا والأقل فسادا، والعكس صحيح فى المجتمعات التى ترفض المعارضة أو تخونها أو تلجمها أو تسحقها .

دوافع المعارضة :

المعارضة من أجل المعارضة : ويلجأ لهذا النوع شخصيات معينة يمكننا تقسيمها إلى عدة أنواع :

١ - **الشخصية النرجسية :** وهو شخص محب لذاته ومعجب بها ويشعر أنه متفرد وأنه جدير بالشهرة والمكانة لذلك يسعى لنيلهما من خلال تبنى موقف معارض يمنحه تميزا وتفردا وتألقا .

٢ - **الشخصية الهستيرية :** يهتم صاحبها بالإستعراض وجذب الإهتمام والإثارة حتى ولو كلفه ذلك مواجهة المتاعب من سجن أو تشهير، فهو فى النهاية يحقق أهدافه من الشهرة وتسليط الأضواء

٣ - **الشخصية البارانوية :** وهى شخصية تشعر بالإضطهاد والظلم دائما وتميل إلى الشك وسوء الظن، وتكره السلطة – أى سلطة – وتقاومها باستماتة .

٤ - **الفئات المحبطة والمهمشة :** خاصة من الشباب الذين يفتقدون لفرص العمل وفرص الترقى فيصيبهم الإحباط والغضب من السلطة القائمة التى يشعرون أنها السبب فى معاناتهم، فيأخذون موقف المعارضة تعبيرا عن غضبهم وسخطهم وربما

بحثا عن فرصة لتحقيق ذواتهم المنسحقة أو المهمشة أو المستبعدة، فهم قد فشلوا فى تحقيق أحلامهم وفشلوا فى الإندماج فى المجتمع، ولم يبق أمامهم إلا تصدير إحباطاتهم وصراعاتهم إلى الخارج من خلال الإشتباك مع السلطة ورموزها ومؤسساتها بصرف النظر عن نتائج هذا الإشتباك .

والمعارضة فى هذه الحالات تكون سطحية وبدائية وغير ناضجة ومشتتة ويمكن شراءها أو ترويضها أو احتواءها أو ابتزازها من قبل السلطة .

المعارضة من أجل إسقاط السلطة :

وهذا النوع من المعارضة يجمع الساخطين والغاضبين من تيارات مختلفة فيعملون على حشد الجماهير لهدف واحد فقط وهو إسقاط السلطة التى يعتبرونها فى نظرهم غير شرعية أو ظالمة أو فاسدة، وهذا الهدف يستغرقهم تماما بحيث لا يفكرون فى احتمالات البدائل، وهل ستكون أفضل أم أسوأ من السلطة القائمة . والدافع الوحيد لهذه المعارضة هو الغضب والسخط على السلطة القائمة والرغبة فى تغييرها مهما كان البديل لها حتى ولو كان الشيطان نفسه فهو فى نظرهم أفضل من الوضع القائم .

المعارضة من أجل الإصلاح :

وهى لا تسعى إلى تغيير السلطة القائمة بقدر ما تسعى إلى تعديل وتطوير وتحسين أداءها من خلال ما تبديه من ملاحظات وانتقادات، ولكن هذا النوع من المعارضة قد يتحول إلى الرغبة فى إسقاط السلطة القائمة لكى يحل محلها فى حالة يأسه من تعديل مسارها أو إصلاح حالها .

المعارضة من أجل الوصول للحكم :

وهى معارضة لا تهتم بطبيعة النظام القائم وفساده أو صلاحه وإنما تهتم بكيفية الوصول إلى كرسى الحكم، ولهذا تتصيد الأخطاء للسلطة القائمة لإبعادها عن السلطة وتسلم مقاليد الحكم منها . وقد يكون الدافع لذلك براجماتيا أو قبليا أو طائفيا أو دينيا .

المعارضة من أجل التوازن والتكامل:

وهى وضع مثالى للمعارضة قد لا يوجد كثيرا فى الواقع، فهى تهتم بصلاح الأمور بصرف النظر عمن يديرها ولديها القدرة على احترام وتقدير إيجابيات السلطة فى الوقت الذى تنتقد فيه بموضوعية سلبياتها وأخطائها، وهى لا تنتقد فقط وإنما تطرح البدائل والحلول الواقعية مدفوعة بالحرص على المصلحة العامة . وهذه المعارضة تكون على درجة عالية من الفهم والإدراك وبالتالى يكون تأثيرها أقوى فى السلطة التى تعارضها وكذلك فى تشكيل الرأى العام للمجتمع الذى تنتمى إليه . والمعارضة التكاملية لديها المرونة والجاهزية للإنتقال من موقع المعارضة إلى موقع السلطة ثم العودة بعد ذلك إلى موقع المعارضة حسب ما تقتضيه المصلحة العامة وتوازنات القوى والمصالح .

المعارضة بين الهدم والبناء:

يقول جون كينيث فى كتابه تشريح السلطة (ترجمة عباس حكيم، ص ٩٩-١٠٠ ، دمشق ١٩٩٤) : قد لا يكون أمرا عاديا على الدوام أن يتبادر إلى ذهن الفرد بصورة فورية البحث عن وسائل مقاومة السلطة التى لا يرغبها، وكيف يتمكن من حلها وتفكيكها – يعلن بأن ممارستها غير ملائمة وغير شرعية وغير دستورية، وظالمة أو شريرة، ويجب أن يتم لجمها، أو منعها من الممارسة، فالحكومة متسلطة جدا، ولهذا يجب أن تكون أقل حجما وأقل تدخلا فى شئون المواطنين، وأقل هيمنة – أى أن شيئا ما لابد من فعله كى تخف سيطرتها .. هذا ما يبدو أنه رد الفعل الأول المنطقى على السلطة . أى أن المرء يسعى إلى أن يحد من ممارستها، أو يمنعها كلية، ومع هذا فليس ذلك هو الرد الذى يلجأ إليه الناس عموما على الصعيد العملى، كما أنه ليس الرد الذى يجده المقاومون للسلطة أجدى من غيره، إنما الرد الفعّال والأكثر تداولا على ممارسات سلطة غير مقبولة هو العمل لإنشاء موقف مضاد لها .

ومن هنا نفهم بأنه ليس كافيا أن تنتقد المعارضة السلطة وممارساتها ورموزها ليل نهار، ولكن لا بد من أن يكون لدى المعارضة تصورا بديلا يغطى كافة أو أغلب

العناصر التى يحتاجها الناس لقيام حياتهم، فالناس بطبيعتهم يخشون التغيير خاصة إذا كان نحو مجهول، وهم على استعداد لتحمل وقبول السلطة القائمة بأخطائها ومظالمها وحتى فسادها إذا كان البديل هو الفوضى أو المجهول . إذن فالمعارضة لا تنجح أبدا بمجرد انتقادها للأحوال القائمة (كما هى العادة فى المعارضة الصحفية أو الإعلامية عموما)، ولكنها تنجح إذا فعلت ذلك إضافة إلى تكوين تصور واضح لبديل السلطة من البرامج والمؤسسات والقيادات (وهذه مهمة الأحزاب وجماعات الضغط ذات الرؤية التكاملية والقدرة على إعطاء البديل العملى الواقعى الذى يحمى من الفوضى ومن المجهول . ولهذا نجد كثير من النظم لا تقلق أبدا من المعارضة الصحفية أو الإعلامية لأنها تعرف أنها غير قادرة - مهما بلغت حدتها - على تغيير النظام أو تعتعته، خاصة إذا كانت السلطة قادرة على تفكيك أو تفجير أو لجم الأحزاب والجماعات القادرة على طرح البديل العملى للسلطة . بل إن الإنتقاد الإعلامى للسلطة قد يفيدها من حيث يعطى صورة ديموقراطية خادعة يستفيد منها النظام فى تحسين صورته داخليا وخارجيا . وقد يقول قائل بأن الإنتقاد الإعلامى ينشط وعى الناس ويهيئهم للمطالبة بالتغيير والسعى إليه، وهذا صحيح إلى حد ما ولكنه غير كاف للتغيير مهما طال به الأمد مالم يتبلور ويتجمع فى صورة برامج ومؤسسات وآليات بديلة للسلطة أو ضاغطة عليها أو متحاورة معها من منطق القوة السياسية أو الإجتماعية .

أنماط المعارضة:

الفردية مقابل الجماعية:

قد تكون المعارضة فردية يبدأبها شخص، وقد يتجمع الناس حوله فتتحول لمعارضة جماعية، وقد يظل فردا يحاول أن يوقظ الناس وينقى وعيهم الذى لوثته السلطة، وقد تكون جماعية صادرة عن حزب أو مؤسسة أو جماعة ضغط . ولا تصبح المعارضة ذات قوة مؤثرة ومغيرة إلا إذا وصلت إلى حشد عدد من المؤيدين يشكلون الكتلة الحرجة التى تشعر معها السلطة أنها مجبرة على تغيير ممارساتها أو مجبرة

على التسليم والرحيل محققة التداول السلمى أو غير السلمى للسلطة .

الموضوعية مقابل الحماسية :

وقد تكون المعارضة موضوعية قائمة على أسس واقعية ولديها بدائل عملية للتغيير، وقد تكون عاطفية تلعب على مشاعر الناس بالشعارات الرنانة الجوفاء وبالحديث فى العموميات والأحلام .

الصواب مقابل الخطأ :

وقد تكون المعارضة صائبة تقوم على مبادئ وقيم صحيحة سياسيا واجتماعيا، وقد تكون مخطئة ولكنها تستغل فساد السلطة ونفور الناس منها وضيقهم بها، فتقدم نفسها للناس بأنها بديل أقل فسادا وأقل خطأ، وربما يقبلها الناس كأمر نسبى أو كرغبة للتخلص من السلطة بأى ثمن .

الغيرية مقابل الأنانية :

وقد تقوم المعارضة لخدمة الناس وإيقاظ وعيهم ودفعهم للتغيير الإيجابى الذى يعود عليهم جميعا بالنفع، وقد تكون ذاتية أنانية تسعى للتغيير الذى ينفعها هى كحزب أو طائفة أو جماعة ضغط .

العلنية مقابل السرية :

وقد تكون علنية شفافة وقد تكون سرية تعمل تحت الأرض، أو قد تكون ذات طبيعة مزدوجة بحيث يكون لنشاطها شق علنى تخاطب به الناس وشق سرى تدبر فيه أمورها وتقوى من شوكتها خاصة إذا كانت تواجه سلطة استبدادية غير شرعية .

السلمية مقابل العنيفة :

وقد تكون المعارضة سلمية تمارس نشاطها من خلال القنوات المشروعة بعيدا عن كل أشكال العنف المباشر أو غير المباشر وقد تكون غير ذلك بحيث تستخدم كل الوسائل لزعزعة أركان السلطة التى تراها من وجهة نظرها غير شرعية .

الناضجة مقابل الهوجاء :

وقد تكون المعارضة ناضجة تعرف ما تريد وكيف تصل إليه بخطوات محسوبة، وتستثمر كل المواقف لتأكيد وجودها وحقها فى تغيير السلطة أو تعديل مسارها، وقد تكون هوجاء مندفعة تعبر عن ردود أفعال لممارسات السلطة دون أن يكون لها خط واضح للفكر والفعل المتراكم .

التغيير الإيجابى مقابل الظهور والشهرة :

وقد تكون المعارضة منطلقة من رغبة حقيقية للتغيير الإيجابى وقد تكون منطلقة من رغبة فى الظهور والشهرة والتميز الفردى أو الجماعى .

وكلما كانت المعارضة جماعية وموضوعية وناضجة وصائبة وذات جذور شعبية قوية ولديها نفس طويل فى التغيير وسلمية وعلنية وشرعية (بمعنى استنادها إلى مطالب جماهيرية وليست الشرعية الممنوحة من النظام فقط والذى ربما يكون هو نفسه غير شرعى) كلما كانت احتمالات نجاحها فى مهمتها أكثر تأكيدا حتى ولو طال الوقت .

المعارضة سنة كونية :

الحرية هى الأصل فى الوجود الإنسانى، وقد تفرد الإنسان بها من بين المخلوقات، فقد خلقه الله قادراً على فعل الخير وفعل الشر (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) (الإنسان ٣) (وهديناه النجدين) (البلد : ١٠)، وأعطاه حرية الاختيار كاملة، ومنحه الإرادة لفعل هذا أو ذاك ثم جعله مسئولاً عن خياراته فى الدنيا وفى الآخرة . وبهذا التكوين الحر الناضج المسئول استحق الإنسان التكريم على سائر المخلوقات . ولم يضمن الله الحرية للإنسان فقط بل ضمنها أيضاً لإبليس فمنحه الفرصة للاعتراض على أمر السجود لآدم ولم يشأ سبحانه أن يقهره على السجود، ولو أراد لكان فلا راد لأمره، ولم يكتف بذلك بل منحه فرصة إلى يوم القيامة يمارس فيها

دوره الذى ارتضاه لنفسه فأسس حزب الشيطان والذى أنضم إليه ملايين من الأنس والجن بكامل حريتهم .

وأرسل الله الرسل تترى إلى البشرية ليبلغوهم كلمة الله وليؤسسوا حزب الرحمن الذى يضم المؤمنين من الإنس والجن، وليصححوا للناس معتقداتهم، ولينشروا الحق والخير والعدل فى الأرض فى مواجهة حزب الشيطان الذى ينشر الباطل والشر والظلم فى الأرض، ومع هذا فقد علم الله رسله درساً هاماً فى الحرية فى أعلى مستوياتها وهى حرية الاعتقاد الدينى حيث قرر بوضوح لا لبس فيه أنه : (لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) ﴿البقرة : ٢٥٦﴾ .

وسيدنا نوح عليه السلام لم يشأ أن يقهر ابنه على الاعتقاد فيما يعتقده ولكنه حاوره وحذره ثم تركه يقرر ما يريد رغم علمه بأن ما يريده ابنه فيه هلاكه فى الدنيا (الغرق) وهلاكه فى الآخرة (جهنم)، ولكن نوحاً يعلم مراد الله من البشر ويعلم قيمة الحرية التى منحها الله الإنسان حتى إذا عبده كان ذلك عن طواعية وحب وليس عن قهر وخوف .

والحرية على المستوى النفسى ضرورة للنمو النفسى الطبيعى ولتطور الوظائف النفسية وبالتالى لنمو وتطور الحياة، فهى التى تعطى فرصة للتفكير الحر وللإبداع الحر وللعمل الخلاق الذى يثرى الحياة وينميها ويطورها .

ومن هنا يصبح الاستبداد مرضاً واضطراباً نفسياً لكل من المستبد (بكسر الباء) والمستبد (بفتح الباء) به فهو يشوه الطرفين ويشوه البيئة ويلوثها بكل أنواع الفساد . ولهذا نجد أن الأديان السماوية والحركات الإصلاحية الفلسفية والاجتماعية والسياسية حرصت فى كل مراحل التاريخ على علاج هذا المرض العضال الذى يعصف دائماً بمكتسبات الحضارة الإنسانية ويحدث - كما ذكرنا - تشويها لفطرة البشر وتلويثاً للبيئة الإنسانية بكل ألوان الانحراف والفساد، فالاستبداد هو مصدر الكثير من المفاسد الفردية والجماعية .

ولا حرية بدون القدرة على الإعتراض والتعبير عن الرأى الآخر مهما كان، على أن يتحمل الإنسان مسئولية رأيه وخياراته، وقد أقرت آيات القرآن الكريم بشكل واضح ومباشر سنة كونية فى علاقات البشر وهى الإختلاف، ووضعت القواعد لجعل هذا الإختلاف إيجابيا حتى لايفنى البشر بعضهم البعض . يقول تعالى :

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين» (البقره٢٥١)

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز» (الحج ٤٠)

«ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» (هود ١١٨، ١١٩) .

وعن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال :إن فى جهنم واديا، وفى الوادى بئر يقال له هبهب، حق على الله أن يسكنه كل جبار عنيد (رواه الطبرانى بإسناد حسن) .

وعن معاوية أن النبى ﷺ قال : ستكون أئمة من بعدى يقولون فلا يرد عليهم قولهم، يتفاحمون فى النار كما تفاحم القردة (رواه أبو يعلى والطبرانى، وذكره فى صحيح الجامع الصغير) .

فالرأى والرأى الآخر سنة كونية، ومطلب شرعى لتتوازن الرؤى وتتحقق المصالح ويدفع الفساد .

ويتبدى التوازن فى كل شئ فى خلق الله فما من شئ إلا وله ضد يقابله أو يتكامل معه، فالسالب يقابله الموجب، والذكر يقابله الأنثى ، والحياة يقابلها الموت، والجنة يقابلها النار .... وهكذا .

ثقافة المعارضة :

قد يبدو تعبير ثقافة المعارضة عصريا إلى حد ما، ولكنه فى الحقيقة ليس جديدا على التراث الدينى أو التراث العلمى، ففى التراث الدينى يوجد ما يسمى بفقه الإختلاف، وعلى أساسه نشأت رؤى وتيارات بين الصحابة رضوان الله عليهم أثرت الحياة العلمية والإجتماعية والسياسية فى المجتمع الإسلامى فى فترات ازدهاره، ويكفى أن تفتح أحد كتب التفسير لتجد المؤلف أو المصنف يعرض تفسيرات متعددة للنص القرآنى تعطى زوايا مختلفة للفهم، وقد بنى على ذلك نشأة المذاهب الأربعة وغيرها ونشأة الفرق الإسلامية على اختلاف توجهاتها، وعلى الرغم من كل هذا كان تيار الحضارة الإسلامية قويا متدفقا لما يزيد على ألف ومائتى سنة لا يوقفه فساد أمير أو خروج حاكم عن الجادة أو انحراف مفكر أو خطأ مجتهد، لأن القاعدة العلمية الرحبة والقائمة على التعددية والتكامل واحترام قواعد الإختلاف والمبادئ الدينية كانت تشكل الوعى العام وتؤثر فى حركة الجماهير أكثر مما يفعل الحكام أنفسهم، فعلى الرغم من الإستبداد السياسى فى بعض المراحل التاريخية كانت هناك تعددية علمية وفقهية تخلق وراءها تعددية شعبية متوازنة ومتسامحة ومتبادلة التأثير فى المسار الحضارى .

أما فى التراث العلمى الحديث فتعود جذور ثقافة المعارضة إلى منهج التفكير العلمى الذى يعرض الأفكار لعملية تمحيص من خلال التفكير النقدى الذى يرى الوجه والوجه الآخر ويعطى فرصة لدراسة البدائل والإحتمالات، حتى لا ينساق العقل وراء بعد واحد أو رؤية واحدة أو تفكير خرافى أو سحرى، أو عمليات استلاب يقوم بها شخص قادر على الإيحاء أو الإستهواء أو القمع الفكرى .

ونحن للأسف الشديد فى تربيتنا الأسرية وفى مناهجنا الدراسية وفى طرق التعليم والتربية، وفى إدارة مؤسساتنا من أدناها إلى أعلاها نبعد كثيرا عن ثقافة المعارضة، بل نعتبرها خروجا على الطاعة وخروجا على الإجماع وربما سوء أدب أو

سوء أخلاق، أو خيانة، أو تمرد، ومن هنا سادت النزعة الفردية فى التوجيه الأسرى والتوجيه المدرسى والتوجيه المؤسسى، ونشأت ثقافة القطيع التى تضع مقاليد الأمور فى يد شخص يسوق بقية الأفراد إلى حيث يرى أو يريد، وهذا قمة الإمتهان والظلم الإنسانى لأنه يجرد الإنسان من إنسانيته، ويجعله أقل من الشيطان الذى نال حقه فى الإختلاف الذى وصل إلى التمرد والعصيان، ويجعل الفرد المستبد يأخذ حقا يتطاول به على مقام الإله جل وعلا والذى منح الشيطان هذا الحق وأمهله إلى يوم القيامة .

الباب الرابع

(سيكولوجية التطرف)



سيكولوجية التطرف

ما هو التطرف ....؟

ما هي أشكاله ....؟

وما هي أسبابه ....؟

وكيف نعالجه ....؟

إشكاليات التعريف

أولا : التعريف اللغوى :

هو الغلو والإسرف ، أو الشطط بعيدا عن التوسط والاعتدال .

ثانيا : الإصطلاح الاجتماعى :

هو الخروج على المفاهيم والأعراف والتقاليد والسلوكيات العامة .

ثالثا : المفهوم الأمنى والسياسى :

هو الخروج على القانون والدستور السائد .

إذن فنحن نتوقع أن يختلف مفهوم التطرف من مجتمع لآخر ، بل ويختلف مفهومه داخل المجتمع الواحد تبعا للجهة التى تحاكم سلوك الشخص .

رابعا : أهمية النموذج المثالى : Ideal Model

ولكى نحكم على سلوك ما بأنه متطرف يجب أن يكون لدينا نموذج مثالى نحاكم إليه هذا السلوك ، وهذا ممكن فى حالة المجتمعات التى استقرت على تركيبات وديناميات راسخة فى حياتها ، أما المجتمعات التى تمر بتحولات كثيرة فى فترات زمنية وجيزة فانها تعانى من غياب أو غموض النموذج المثالى للسلوك فيقع كثير من أفرادها أثناء حركتهم فى المناطق الخطرة (جهلا أو عمدا) ويوصمون بالتطرف .

خامسا : أهمية الإطار المرجعى : FRAME OF REFERENCE

وهذا يؤكد ضرورة وجود صيغة حقيقية وأصيلة ومقبولة تؤكد الهوية وتسمح بالبقاء والنمو وتحقق المصالح والأهداف لغالبية المجتمع ، وهذه الصيغة هى ما يطلق عليه الإطار المرجعى ، وهذا الإطار المرجعى لابد وأن يضع فى الحسبان تركيبات وديناميات العقيدة والقيم والأخلاق والمعاملات فى المجتمع الذى يتبناه ، ويكون ضاربا بجذوره فى أعماق ذلك المجتمع ، وهذا لا يمنع بل لابد أن يكون هذا الإطار المرجعى مواكبا لحركة الحياة البشرية المتطورة وأن يضع فى اعتباره العلاقات المختلفة مع باقى مجموعات البشر .

سادسا : قيمة التقبل الاجتماعى :

هل الخروج على الأعراف الاجتماعية يعتبر تطرفا فى كل الأحوال ؟ والإجابة هى أن هناك بعض الصفات الاجتماعية الفاسدة كالرشوة والغش والتزوير والظلم ... إلخ ، وربما تكون هذه الصفات منتشرة فى مجتمع ما إلى الدرجة التى تصبح فيها هى القاعدة والخروج عنها يكون مستغربا وكمثال على ذلك عندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المجتمع الجاهلى فى الجزيرة العربية ليغير مفاهيمه وأعرافه الفاسدة لم يكن متطرفا رغم اختلافه الجذرى مع قيم وأعراف المجتمع الجاهلى السائدة فى ذلك الوقت . والمعيار الأفضل للحكم على سلوك بأنه متطرف أم لا هو أثر ذلك السلوك ليس على الفرد وحده بل على المجتمع أيضا . وهذا يوضح لنا الفرق بين السلوك الصحيح والسلوك المتطرف فالأول يصلح به الشخص ويصلح به غيره ويستمر ويبنى ، أما الثانى فانه يهدم حياة الشخص وحياة المجتمع . ومع أن التقبل الاجتماعى ليس هو المعيار الوحيد إلا أنه على درجة كبيرة من الأهمية فى غالب الأحيان .

أشكال التطرف :

التطرف يمكن أن يوجد فى أى مجال من مجالات الحياة فمثلا هناك التطرف السياسى (أقصى اليمين أو أقصى اليسار) والتطرف العرقى والتطرف الاجتماعى

والتطرف الدينى ... إلخ ، وأيا كان الشكل الذى يأخذه التطرف إلا أنه يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أنواع توجد منفردة أو مجتمعة :

أولا : التطرف المعرفى :

وهو أن ينغلق الشخص على فكرة أو أفكار معينة ، ولا يقبل المناقشة أو إعادة النظر فيها ، ويعتبرها من الثوابت المطلقة ، وهو فى هذه الحالة لا يلغى وظيفة عقله فقط فى تمحيص هذه الفكرة أو الأفكار بل إنه يلغى أى رأى آخر مخالف ، ولا يسمح لهذا الرأى أن يدخل مجال وعيه فضلا عن أن يتفهمه أو يناقشه أو يتقبله .

ثانياً : التطرف الوجدانى :

وهو شعور حماسى طاغ نحو شيء معين يجعل الشخص مندفعا فى اتجاه معين دون تبصر وربما يدفعه هذا الانفعال إلى تدمير نفسه أو غيره ، وربما يندم بعد ذلك حين تخف حدة هذا الانفعال (المؤيد أو الرافض) .

ويعود إلى رشده ، وفى بعض الأحيان لا يحدث هذا وإنما يظل الشخص يشحن نفسه (أو يشحنه المجتمع) بشحنات وجدانية هائلة تهدد بالانفجار فى أية لحظة .

ثالثاً : التطرف السلوكي :

وهو المغالاة فى سلوكيات ظاهرية معينة بما يخرج عن الحدود المقبولة وكأن هذه السلوكيات هدف فى حد ذاتها ولذلك يكرهها الشخص بشكل نمطى وهى خالية من المعنى وفاقدة للهدف . ولا يتوقف الأمر عند الشخص ذاته بل يحاول إرغام الآخرين على التقيد بما يفعله هو قهراً أو قسراً ، وربما يلجأ إلى العدوان على الآخرين لإرغامهم على تنفيذ ما يريد .

أسباب التطرف:

أولاً: أسباب بيولوجية: BIOLOGICAL CAUSES

مثل الاختلال الكروموسومى والعوامل التركيبية الوراثية والعيوب الخلقية والاصابات المخية ... إلخ .

ثانياً: أسباب نفسية اجتماعية: PSYCHO- SOCIAL CAUSES

مثل:

- الحرمان من رعاية أحد الأبوين أو كلاهما فى سن مبكر .
- الحرمان الاجتماعى.
- صدمة نفسية شديدة خاصة فى الطفولة .
- العلاقة المضطربة بالأقران.
- اضطراب العلاقة بين الطفل ووالده أو بين الطفل ورموز السلطة فى الأسرة أو فى المدرسة أو فى المسجد ، وينمو هذا الصراع ويكبر ويصبح الشخص فى صراع مع أى رمز للسلطة على المستوى الاجتماعى أو السياسى أو الدينى . وهذا يفسر لنا رفض الشباب المتطرف الانضواء تحت أية سلطة حتى ولو كانت رشيدة ، فهم يفضلون تكوين مجموعات ممن هم فى مثل سنهم دون وصاية أو توجيه من مصدر أعلى .
- وجود بعض الاضطرابات النفسية مثل :

أ- الاضطراب العصابى كالقلق والاكتئاب : ففى محاولة الشخص للخروج من دائرة القلق أو الاكتئاب يلجأ إلى نقل مجال الصراع من داخل النفس إلى الخارج حيث يصبح الصراع دائراً بين النفس والمجتمع وبالتالى يصبح الصراع أقل إيلاماً للشخص وأكثر قبولاً منه حيث يشعره أنه يقوم بدور ما .

ب- اضطراب الشخصية البارانوى : وهذا الشخص المتعالى المتسلط يرى أنه جدير (وحده) بتوجيه الناس إلى ما يريد ، وأن الناس (كل الناس) عليهم أن يسمعوا ويستجيبوا ، وإذا اعترضوا فلابد من قهرهم ولو بالقوة .

ج - اضطراب الشخصية المعادى للمجتمع : وهذا الشخص يحمل بذور العداء والكراهية وعدم الولاء للمجتمع ، لذلك فهو يأخذ موقف المحارب لكل القيم والأعراف والتقاليد السائدة .

د- الاضطراب الذهانى : وهذا يمثله بعض المرضى العقليين المصابين بالفصام أو الهوس أو الاضطرابات الضلالية ، حيث يعتقد المريض فى نفسه أنه المسيح أو المهدى المنتظر أو الإمام الأعظم الذى جاء لهداية الناس ، وفى بعض الحالات يستطيع المريض أن يكتم هذا الاعتقاد عن المحيطين به ولكنه يتصرف انطلاقاً منه فيظهر أمام الناس فى صورة مصلح أو داعية مشوه الفكر والوجدان والسلوك .

التعميم والتحويل:

وفى بعض الأحيان يكون التطرف مدفوعاً بأشياء أخرى مختلفة عن الشكل الظاهر تماماً ، كأن يكون الشخص واقعاً تحت تأثير معاناة مادية أو اجتماعية أو سياسية شديدة ، أو فشل فى أن يحقق ما يريد على المستوى الشخصى ، لذلك يحول القضية الشخصية إلى قضية عامة ، وهذا يعطى لمعاناته ومحاولاته معنى أكبر يخفف من آلام الإحباط الشخصى الذى يشعر به ، وفى ذات الوقت لا يجد نفسه وحيداً فى هذه الأزمة .

ثالثا: أسباب اجتماعية ثقافية: SOCIO-CULTURAL CAUSES

أ- انخفاض المستوى الاجتماعى والاقتصادى : لأن الأسرة الفقيرة لا تستطيع أن تدعم أفرادها وأن تزودهم بمهارات التكيف خاصة فى وقت الأزمات .

ب- التغيرات الاجتماعية أو الثقافية أو التكنولوجية السريعة : ففى مراحل التغيرات السريعة يختل التوازن وتتداخل القيم والمفاهيم ويكثر التطرف .

رابعا : أسباب دينية : RELIGIOUS CAUSES

أ- اتساع الهوة بين القيم السائدة والقيم المعلنة ، مما يعطى رسالة مزدوجة للشخص تدعه فى حيرة وقلق ، وهذا يجعله يشك فى مصداقية من حوله ، وبالتالى يصبح أكثر عدوانية نحوهم . فمثلا يتعلم الطفل أو المراهق فى المدرسة أو المسجد أن الكذب حرام وأن الرشوة حرام وأن الظلم حرام وأن الخمر حرام وأن السفور حرام وأن الربا حرام ، ومع ذلك يجد كثيرا من هذه الأشياء سائدة فى مجتمعه فيحدث داخله صراع مؤلم يحاول التخلص منه بتحطيم مظاهر الخروج على القيم المعلنة حتى يستريح .

ب- استفزاز المشاعر الدينية من خلال تسفيه القيم أو الأخلاق أو المعتقدات أو الشعائر بالقول أو بالفعل مع عدم إعطاء الفرصة للرد على ذلك .

ج- مقاومة دواعى السقوط : حين يبدأ الشاب طريق الالتزام الدينى فهو يبذل جهدا هائلا للتغلب على رغباته الداخلية (خاصة الجنس والعدوان) ولكنه يفاجأ بأن ثمة مثيرات فى المجتمع تحاول إيقاظ هذه الرغبات بشكل ملح ، وهنا يشعر ذلك الشاب باحتمال السقوط فى هوة الرغبات غير الأخلاقية ، فيحول الصراع من داخل نفسه إلى صراع مع العوامل المثيرة فيشتبك مع رموز المجتمع على اعتبار أنهم مسئولين عما يحدث له .

خامسا : عوامل تعزيزية : REINFORCING FACTORS

هناك بعض العوامل التى من شأنها زيادة حدة التطرف واستمراريته ، ومن هذه العوامل معاملة التطرف بتطرف مضاد ، أو الاقتصار على الوسائل القمعية دون البحث والتعامل مع جذور المشكلة وهذا يؤدى إلى ما يسمى بالتغذية المرتجعة للتطرف Feed back وإلى نشوء ظاهرة الدوائر المغلقة .

شخصية المتطرف وشخصية الداعية :

لقد حدث اختلاط (أو خلط) كبير بين مفهوم التطرف ومفهوم الدعوة وذلك نظراً لوجود بعض التشابهات السطحية (الشكلية) بين المتطرف والداعية ، والتى يستغلها أصحاب الإدراك المشوه (أو المغرض) فى التعميم المخل فيضعون المتطرفين والدعاة (جهلاً أو عمداً) فى صف واحد رغم التباين الهائل بينهما والذى يصل إلى حد التضاد والتنافر .

التفرقة بين شخصية المتطرف وشخصية الداعية :

والسؤال الهام هو : كيف نفرق بين المتطرف والداعية من حيث الشكل والمضمون ؟

والإجابة تتلخص في النقاط التالية :

١- التركيب الجسمانى والشكلى :

فى كثير من الأحيان نجد المتطرف ذا طول بائن أو قصر مستهجن أو يحمل فى تركيبه الجسمانى عاهة معينة أو اختلافاً يميزه عن الناس بشكل أو بآخر . وتبدو فى قسمات وجهه الحدة أو التجهم ، وفى حركاته نبرة العدوان والتحدى . وهو إما كثير الكلام أو الحركة أو قليلهما بشكل ملفت للنظر . وفى كل الحالات نجد إهمالاً واضحاً فى مظهره وعدم تناسق فى ملبسه .

أما الداعية فهو يبدو وسطاً معتدلاً فى شكله ومظهره ، حسن السمت منبسط الوجه ، نظيفاً متناسقاً ، ودود النظرات ، ولا يميل إلى لفت الأنظار بغرائب المظهر أو الملبس .

٢- الحالة النفسية :

يبدو فى المتطرف بروز (زائد) فى أحد النواحى (كجنوح فى الفكر أو الانفعال أو السلوك) ، فتراه يركز بلا هوادة على فكرة بعينها أو تراه عصبياً أو عدوانياً بلا مبرر واضح .

أما الداعية فهو متناسق الفكر والانفعال والسلوك كأنه منظومة كونية رائعة ، وهو هادئ النفس سمحاً طيباً .

٣- الحالة الروحانية:

المتطرف يكون بعيداً عن روحانيات الدين وتساميه (فى عقيدته وشرائعه) فتجده يتحدث حديثاً جافاً ويسلك سلوكاً خشناً ويبدى عدوانية أرضية منفرة .

أما الداعية فتجد فى كلامه وصمته وحركاته وسلوكه روحانية صافية تجعل الاقتراب منه مريحاً سلساً ، ويشعر من حوله بأنهم يحلقون معه إلى السماء .

٤- العلاقات الاجتماعية:

أول ما تلمحه فى المتطرف السلوك العدوانى المتسلط القاهر ، ولذلك تجد علاقاته الاجتماعية مضطربة غاية الاضطراب حتى مع أقرب المقربين له (والديه أو زوجته أو أبناءه) ، وهو دائم الصراع مع من حوله .

أما الداعية فهو محب مسالم ، حسن العلاقات مع من حوله حتى وإن اختلف معهم فى الرأى ، وهو فى خدمة من حوله ، ذو مروءة ونجدة وإيثار . وحتى فى مواجهة الضالين أو المشركين تجده يكره أفعالهم ولا يكرههم وشعاره فى ذلك (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) .

٥- الأهداف:

هدف المتطرف هو التحكم والتسلط والاستعلاء على الناس وتوجيههم إلى حيث يريد قهراً وقسراً (إرضاءاً لرغباته ونقائصه الذاتية) .

أما هدف الداعية فهو التربية والتوجيه والتنوير وإرشاد الناس إلى ما يصلحهم وكثيراً ما يضحى بنفسه وماله فى هذا الطريق ، وشعاره : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» .

توصيات:

أولاً: محاولة الاكتشاف المبكر للتطرف الفكرى والوجدانى ومحاولة علاجه قبل أن يتحول إلى تطرف سلوكى يوقع صاحبه تحت طائلة القانون .

ثانياً: دراسة كل حالة توصف بالتطرف على حدة ، ويشترك فى هذه الدراسة أطباء نفسيون وأخصائيون نفسيون واجتماعيون وعلماء دين .

ثالثاً: البعد عن التعميم فى التعامل مع المتطرف ومحاولة حصر ردود الأفعال تجاه من يصدر منه السلوك المتطرف حتى لا تتسع دائرة التطرف والتطرف المضاد مع الوقت .

رابعاً: التأكيد على أهمية الحوار العلاجى ، ذلك الحوار الذى يضع فى الاعتبار دوافع التطرف وأسبابه وطرق علاجه ، وفى ذات الوقت لا يلغى المسئولية الجنائية المترتبة على السلوك المتطرف . وهذا الحوار ربما ينجح فى قطع الدوائر المغلقة والتغذية المرتجعة للتطرف من خلال اكتشاف خلل معرفى أو وجدانى أو سلوكى يمكن تصحيحه أو علاجه قبل وأثناء وبعد توقيع العقوبة .

خامساً: تنظيم المجتمعات بالصورة التى تخفض مثيرات التطرف والعنف إلى أدنى مستوى ، وذلك من خلال منع الظلم على المستوى الفردى والاجتماعى ، وإرساء العدل ، ومنع تفشى الفواحش والمنكرات ، وإرساء قواعد التكافل الاجتماعى ومحاربة الفساد، وإعطاء فرص حقيقية للتعددية السياسية والفكرية التى تمثل كافة التيارات الموجودة فى المجتمع دون استبعاد أو وصم أو إلغاء .

سادساً: بث الوعى الدينى الذى يرتقى بروح الإنسان عن طريق تقوية الإيمان الذى يسمو بالنفس ويذكرها بالحساب والجزاء ، والصلاة وما تهيؤه من استرخاء نفسى وعضلى يخفف من حدة التوتر والزكاة كوسيلة لتزكية النفس وتخفيف حدة الصراع الاجتماعى ، والصوم وما يمنحه من قوة السيطرة على نزعات الإنسان العدوانية ،

والحج وما يوصى به ويرسخه من معانى الأُخوة الإنسانية ووحدتها .

سابعاً: تدريس أدب الخلاف الدينى والفكرى والسياسى والإجتماعى ضمن المناهج الدراسية .

قال تعالى : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن

الباب الخامس

(سيكولوجية العنف)

الباب الخامس

سيكولوجية العنف

هناك علاقة تبادلية بين الحوار والعنف ، بمعنى أنه كلما كان الحوار نشطاً وإيجابياً وصحياً كلما قلت نزعات العنف ، وكلما انسدت قنوات الحوار أو ضاقت أو تقلصت كلما ازدادت نزعات العنف . ولكى تتضح هذه العلاقة فسنستعرض بإيجاز بعض التعريفات والآليات والمحددات للعنف والوسائل الوقائية منه ثم نتبع ذلك باستعراض بعض مفاهيم وأنماط الحوار فى حالاته السلبية والايجابية، وذلك سعيا لتحقيق أكبر قدر ممكن من الحوار الصحى النشط الذى يثرى الوجود البشرى ويجنبه الآثار السلبية لنزعات العنف .

التعريف اللغوى للعنف:- عنف (العُنْف) بالضم ضد الرفق .تقول منه : عنُفَ عليه بالضم (عُنْفا) ،و(عنّفَ) به أيضاً و (التعنيف) التعيير واللوم (الرازى ٦٦٦هـ)

ويتضح من التعريف اللغوى أن العنف لم يقتصر على الإيذاء الجسدى بل هو شامل للإيذاء الجسدى واللفظى على حد سواء .

التعريف الاصطلاحي للعنف:- العنف هو أى سلوك موجه بهدف إيذاء شخص أو أشخاص آخرين لا يرغبون فى ذلك ويحاولون تفاديه (Kaplan and Sadock , 1994) .

إشكاليات التعريف:- على الرغم من تعدد تعريفات العنف فى الثقافات المختلفة إلا أنه يبقى هناك تساؤلات كثيرة حول وصف سلوك معين بأنه عنفاً ، لأن ذلك غالباً ما يرتبط بالسياق الذى تم فيه هذا السلوك ، فالعنف الذى يمارس من أجل سلب الآخرين حقوقهم أو قهرهم لقبول وضع معين يختلف تماماً عن العنف الذى يكون الدافع إليه دفع باطل أو إحقاق حق أو دفاع عن النفس أو العرض أو الوطن أو العقيدة ... الخ

وهناك بعض التعريفات التى تقصر العنف على الإيذاء الجسدى دون اللفظى ، وأغلب التعريفات لا تبرز العنف السلبى كالصمت والعناد والمكايدة .

آليات العنف:

للعنف آليات كثيرة ومتشابكة تتضافر مع بعضها لتؤدى إلى انطلاق نزعات العنف .. ورغم تعدد وتشابك الأسباب إلا أن كثيرين من علماء النفس يرون أن الإحباط هو أهم عامل منفرد يؤدى إلى العنف ويفسرون العلاقة بين العنف والإحباط كالتالى :

إحباط ←تغيرات فسيولوجية ونفسية ←زيادة الاستجابة لمثيرات العنف←سلوك عنيف (Kaplan and sadock, 1989)

ويرى فريق آخر أن العنف يحدث إذا اختل التوازن بين البواعث نحوه وبين السيطرة الداخلية للشخص على تلك البواعث (Kaplan and Sadock, 1994).

نظريات العنف: (Theories of aggression)

(١) العنف سلوك غريزى:

كان فرويد يعتقد – فى كتاباته المبكرة – أن سلوك الإنسان ينشأ بشكل مباشر أو غير مباشر مما أسماه غريزة الحياة (Eros)، وأسمى طاقة هذه الغريزة الليبيدو (Libido)، وقال بأنها موجهة نحو تدعيم الحياة ونمائها . وأن العنف من هذا المنظور ينشأ من إحباط أو سد منافذ هذه الطاقة . ولكن بعد الأحداث المأساوية التى عاصرها فى الحرب العالمية الأولى ، كتب عن وجود غريزة أخرى هائلة هى غريزة الموت (Thanatos)، وتنطلق هذه الغريزة وتتوجه نحو التدمير وإنهاء الحياة . وذهب فرويد إلى أن سلوك الإنسان يتحدد بالتفاعل بين هاتين الغريزتين .

أما لورنز (Lorenz, 1966)فيرى أن العنف ينشأ مما أسماه غريزة العراك (Fight instinct)والتى يشترك فيها الإنسان مع باقى الكائنات ، وأن العنف فى

الإنسان طبقا لهذا المفهوم شيئا لا يمكن تفاديه فهو سلوك حتمى .

(٢) العنف كسلوك مكتسب :

ويرى أصحاب هذا الرأى وخاصة ألبرت باندورا (Bandura,1973)أن العنف يعتبر سلوكاً مكتسباً فى الوسط الاجتماعى من خلال :-

أ- اكتساب استجابات العنف خلال التجارب الحياتية السابقة (مثل اعتداء الآخرين عليه ومحاولة الدفاع عن نفسه) .

ب- التدعيم الذى يلقاه الشخص حين يمارس العنف (كأن يصبح مهابا بين الناس أو يصبح فتوة الحارة أو يصبح بطلا فى نظرهم) .

ج- وجود ظروف اجتماعية وبيئية خاصة تستثير العنف بشكل مباشر .

(٣) العنف نتيجة عطب عصبى تشريحى فى المخ :

وأصحاب هذا الرأى يقولون بأن هناك ارتباط قوى بين سلوك العنف وإصابات الرأس ، ويرون أن نسبة كبيرة ممن يقومون بالسلوك العنيف قد تعرضوا فى فترة من فترات حياتهم للاعتداء عليهم مما أدى إلى إصابات متفاوتة لخلايا المخ .

محددات العنف : (**Aggression Determinants**)

المحددات الاجتماعية :-

(١) **الإحباط :** ويعتبر هو أهم عامل منفرد فى استثارة العنف لدى الإنسان وليس معنى هذا أن كل إحباط يؤدى إلى العنف ، أو أن كل عنف هو نتيجة إحباط (Dollard et al,1939) ولكى يؤدى الإحباط إلى العنف فلابد أن يتوفر عاملان أساسيان :

أولهما : أن الإحباط يجب أن يكون شديدا .

ثانيهما : أن الشخص يستقبل هذا الإحباط على إنه ظلم واقع عليه ولا يستحقه، أو أنه غير شرعى .

(٢) **الاستثارة المباشرة من الآخرين:** - وربما تكون هذه الاستثارة بسيطة فى البداية كلفظ جارح أو مهين ولكن يمكن أن تتضاعف الاستثارات المتبادلة لتصل بالشخص إلى أقصى درجات العنف.

(٣) **التعرض لنماذج عنف:** وهذا يحدث حين يشاهد الشخص نماذج للعنف فى التليفزيون أو السينما ، فإن ذلك يجعله أكثر ميلا للعنف من خلال آليات ثلاثة هى (Kaplan & Sadock,1985):

أ- التعلم بالملاحظة: : (Observational Learning) :

حيث يتعلم الشخص من مشاهد العنف التى يراها طرقاً جديدة لإيذاء الآخرين لم يكن يعرفها من قبل .

ب- الانفلات : (Disinhibition) :

بمعنى أن الضوابط والموانع التى تعتبر حاجزا بين الإنسان والعنف تضعف تدريجيا كلما تعرض لمشاهد عنف يمارسها الآخرون أمامه على الشاشة .

ج- تقليل الحساسية : (Desensitization) :

حيث تقل حساسية الشخص للآثار المؤلمة للعنف وللمعاناة التى يعانيها ضحية هذا العنف كلما تكررت عليه مشاهد العنف ، فيصبح بذلك أكثر إقداما على العنف دون الإحساس بالألم أو تأنيب الضمير .

المحددات البيئية: (Enviromental Determinants)مثل تلوث الهواء والضجيج والازدحام ... إلخ

المحددات الموقفيه : (Situational Determinants) :

١- **الاستثارة الفسيولوجية العالية:** مثال لذلك المنافسة الشديدة فى المسابقات ، أو التدريبات الرياضية العنيفة ، أو التعرض لأفلام تحوى مشاهد مثيرة .

٢- الاستثارة الجنسية: فقد وجد أن التعرض للاستثارة الجنسية العالية (كأن يرى الشخص فيلماً مليئا بالمشاهد الجنسية) يهئ الشخص لاستجابات العنف .

٣- الألم: فحين يتعرض الإنسان للألم الجسدى يكون أكثر ميلا للعنف نحو أى شخص أمامه .

المحددات العضوية: (Organic Determinants)

١- الهرمونات والعقاقير: تعزو بعض الدراسات العنف إلى ارتفاع نسبة هرمون الأندورجين (الهرمون الذكرى) فى الدم ، وإن كانت هذه الدراسات غير مؤكدة حتى الآن .

ويؤدى استعمال العقاقير كالكحول والباربتيورات والأفيونات إلى زيادة الاندفاع نحو العنف .

٢- الناقلات العصبية: بشكل عام ترتبط زيادة الدوبامين ونقص السيروتونين بالعنف ، فى حين أن زيادة السيروتونين والـ GABA تؤدى إلى التقليل من السلوك العنيف .

٣- الصبغيات الوراثية: أكدت دراسات التوائم زيادة نسبة السلوكيات العنيفة فى توأم أحادى البويضة إذا كان التوأم الآخر متسما بالعنف . وأكدت دراسات وراثية أخرى زيادة العنف فى الأشخاص ذوى الذكاء المنخفض ، وفى أولئك الذين لديهم تاريخ عائلى للاضطرابات النفسية وهناك احتمال لم يتأكد بشكل قاطع أن الأشخاص ذوى التركيب الكروموسومى XYY يميلون لأن يكونوا أكثر ميلا للعنف .

العنف العائلى: ويحكمه ما يلى:

١- تصور الرجل عن المرأة والعكس

٢- الإحباط عموماً والإحباط فى العلاقات الزوجية بوجه خاص

٣- إزاحة العنف :

أ- **من الخارج إلى الداخل:** حيثما يوجد الاستبداد السياسى والعنف الدولى أو الاجتماعى يوجد الاستبداد والعنف داخل الأسرة وخاصة من الرجل نحو المرأة

ب- **من الداخل إلى الداخل:** إزاحة العنف المتجه أساساً نحو الزوج أو الزوجة إلى الأولاد.

العلاقة بين الاستبداد السياسي والعنف العائلى:

كتب قاسم أمين فى كتابه المرأة الجديدة عام ١٩٠٠ يقول : يوجد تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية فى كل بلد . ففى كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق حط نفسه وأفقدها وجدان الحرية . وبالعكس فى البلاد التى تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية ، فالحالتان مرتبطتان ارتباطاً كلياً . وإن لسائل أن يسأل : أى الحالتين أثرت فى الأخرى ؟ نقول : إنهما متفاعلتان ، وأن لكل منهما تأثيراً فى مقابلتها ، وبعبارة أخرى : إن شكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية ، ففى البلاد الشرقية تجد أن المرأة فى رق الرجل ، والرجل فى رق الحاكم ، فهو ظالم فى بيته مظلوم إذا خرج منه

الوقاية والعلاج:-

١) توجيه العناية نحو الفئات الهشة (الأكثر قابلية لاستثارة العنف) للتعرف على مثيرات العنف لديها ومحاولة خفض هذه المثيرات .

٢) دراسة حالات العنف دراسة علمية مستفيضة لاستكشاف الجوانب العضوية والنفسية والاجتماعية التى تحتاج إلى علاج .

٣) الحوار الصحى الإيجابى لإعطاء الفرصة لكل الفئات للتعبير عن نفسها بشكل منظم وآمن يقلل من فرص اللجوء إلى العنف .

٤) التدريب على المهارات الاجتماعية ، حيث وجد أن الأشخاص ذوى الميول نحو العنف لديهم مشكلات كثيرة فى التواصل والتفاعل الاجتماعى مما يضعهم فى

كثير من الأحيان فى مواجهات حادة وخطرة مع من يتعاملون معهم ، وهذا يستثير العنف لديهم . لذلك فإن برنامجاً للتدريب على المهارات الاجتماعية كمهارة التواصل ومهارة تحمل الإحباط وغيرها . يمكن أن يؤدى إلى خفض الميول العدوانية لدى هؤلاء الأشخاص .

٥) العقاب : أحياناً يؤدى العقاب المناسب (خاصة إذا كان قريباً من الفعل العنيف زمنيا) إلى تقليل حدة وتكرار السلوكيات العنيفة من خلال الارتباط الشرطى بين العنف والعقاب . ولكن إذا كانت هناك فترة زمنية طويلة بين الفعل العنيف وبين توقيع العقوبة ، أو كان العقاب غير متناسب مع الفعل العنيف فإن العقاب ربما يؤدى إلى نتيجة عكسية فيزيد من احتمالات زيادة العنف ، وهذا ملاحظ فى الحالات التى تتعرض للإيذاء الجسدى والنفسى العنيف حيث يصبحون أكثر ميلاً نحو العنف ، بل ويزداد عنفهم خطورة .

٦) الاستجابات المغايرة : وهذه الطريقة تقوم على مواجهة السلوك العنيف بسلوك مغاير تماما يؤدى إلى إيقاف العنف والتقليل من معاودته . وكمثال على ذلك إذا وجد الشخص ذوى الميول العنيفة أن الشخص المقابل يعامله بحب وتعاطف وشفقة فإن ذلك يقلل من إندفاعاته العنيفة ، وهذا مصداق للآية «ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم» ومثال آخر : أن تقابل الميول العنيفة بالدعابة من الطرف الآخر ، وقد وجد فعلا بالتجربة أن الدعابة والطرافة فى المواقف الحادة تقلل من احتمالات العنف . ووجد أيضاً أن إيقاظ الإحساس بالذنب أو الانغماس فى نشاط ذهنى معرفى ، أو التعرض لبعض المثيرات المحببة للشخص ، كل هذا يمكن أن يؤدى إلى انخفاض نزعات العنف .

٧) العلاج الدوائى : وهذا العلاج يصبح ذو أهمية خاصة فى الحالات المرضية كالاضطرابات العضوية أو النفسية وحتى فى غير هذه الحالات وجد أن لبعض الأدوية مثل الليثوم وأدوية الصرع والمهدئات الجسيمة أثراً على نزعات العنف .



الباب السادس

(سيكولوجية الحوار)



الباب السادس

سيكولوجية الحوار

التعريف اللغوى للحوار:

الحوار من (لمحاوره بمعنى المجاوبة ، و (التحاور) التجاوب (الرازى ٦٦٦هـ) .

التعريف الاصطلاحى للحوار : هو تفاعل لفظى أو غير لفظى بين اثنين أو أكثر من البشر بهدف التواصل الإنسانى وتبادل الأفكار والخبرات وتكاملها.

وهو نشاط حياتى يومى نمارسه فى المنزل والشارع والعمل والمدرسة والجامعة ووسائل الإعلام ... إلخ. وعلى أساس الحوار ينبنى السلوك وتتشكل العلاقات .

وهناك بعض المفاهيم المتصلة بشكل إيجابى أو سلبى بالحوار نذكر منها على سبيل المثال : الاختلاف والخلاف ، والجدل ، والشقاق ، وفيما يلى تعريفات موجزة لهذه المفاهيم :-

أ- الاختلاف والخلاف : وذلك أن ينهج كل شخص طريقا مغايرا للآخر فى حاله أو فى قوله وعلى هذا يمكن القول بأن الخلاف والاختلاف يراد به مطلق المغايرة فى القول أو الرأى أو الحالة أو الهيئة أو الموقف . والخلاف أعم من الضد لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين (العلوانى ١٩٩١) .

ب- الجدل : إذا اشتد احتداد أحد المخالفين أو كليهما بما هو عليه من قول أو رأى أو مواقف ، وحاول الدفاع عنه ، وإقناع الآخرين به ، أو حملهم عليه سميت تلك المحاولة بالجدل . فالجدل فى اللغة المفاوضة على سبيل المنازعة والغلبة ، مأخوذ من جدلت الحبل إذا فتلته وأحكمت فتله ، فإن كل واحد من المتجادلين يحاول أن يفتل صاحبه ويجدله بقوة وإحكام على رأيه الذى يراه (يراجع مفتاح السعادة ٥٩٩/٢ طبعة دار الكتب الحديثة بمصر ، والتعريفات للجرجانى ٦٦ طبعة الحلبى) .

ج- الشقاق : فإذا اشتدت خصومة المتجادلين ، وآثر كل منهما الغلبة بدل الحرص على ظهور الحق ووضوح الصواب ، وتعذر أن يقوم بينهما تفاهم أو اتفاق سميت تلك الحالة بـ (الشقاق) وأصله : أن يكون كل واحد فى شق من الأرض ، فكأنما أرضاً واحدة لا تتسع لهما معاً (يراجع مفتاح السعادة ٥٩٩/٢ طبعة دار الكتب الحديثة بمصر ، والتعريفات للجرجانى ٦٦ طبعة الحلبى) .

أهداف الحوار:

وللحوار أهداف ، تتحقق كلما كان الحوار صحياً ، نذكر منها :

١- محاولة فهم الآخرين .

٢- إقناع الآخرين بوجهة نظر معينة .

٣- الوصول إلى صيغة من التفاهم والتعايش والتكامل .

٤- الارتقاء بالوجود البشرى عن طريق تبادل وتكامل وتراكم الخبرات .

مرجعية الحوار:

كلما كانت هناك مرجعية قوية ومشتركة كلما كان الحوار أكثر إيجابية وتكاملاً ، وعلى العكس كلما ضعفت هذه المرجعية أو تشتتت أو تعارضت كلما تعطلت مسارات الحوار أو ضاقت وأصبح الحوار أقرب إلى الضجيج . ولذلك ففى فترات التحول الاجتماعى - خاصة المفاجئة أو السريعة - نجد أن الحوار يصبح أكثر صخباً وتشابكاً وتشتتاً نظراً لاختلاف المرجعيات المعرفية للفئات المختلفة اختلافاً شديداً يجعلها لا تملك الحد الأدنى للإتفاق على أى شئ ، وتضيع منها كل الثوابت ويصبح كل شئ قابلاً للطعن والتشكيك والتسفيه .

مستويات الحوار:

١- الحوار الداخلى (مع النفس) : وفى حالة كون هذا الحوار صحياً فإنه يتم بين مستويات النفس المختلفة فى تناغم وتصالح دون إلغاء أو وصم أو إنكار أو تشويه .

أمـا إذا فـشل ذلك الحـوار النفـسى الداخلى فـإن الاضطرابات الناتجـة ربما تدفع بموجات العنف المتراكمة إلى الخارج أو إلى الداخل فتكون مدمرة للآخرين أو للنفس ذاتها .

٢- الحوار الأفقى (مع الناس) : وهو ينقسم إلى قسمين :

أ- حوار بين أفراد المجتمع الواحد الذين يشتركون فى المعتقدات والقيم والمفاهيم . وهذا الحوار يقوم على مبدأ نصف رأيك عند أخيك ، ومبدأ التعاون فى الاتفاق والأعذار فى الاختلاف .

ب- حوار بين المجتمعات المتباينة فى المعتقدات والقيم والمفاهيم ، وهذا الحوار يجرى وفق مبدأ التعايش بهدف تنمية عوامل الخير ، والاشتراك (رغم الاختلاف) فى أعمار الكون .

٣- الحوار الرأسى (مع الله) :- وتختلف طبيعة هذا الحوار عن المستويين السابقين حيث يتوجه الإنسان نحو ربه بالدعاء والاستغفار وطلب العون ويتلقى منه سبحانه إجابة الدعاء والمغفرة والمساعدة . وهذا المستوى إذا كان نشطاً وإيجابياً فإنه يحدث حالة من التوازن والتناسق فى المستويين السابقين (أى فى حوار الإنسان مع نفسه وحواره مع الآخرين) .

قبول الخلاف كسنة كونية أساس لنجاح الحوار:-

إن الاختلاف فى وجهات النظر وتقدير الأشياء والحكم عليها ، أمر فطرى طبيعى وله علاقة بالفروق الفردية إلى حد كبير ، إذ يستحيل بناء الحياة ، وقيام شبكة العلاقات الاجتماعية بين الناس ذوى القدرات المتساوية والنمطية المتطابقة ، إذ لا مجال - عندئذ- للتفاعل والاكتساب والعطاء ! ذلك أنه من طبيعة الأعمال الذهنية والعملية اقتضاء مهارات وقدرات متفاوته ومتباينة ، وكأن حكمة الله تعالى اقتضت أن بين الناس بفروقهم الفردية - سواء أكانت خلقية أم مكتسبة - وبين الأعمال فى الحياة قواعد والتقاء ، وكل ميسر لما خلق له ، وعلى ذلك فالناس مختلفون (العلوانى ١٩٩١) .

مع من يكون الحوار:

الحوار واجب طول الوقت كلما التقى اثنين أو أكثر من البشر . ونحن نخطئ كثيراً حين نظن أن الحوار يكون فقط بين طبقة المثقفين أو الصفوة ، والأحرى أن يكون الحوار شاملاً لكل مستويات المجتمع وأن يبقى نشطاً ومستمراً ، وتولى عناية خاصة للمجموعات الأكثر قابلية لظهور العنف (أو ما يسمى بالمجموعات الهشة) ونذكر منها :

١- فئات السن من ١٥-٢٥ سنة ، حيث تسبب التغيرات العضوية والنفسية المصاحبة للمراهقة حالة من عدم التوازن ربما تؤدى إلى العنف عند التعرض لمثيراته . وقد وجد أن المراهق حين تستثار دوافع العنف لديه فإنه يوجه هذا العنف نحو أى شخص أو أشخاص دون تمييز ، وهذا يختلف عن عنف الأشخاص الأكبر سناً والذين يوجهونه غالباً نحو أشخاص لهم بهم علاقة - عادة أحد أفراد الأسرة . (Kaplan and sadock,1994)

٢- الأماكن المزدحمة والأحياء الفقيرة (المناطق العشوائية كمثال) .

٣- الأقليات داخل المجتمع والتى ربما تشعر أنها واقعة تحت ضغط أو حصار من الأغلبية . وكلمة الأقليات هنا لا تقتصر على الأقليات الدينية أو العرقية ، بل الأفضل أن تشمل أى مجموعة ذات فكر أو عقيدة معينة تختلف عن غالبية الناس.

٤- الأشخاص الذين سبق تورطهم فى أعمال عنف (فى السجون والإصلاحيات) . وغير صحيح ما يدعيه البعض ويروج له من أنه لا حوار مع من يخرج على القانون ، بل على العكس إن هذه الفئة فى حاجة ماسة إلى الحوار قبل وأثناء وبعد تنفيذ العقوبة القانونية عليها . والحوار هنا لا يلغى المسئولية القانونية للشخص عن أفعاله ، وإنما يحاول علاج ما حدث والوقاية من عنف محتمل .

٥- مدمنى الخمر والمخدرات : فقد ثبت أن ٥٠٪ ممن قاموا بحوادث قتل أو اعتداء

تعاطوا الخمر قبل القيام بهذه الأفعال بوقت قليل (Caplan and Sadock,1994) (وهذه الفئة لها مشاكل كثيرة فى العلاقات مع الآخرين ، ولقد كان لكاتب هذه السطور تجربة ثرية فى التعامل العلاجى مع عدد كبير من المدمنين لعدة سنوات وقد رأى أن الحوار الإيجابى الصحى فى المجتمع العلاجى كان له أثر كبير فى تحسين سلوكيات هؤلاء الناس رغم تاريخهم الطويل فى تعاطى الخمر والمخدرات وفى ارتكاب الجرائم بمختلف أنواعها .

٦- الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات نفسية خاصة أولئك الذى يعانون من الشعور بالغضب ، أو لديهم ميول عدوانية ، أو لديهم اضطراب فى التحكم أو عطب عضوى بالمخ ، أو سبق لهم إشعال النار بالممتلكات أو التبول فى الفراش أو القسوة على الحيوانات .

٧- الأشخاص الذين تكرر منهم التهديد باستخدام العنف .

٨- من لديهم ميول عدوانية نحو رموز السلطة فى المجتمع .

٩- الأشخاص الذين فقدوا أحد الأبوين أو كليهما فى سن مبكر .

١٠- المتهورون فى قيادة السيارات .

١١- الفئات التى تشعر بأنها ضحية فى المجتمع .

١٢- الأفراد الذين ينتابهم الشعور بالعجز واليأس .

١٣- العاطلين عن العمل .

١٤- الأفراد الذى تعرضوا للإيذاء النفسى أو الجسدى أو كليهما معاً فى السجون أو معسكرات الاعتقال .

ألوان من الحوار السلبى (المهدى ١٩٩٢) :-

١) الحوار العدمى التعجيزى : وفيه لا يرى أحد طرفى الحوار أو كليهما إلا السلبيات والأخطاء والعقبات وهكذا ينتهى الحوار إلى أنه لا فائدة ويترك هذا النوع من الحوار قدرا كبيرا من الإحباط لدى أحد الطرفين أو كليهما حيث يسد الطريق أمام كل محاولة للنهوض .

٢) حوار المناورة (الكروالفر) : ينشغل الطرفان (أو أحدهما) بالتفوق اللفظى فى المناقشة بصرف النظر عن الثمرة الحقيقية والنهائية لتلك المناقشة وهو نوع من إثبات الذات بشكل سطحى .

٣) الحوار المزدوج : وهنا يعطى ظاهر الكلام معنى غير ما يعطيه باطنه وذلك لكثرة ما يحتوى من التوريه والألفاظ المبهمة .. وهو يهدف إلى إرباك الطرف الآخر .. ودلالاته أنه نوع من العدوان الخبيث .

٤) الحوار السلطوى (اسمع واستجب) : نجد هذا النوع من الحوار سائدا على كثير من المستويات ، فهناك الأب المتسلط والأم المتسلطة ، والمدرس المتسلط ، والمسئول المتسلط ... إلخ . وهو نوع شديد من العدوان حيث يلغى أحد الأطراف كيان الطرف الآخر ويعتبره أدنى من أن يحاور ، بل عليه فقط السماع للأوامر الفوقية والاستجابة دون مناقشة أوتضجر . وهذا النوع من الحوار فضلا عن أنه إلغاء لكيان (وحرية) طرف لحساب طرف آخر ، فهو يلغى ويحبط القدرات الإبداعية للطرف المقهور فيؤثر سلبا على الطرفين وعلى المجتمع بأكمله .

٥) الحوار السطحى (لا تقترب من الأعماق فتغرق) : حين يصبح التحاور حول الأمور الجوهرية محظورا أو محوطا بالمخاطر ، يلجأ أحد الطرفين أو كلاهما إلى تسطيح الحوار طلبا للسلامة أو كنوع من الهروب من الرؤية الأعمق بما تحمله من دواعى القلق النفسى أو الاجتماعى .

٦) حوار الطريق المسدود (لا داعى للحوار فلن نتفق) : يعلن الطرفان (أو إحدهما) منذ البداية تمسكهما (أو تمسكه) بثوابت متضاده تغلق الطريق منذ البداية أمام الحوار وهو نوع من التعصب والتطرف الفكرى وانحسار مجال الرؤية .

٧) الحوار الإلغائى أو التسفيهى (كل ما عداى خطأ) : يصر أحد طرفى الحوار على ألا يرى شيئا غير رأيه وهو لا يكتفى بهذا بل يتنكر لأى رؤية أخرى ويسفهها ويلغيها . وهذا النوع يجمع كل سيئات الحوار السلطوى وحوار الطريق المسدود .

٨) حوار البرج العاجى : ويقع فيه بعض المثقفين حين تدور مناقشاتهم حول قضايا فلسفية أو شبه فلسفية مقطوعة الصلة بواقع الحياة اليومى وواقع مجتمعاتهم . وغالبا ما يكون ذلك الحوار نوعا من الحذلقة وإبراز التميز على العامة دون محاولة إيجابية لإصلاح الواقع .

٩) الحوار الموافق دائماً (معك على طول الخط) : وفيه يلغى أحد الأطراف حقه فى التحاور لحساب الطرف الآخر إما استخفافاً (خذه على قدر عقله) ، أو خوفاً، أو تبعية حقيقية طلباً للراحة وإلقاء المسئولية كاملة على الآخر .

١٠) الحوار المعاكس دائماً (عكسك دائماً) حين يتجه أحد طرفى الحوار يمينا يحاول الطرف الآخر الاتجاه يسارا والعكس بالعكس وهو رغبة فى إثبات الذات بالتميز والاختلاف ولو كان ذلك على حساب جوهر الحقيقة .

١١) حوار العدوان السلبى (صمت العناد والتجاهل) : يلجأ أحد الأطراف إلى الصمت السلبى عنادا وتجاهلا ورغبة فى مكايدة الطرف الآخر بشكل سلبى دون التعرض لخطر المواجهة .

خصائص الحوار الإيجابى (المهدى ١٩٩٢):

وبما أن الحوار عملية تبادلية بين طرفين أو أكثر ، وهو يتم من خلال عمليتين أساسيتين هما الإرسال والاستقبال إذن فلنحاول الآن أن نرى كيف يمكن أن يتم الحوار بشكل فعال من خلال تحسين كفاءة الاستقبال (السماع) والإرسال (التحدث) :-

١) الاستقبال (أدب الاستماع):

إن أهم شروط الحوار الناجح مع الآخرين حسن الاستماع والفهم لما يصدر عنهم ، وهذا الاستماع الجيد يعطى فائدة مزدوجة للطرفين فبالنسبة للمتحدث يشعر بارتياح واطمئنان حيث يجد أن الطرف الأخر يحسن الإصغاء له ويعى ما يقوله ، وهذا يعطى فرصة لدوام الحوار والتواصل بشكل جيد وسلس . وبالنسبة للمستمع فإن إنصاته وفهمه الجيد لما يقوله المتحدث يعطيه قدراً من المعلومات وإلماماً بالموضوع يسمح له بالرد المناسب والحوار المناسب . ولكن : ما هى الشروط الواجب توافرها لكى نحقق الاستماع الجيد ؟ ..... والإجابة هى :

- إقبال المستمع بوجه طلق هادئ نحو المتحدث .. مع إعطاء إيماءات المتابعة والفهم من وقت لآخر حتى يتأكد المتحدث أن المستمع معه دائماً .
- عدم إظهار علامات الرفض أو الاستياء بشكل يقطع على المتحدث فرصة الاسترسال إلا إذا كان قطع الاسترسال مطلوباً لذاته .
- عدم إعطاء ردود فعل سريعة ومباشرة قبل أن ينتهى المتحدث من كلامه .
- عدم ملاحقة كلام المتحدث بكلام من المتلقى بشكل سريع ، بل الأفضل السكوت للحظة للاستيعاب وإعادة النظر فى كلام المتحدث ثم ترتيب الأفكار قبل التعليق .
- الفهم الجيد لمحتوى الحديث مع محاولة إعادة ترتيبه إذا أمكن .
- الإدراك الجيد للمشاعر التى يبديها المتحدث أثناء حديثه ، فهذا الإدراك يعطى بعداً هاماً للحديث من خلال التعرف على الانفعالات المصاحبة للموضوع .

- قراءة لغة جسم المتحدث كإشارات يديه وإيماءات رأسه وحركات جسمه .

- أن يحاول المستمع ضبط انفعالاته تجاه ما يسمع ، وأن يتذكر دائماً أن كل شئ قابل للمناقشة والتحاور والأخذ والرد ، وأن الانفعالات الحادة تقطع طريق التواصل الجيد وتعتبر إحدى علامات عدم نضج الشخصية .

- أن لا يعتبر المستمع نفسه فى موقف القاضى الذى يستمع فقط ليقيم محدثه ثم يحكم له أو عليه .

٢) الإرسال (أدب التحدث) :

حين يتحدث شخص أمام الناس بهدف توصيل رسالة أو مفهوم معين فعليه أن يضع فى الاعتبار الأشياء التالية :

شكل المتحدث ومظهره :

١- يستحب أن يكون المتحدث حسن الشكل ، حسن المظهر ، مهندم الثياب فى بساطة، وأن يخلو مظهره ولباسه من الأشياء الصارخة والملفتة للنظر حتى لا يشتت انتباه المستمع .

٢- يجب أن يقبل المتحدث بوجهه نحو المستمع (أو المستمعين) .

٣- ويتأكد المتحدث قبل وأثناء وبعد الحديث أن أعضاء جسمه فى حالة استرخاء وفى وضع مريح ، فلا يأخذ أوضاعاً تؤدى إلى التوتر العصبى أو العضلى ، أو تثير دهشة أو سخرية المستمع .

٤- يحرص المتحدث على عدم المبالغة فى إظهار الانفعال إلا لضرورة (كأن يثير حماساً معيناً فى موقف يستدعى الحماس) ، وأن لا يبالغ فى حركات يديه أو جسمه أثناء التحدث .

٥- التوسط فى سرعة السرد فلا يكون بالبطئ الممل ولا بالسريع المخل .

مضمون الحديث:

إن لمضمون الحديث أثراً هاماً وعليه يتوقف مسار الحوار والمناقشة ، فإذا كان مضمون الحديث ومحتواه جذاباً ومريحاً للمستمع استمر الحوار البناء وآتى التواصل ثمرته ، أما إذا كان محتواه غير ذلك فإن الحوار يصبح دفاعياً أو هجومياً وتكون نتيجته سلبية على الطرفين .

وقد تابع أحد علماء النفس (Gibb,1966) عدداً كبيراً من المناقشات فى عدد من المجالات المختلفة خرج منها بتصنيف مزدوج للمناقشة الدفاعية وكيف يمكن أن تكون مناقشة حيوية حوارية (بن مانع، عن كتاب الانكفاء على الذات) ، وسوف نورد هذا التصنيف هنا باختصار :

١- التقييم مقابل الوصف:

فكلما زاد التقييم من قبل الشخصى المتحدث سواء كان مباشراً أو غير مباشر ، أو كان كلامياً أم من خلال لغة الجسم من نبرات صوت أو حركات ، كلما زاد الموقف الدفاعى لدى المستمع ، وبالرغم من أن المستمع قد لا يقابل التقييم بسلوك دفاعى إلا أن هذا يتم فى حالات قليلة بينما الغالبية تقابل التقييم بسلوك دفاعى ، وإذا أردنا تجنب هذه الحالة فما على المتحدث إلا أن يتبع وصف الحالة المناقشة دون إشعار الآخرين بأنه يحاول تغيير وجهات نظرهم أو تقييم سلوكهم ، عند ذلك يقابل هذا الحديث بارتياح وعدم تحفظ أو هجوم .

٢- التحكم مقابل الاختيار:

عندما يحاول المتحدث فرض وجهة نظره بطريقة الإقناع القوى بمختلف الطرق المباشرة وغير المباشرة ، يزرع فى المستمع مقاومة هذا التوجه ورفضه ، لأن المستمع يستنتج من سلوك المتحدث هذا أنه ينظر إليه على أنه غير كفء لاتخاذ القرار المناسب بنفسه ومن ثم يأخذ موقفاً دفاعياً يجعل المناقشة تراوح مكانها . غير

أن المتحدث عندما يعطى الانطباع فى حديثة أنه يرغب فى التعاون مع المتحدث إليه يفهم من هذا أن المتحدث يقدر قدرته على البحث عن حل والرغبة فى التعاون وبالتالى فإن المستمع يشترك بطريقة تلقائية تعاونية فى المناقشة ويسهم إسهاماً كبيراً فى البحث عن حل بطريقة تنم عن المرونة وعدم الدفاعية ، ومن ثم الحرية فى مناقشة الموضوع .

٣- استخدام الإستراتيجيات مقابل التلقائية :

فعندما يقوم المتحدث باستخدام استراتيجيات مثل الغموض فى الكلام ، أو الدوافع المتعددة ، أو يتكلم بتلقائية غير طبيعية فإن ذلك قد يعبر عن سذاجة وعدم مصداقية أو إمكانية خداع ، وهنا نجد المستمع يتخذ موقفاً دفاعياً ، ذلك أن الناس لا يريدون أن يكونوا ضحاياً للغموض والدوافع الذاتية . لكن المستمع عندما يدرك أن المتحدث يتكلم بتلقائية طبيعية وهى تلك التى تعنى الاستقامة والأمانة والاستجابة حسب طبيعة الأحوال المحيطة ، فإنه يبادل المتحدث بنفس الطريقة ، وهنا تنساب المعلومات المتبادلة ويتم فتح ميدان خصب لتنمية المهارات المختلفة .

٤- عدم الإكتراث مقابل التعاطف :

عندما يكون المتحدث غير مكترث بالموضوع قيد النقاش ويظهر البرود حياله، يفقد النقاش الحيوية والاهتمام ، ويجعل المستمع غير متحمس ، ويصبح مستمعاً سلبياً ومتحدثاً دفاعياً أو هجومياً . ولكن عندما يكون المتحدث متحمساً ومتعاطفاً مع الموضوع فإن ذلك يجعل المستمع جاداً فى استماعه وحديثه ، يتحدث بتلقائية ويدلى بمعلومات ذات علاقة كبيرة بالموضوع المناقش ويزداد إثراء النقاش وحيويته .

٥- التعالى مقابل التساوى :

عندما يجعل المتحدث الآخرين يحسون أنه متفوق فى شئ ما سواء فى المكانة أو المال ... الخ ، فإن ذلك يعنى بداية المواقف الدفاعية لدى الآخرين وبداية التفكير

فى آثار ومضامين الحديث على المستمع وبالتالى نسيان الموضوع المناقش برمته . لكن المتحدث عندما يفصل للمستمع آثار المشكلة دون أى اعتبار لما ذكر أعلاه ، وأن حل المشكلة عمل جماعى مشترك تحكمه الثقة والاحترام المتبادل ، فإن أى فارق بين الأشخاص بعد ذلك غير ذى أهمية ، وعند ذلك تصبح المناقشة غنية متدفقه بين أطراف النقاش .

٦- التصلب مقابل المرونة :

إن التصلب فى رأى أثناء مناقشة موضوع أو مشكلة ما يعتبر فى حد ذاته عائقاً فى سبيل النقاش أو حتى يؤدى إلى توقفه . فقد يكون هناك أشخاص يظهرون أنهم ليسوا فى حاجة إلى زيادة معلومات عن المشكلة بينما الواقع غير ذلك ، وهذا مظهر من مظاهر التصلب يحول دون مباشرة الموضوع . إن مثل هذا العمل يجعل الآخرين يقومون بأنماط من السلوك الدفاعى ، وهذا يجعل النقاش فى أضعف مستوى له . لكن عدم التصلب ، أى المرونة فى التنازل عن الرأى عند اللزوم وتقبل آراء الآخريين ، وفى الوقت الذى لا يعنى الأخذ بهذه الآراء ، أمر ضرورى فى سبيل الوصول إلى آراء متفق عليها . ولعل أهم دليل على المرونة وعدم التصلب هو البحث عن حل للمشكلة وتقبل أى أطروحات للحل ووضعها موضع النقاش والتحليل والدراسة .

نماذج من التراث للحوار الإيجابى :

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (بينما نحن فى المسجد مع رسول اللهﷺ إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه ، قال : قال رسول الله ﷺلا تورموه (لا تقطعوا بوله) ، فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله دعاه فقال له : إن هذه المساجد لا تصلح لشئ من هذا البول أو القذر إنما هى لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن ، أو كما قال رسول الله ﷺ ، قال : فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من الماء فشنه عليه (أخرجه البخارى فى كتاب الوضوء ٥٦/١ وأخرجه مسلم فى كتاب الطهارة ١٦٣/١) .

الأعرابى (ساكن البادية) جاء إلى المسجد فقام يبول فيه إما جهلاً بحرمته ، أو اتباعاً لنمط حياته البدوية ، أو تحدياً لمشاعر المسمين الذين يعظمون المساجد خاصة إذا كان المسجد النبوى .وأياً كانت دوافع الأعرابى لهذا الفعل ، فإن ذلك قد أثار مشاعر الاستياء والرفض والغضب لدى الجالسين فى المسجد فعبر الصحابة – رضوان الله عليهم – عن مشاعرهم مباشرة بزجر الرجل عن فعله المنتهك لحرمة المسجد وللآداب العامة . ولا شك أن رسول الله ﷺ أنكر هذا السلوك من الأعرابى ولكنه استطاع أن يملك نفسه وأن يتصرف مع الأعرابى بطريقة علاجية تروض غلظته وتلين قلبه وتمحو جهله ، فأمر صحابته بالكف عنه وألا يقطعوا عليه بولته ، فهو الطبيب العارف بأثر قطع بولة الأعرابى على حالته النفسية ، فإن قطع البول يسبب توتراً شديداً كان كفيلاً – لو حدث – بأن يفجر غلظة الأعرابى وعدوانيته ، وفى ذات الوقت يجعله غير مهيأ لتلقى الرسالة التعليمية والعلاجية التى بثها له الرسول من خلال تحاوره معه بعد ذلك . لذلك كان لابد وأن يسمح له باستكمال بولته حتى يصبح مهيئاً للتلقى ، وليتعلم الصحابة فى ذات الوقت كيف يتحكمون فى غضبهم الثائر على الرجل .

وها هو الأعرابى قد فرغ من بوله ... فماذا بعد ؟ ... هل يترك إلى حال سبيله تحاشياً لجهله وبداوته ورفضاً لانتهاكه لكثير من الحرمات والآداب ؟ ... هل يعنف ليكون ذلك درساً قاسياً يردعه ويردع أمثاله عن هذا الفعل المشين ؟ ... هل ينسى الأمر برمته وكأن شيئاً لم يقع ؟ ...

إن كل هذه الاستجابات لا تؤدى وظيفة إيجابية لا للأعرابى المنتهك للحرمة ولا للصحابة كاظمى الغيظ فماذا كانت استجابة الرسول المعلم ﷺ ؟ .... دعاه رسول الله ﷺ وشرح له وظيفة المساجد ، وأن ما حدث منه لا يتفق مع هذه الوظيفة ، وكان هذا هو الجزء المعرفى فى العلاج .. فهل كان كافياً وحده ؟ .... لا .... لأنه حتى وإن كان كافياً للأعرابى (وهو ليس كذلك) ، فماذا عن قلوب الصحابة التى تضطرم

بالغضب من فعلة الأعرابى ؟ .. لذلك أمر رسول الله ﷺ رجلاً من الصحابة فصب الماء على موضع البول تطهيراً له وتنظيفاً لأثره ، وكان هذا هو الشق الثانى من العلاج وهو علاج بالفعل والسلوك . فبالنسبة للأعرابى فقد رأى بعينية قبح فعلته بما استدعى صب دلو من الماء الطاهر على بوله ليمحو أثره من المكان المقدس ، ورأى بعينيه قبل وبعد وأثناء ذلك حلم الرسول المعلم تجاه فعله . وبالنسبة للصحابة فقد أطفأ ماء الدلو غضبهم وهو يسيل فوق النجاسة فيمحها ، وتعلموا أن الأمر على فداحته ميسور العلاج . وهكذا يكون الحوار الإيجابى فى السياق الصحى مثمراً ونافعاً .

(٢) حين دخل الشاب على رسول الله ﷺ وقد تأججت شهوة الزنا فى قلبه حتى لم يعد قادراً على إخمادها ، وهو فى ذات الوقت يعرف (بعقله) حرمة الزنا ، لذلك أصبح فى صراع يريد أن يجد له حلاً ، فلجأ إلى طبيب النفوس محمد ﷺ يطلب منه أن يأذن له فى الزنا ، وحين سمع الحاضرون الشاب يطلب ذلك من الرسول ﷺ صراحة ، هالهم ذلك وأفزعهم ، فزجروه وقالوا مه مه . ولكن الرسول ﷺ كان قد غاص فى نفس هذا الشاب ورأى حجم المشكلة وعرف أن الزجر لن يجدى ، بل ربما دفع الشاب إلى الخروج من دائرة الإسلام تحت ضغط الشهوة ، وعرف أيضاً أن تذكير الشاب (المتوقد شهوة) بالحكم الشرعى ليس هو الحل ، لأن من الواضح أن الشاب يعرف حرمة الزنا بدليل أنه جاء يستأذن الرسول ﷺ فيه ، ولا يستأذن إلا فى شئ محظور ، لذلك قال له الرسول ﷺ : (أدنه ، فدنى منه قريباً . قال : أتحبه لأمك؟ .... قال لا والله جعلنى الله فداءك ، قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم . قال : أتحبه لابنتك ؟ .. قال : لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداءك ، قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم . قال : أفتحبه لعمتك ؟ ... قال : لا والله جعلنى الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم . قال : أفتحبه لخالتك ؟ ... قال : لا والله جعلنى الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم . قال : فوضع يده عليه وقال : اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه ، فلم يكن بعد ذلك الفتى يتلفت إلى شئ (اخرجه

الإمام أحمد فى مسنده من حديث أبى أمامة رضي الله عنه)

وبتحليل هذا الموقف نرى أن أول شئ فعله الرسول ﷺ هو أن طلب من الشاب أن يدنو منه ليقترب من نفسه حساً ومعنى وليزيل أثر الزجر والرفض الذى واجهه به الحاضرون ، فدنى الشاب منه قريباً ، وهنا بدأ الحوار العلاجى ، فسأله إن كان يحب أن يزنى أحد بأمه أو بابنته أو بأخته أو بعمته أو بخالته ، فكان الشاب يجيب فى كل مرة بالنفى ويتبع النفى بكلمة : جعلنى الله فداءك ، فيعقب الرسول ﷺ بقوله ولا الناس يحبونه، ويتضح من ذلك أن الحوار كان يدور بشكل هادئ ومريح بدليل قرب الشاب من الرسول ودعاءه للرسول بعد كل رد جعلنى الله فداءك وإنصاته للرسول ﷺ حتى النهاية .

ويتضح أن الرسول ﷺ كان يحاول من خلال الحوار إحداث صوراً ذهنية لدى الشاب تجعله يكره هو نفسه هذا الفعل من خلال تكرار تلك الصور الذهنية التى تصور احتمال أن يزنى أحد بأمه (وهى أصله) أو ابنته (وهى فرعه) أو عمته (أخت أبيه) أو خالته (أخت أمه) .

ولم يكتف الرسول ﷺ بالحوار اللفظى المجرد وإنما دعم ذلك بالجانب الروحى فى لمسة حانية حيث وضع يده على صدر الشاب (محل الشهوة الثائرة) ودعا له بالمغفرة أولاً لما حدث منه (أو يحتمل أن يكون قد حدث) من زلات تحت تأثير هذه العلة فى قلبه فقال اللهم اغفر له ذنبه ، ثم اتبع ذلك بدعاء آخر وطهر قلبه أى من هذه الشهوة التى استحكمت فيه ، وحصن فرجه الذى كان الوسيلة لتنفيذ هذا الفعل . وهكذا يكون الحوار (وهو أداة معرفية أساساً) جزءاً فى الإطار الوجدانى والروحى .

(٣) حين اتخذ المسلمون مكانهم للقاء المشركين فى غزوة بدر ، وكانت آبار المياه أمامهم ، نهض الحباب بن المنذر رضي الله عنه وسأل رسول الله ﷺ : أهو منزل أنزلكه الله ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ .. فأجاب رسول الله ﷺ : بل هو الرأى والرحب والمكيدة . فقال الحباب : يا رسول الله ما هذا بمنزل .. وأشار على رسول

اللهﷺ بالوقوف بحيث تكون آبار المياه خلف المسلمين فلا يستطيع المشركون الوصول إليها .. وفعلاً أخذ الرسول ﷺ بهذا الرأى الصائب وكان ذلك أحد عوامل النصر فى المعركة .

وإذا حاولنا تحليل هذا الموقف نجد أن الحباب بن المنذرﷺ كان جندياً إيجابياً على الرغم من أنه واحد من عامة المسلمين ، وكان أمامه كثير من الأعذار لكى يسكت أو يعطل تفكيره ، فهو مجرد جندى تحت لواء رسول الله ﷺ الذى يتلقى الوحى من السماء ، وهناك كبار الصحابة أصحاب الرأى والمشورة .. ولكن كل هذه الأسباب لم تمنعه من إعمال فكره والجهر برأيه الصائب ... ولم يجد الرسول ﷺ ... وهو القائد الأعلى للجيش – أى غضاضة فى الاستماع لرأى أحد الجنود والأخذ به .

(٤) وقد ناظر ابن عباس الخوارج وحاورهم فى أدب واستمع لهم وتحدث إليهم فرجع منهم ألفان إلى الحق وبقى ستة آلاف (أعلام الموقعين ١/٢١٤-٢١٥) ،مع أن هؤلاء قوم أشهروا سيوفهم للقتال واستحلوا دماء مخالفيهم ، ولكنهم مع ذلك حين جودلوا بالحق استجاب كثير منهم ، وحينما ذكروا بالقرآن تذكروا ، وحينما دعوا إلى الحوار استجابوا بقلوب مفتوحة (العلوانى ١٩٩١)

الخلاصة

١– للعنف أسباب كثيرة بعضها غريزى وبعضها مكتسب .

٢– يعتبر الإحباط من أهم العوامل المثيرة للعنف .

٣– على الرغم من معرفتنا بأهمية الحوار فى التقليل من نزعات العنف إلا أنه مازالت تسود فى حياتنا أنواع كثيرة من الحوار السلبى الذى يؤدى إلى تراكم نزعات العنف ومن ثم انفجارها فى أى وقت . لذلك يجب الانتباه إلى المشكلات التى تعوق انسياب مسارات الحوار على كل المستويات وتعلم مهارات الحوار الجيد والتواصل الصحى .

مراجع الباب السادس

المراجع العربية

- القرآن الكريم .
- ابن حنبل ، أحمد ، المسند .
- البخارى . كتاب الوضوء ١/٥٦ طبعة الشعب .
- الرازى ، محمد بن أبى بكر بن عبد القادر (ت:٦٦٦هـ) مختار الصحاح ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان.
- العلوانى ، طه جابر (١٩٩١) . أدب الاختلاف فى الإسلام ، الطبعة الثالثة ، نشر وتوزيع الدار العالمية للكتاب الإسلامى ، الرياض .
- أمين ، قاسم (١٩٠٠) . المرأة الجديدة ، اصدار مكتبة الأسرة ، وزارة الثقافة ، القاهره .
- المهدى ، محمد (١٩٩٢) . الصحوة الإسلامية : الدوافع والعوائق (دراسة نفسية) دار الوفاء ، المنصورة.
- بن مانع ، سعيد (   ) ، الانكفاء على الذات .
- مسلم . كتاب الطهارة ١/١٦٣ طبعة الشعب .

المراجع الأجنبية

-Bandura, A (1973). Aggression , a social learning analysis , Prentic-Hall, Englewood Cliffs, N J.
- Dollard J, Miller N, Nowrer O, Sears R (1939) . Frustration and aggression . Yale University press, New Haven, Conn .
- Kaplan H, Sadock B (1985) . Comprehensive textbook of psychiatry, ed. 4, williams and Wilkins, Baltimor .

- Kaplan H Sadock B (1989) . Comprehensive textbook of psychiatrym fifth ed., vol. One, Williams and Wilkins Baltimor .
- Kaplan H, Sadock B (1994). Synopsis of psychiatry, seventh ed., Williams and Wilkins, Middle East edition, Egypt .
- Lorenz K (1996) . On aggression . Bantam, New York .

الباب السابع

(سيكولوجية الفساد والإفساد)



الباب السابع

سيكولوجية الفساد والإفساد

سيكولوجية الفساد والإفساد

جاء يطلب منى إعطاءه شهادة مرضية فسألته عن مرضه فقال لى : الإمتحانات فداعبته قائلا: أما زلت تخشى الإمتحانات وأنت الآن وكيل مدرسة وفى الخمسين من عمرك ؟ .. ثم إنك تعلم أننى لا أعطى مثل هذه الشهادات المضروبة، فأطرق بوجهه خجلا وحرجا وتمتم قائلا : أعرف كل ذلك، وأنت أيضا تعرف عنى بحكم الصحبة والقرابة أننى أمقت مثل هذه الأشياء ولكننى فى أزمة لا أجد منها مخرجا، فكل عام تتعرض حياتى للخطر بسبب الإمتحانات حيث أكلف برئاسة مجموعة من اللجان كل عام فى منطقة ما، وأنا – كما تعلم – لدىّ مشكلة مزمنة لم أستطع علاجها حتى الآن وهى أننى أصر على منع الغش فى كل اللجان التى أترأسها، قلت له أعرف ذلك وأذكر أننا كل عام كنا نبحث عن وسيلة نخرجك بها من مقر اللجنة حيث كان يتجمع أهل البلدة أو القرية أو المنطقة يحاولون الفتك بك لأنك ضيعت مستقبل أبنائهم وبناتهم وأذكر كيف كان المسئولون عن أمنك وحمايتك يغمضون أعينهم غضبًا منكَ وشماتة فيك لأنك نشفت رأسك أكثر من اللازم، وأذكر أنك كدت تفقد عينك أو حياتك كلها فى كثير من الإمتحانات لإصرارك على نزاهة الإنتخابات، معذرة الإمتحانات، قال نعم ولكن الأمر اختلف هذه الأيام فلم تعد حياتى مهددة من العامة والدهماء الذين اعتدنا على صفاقتهم وحرصهم الجاهل الغبى على حق أبنائهم فى الغش والذى يعتبرونه حقا مشروعا لأبنائهم المساكين، وإنما الخطر الآن يأتى من أناس لهم حيثياتهم ولهم نفوذهم يرسلون بالإجابات النموذجية لأبنائهم بالكامل ليحصلوا على الدرجة النهائية أمام عينى، ومن يفعلون ذلك هم ممن يفترض أنهم يحرسون الأمن والقانون والعدالة والنزاهة والحق، وأنا كما تعلم مجرد مدرس لا حول لى ولا قوة ولن أستطيع أن أقف فى وجه الجميع ، ولن أستطيع فى هذا السن أن

أغير رأسى، وهذا العام بالذات سأراقب فى أحد المدارس الخاصة للغات وهى معقل أبناء الضباط والمستشارين وكبار رجال الأعمال، وليس لى طاقة بكل هؤلاء . وهنا دارت رأسى أنا بين وقائع مماثلة، ولكن كان أقربها لبؤرة وعيى واقعة كنت أنا أحد ضحاياها فى الثمانينات من القرن الماضى ودارت أحداثها فى إحدى الجامعات الإقليمية وبطلها أحد رؤساء الأقسام (وهو بالمناسبة ليس من تخصصى ولكنه كان يرأس مجموعة أقسام إداريا ومنها القسم الذى أعمل به) حيث كان معروفا عنه قسوته واستبداده وغطرسته ودكتاتوريته وعناده وجبروته وميله الشديد للظلم والبطش، وكان النجاح والرسوب فى الأقسام التى يتحكم فيها مرهون برضاه الشخصى عن طالب الدراسات العليا، ولسبب أو لآخر لم أحظ برضاه الشخصى فعشت أياما سوداء ومررت بخبرات امتحانية مؤلمة قررت بعدها ترك هذه الجامعة الإقليمية بل ترك مصر بالكامل وفى نيتى أن لا أعود إليها ما حييت، ولم يكن ذلك لمجرد غضبى من ممارسات هذا الرجل وحده، أو كان تعميما خاطئا منى تجاه كل أساتذة الجامعة ومنهم بالطبع كثيرون فضلاء، وإنما مما رأيته من قبول من حوله ومن تحته ومن خلفه بتسلطه وغطرسته واستبداده وظلمه، هذا القبول (أو الرضوخ) الذى كان يمتد من أصغر نائب فى المستشفى مرورا بالأساتذة ووصولا إلى رئيس الجامعة فى ذلك الوقت رغم معرفة الجميع بنقائصه وحديثهم عن تلك النقائص ليل نهار فى الجلسات المغلقة، أما حين يصل الأمر إلى المواجهة فالغالبية راضين (أو راضخين) بما يفعله ويقنعون أنفسهم أنه على حق . تركت مصر وتركته وتركتهم جميعا ومرت السنون وقابلت أحد أقارب هذا الرجل فقال لى بأنه اقتحم الشقة على إحدى قريباته (بسبب خلاف عائلى تافه) وضربها ضربا عنيفا هى وابنتها، وأصبحت قضية كبيرة، فقلت الحمد لله سيأخذ جزاءه على ما فعل بى وبكثيرين قبلى وبعدى حاربهم فى مستقبلهم العلمى وشردهم داخل مصر وخارجها بما يملكه من سلطة الأستاذ الجامعى ورئيس القسم وهى سلطة مطلقة استنادا إلى افتراض نزاهة من يتبوءون تلك المكانة العلمية الرفيعة، ولكن محدثى نظر إلى بأسى وهو يقول : للأسف الشديد لقد خرج منها –

كعادته – مقابل ١٧ ألف جنيه دفعها (لا تسألنى لمن حتى لا نقترب من مواطن العفة) . ودارت الأيام وتم القبض على هذا الأستاذ الجامعى وهو فى الثانية والستين من عمره يلعب القمار فى شقة مشبوهة ومرصودة (وقد كان القمار نشاطه المفضل بعد الإنتهاء من عيادته) ، ولكنه خرج من هذا الأمر بتدخل أحد أصحاب النفوذ من أقاربه، وغادر محبسه المؤقت وهو يخرج لسانه للذين قاموا بالقبض عليه، بل وتطاول عليهم بالكلام، إلى أن حانت لحظة الصفر بعد عدة شهور من تلك الواقعة وتم القبض عليه بواسطة إدارة مكافحة الآداب بالقاهرة وهو يدير شقته بإحدى مدن الدلتا للقمار ومعه عدد من المقامرين المحترفين أحدهم يعمل موجها للتربية والتعليم بالإسكندرية فى ذلك الوقت، وكانت فضيحة مدوية نشرتها أغلب الصحف والمجلات الرئيسية وكتبت عنه روزاليوسف على غلافها طبيب يعالج مرضاه بالقمار وأفردت لقصته صفحتان فى العدد رقم ٣٦٩٤ بتاريخ ٢٧ مارس ١٩٩٩، وذكرت أنه كان يعمل رئيسا للقسم منذ ١٩٧٠ حتى ١٩٩٧ ولم يترك رئاسة القسم إلا بسبب إحالته للمعاش، وتم إلقائه فى الحبس لمدة ثلاثة أسابيع وتحدد موعدا للقضية، ولكنه مات بعد فترة قصيرة، وأفضى إلى ربه بعد أن تسبب فى تشريد عدد كبير من الأطباء الأكفاء إبان فترة رئاسته للقسم التى استمرت ٢٧ عاما، وترك آثارا شديدة على البنية النفسية لكل من عمل تحت رئاسته. وقد كان هذا الرجل يمثل لى النموذج الأولى للإستبداد والفساد، وكان ذلك النموذج من أقوى المحفزات لى على كراهية هاتين الصفتين وبذل كل ما أستطيع من جهد لمحاربتهما فى أى مجال .

هذه الوقائع وغيرها لا تشير إلى مجرد فساد وإنما إلى اقتراب ذلك الفساد من مواطن العفة فى المجتمع (أسمع من يعترض على كلمة اقتراب ويقول إنه وصل فعلا وتغلغل)، تلك االمواطن التى يفترض أن تظل بعيدة عن الفساد لتشكل صمام أمان للمجتمع حتى لا ينهار تماما . عموما دعونا نفتح ملف الفساد لنفهم سيكولوجيته وآثاره ونرى إلى أى مدى اقترب أو وصل إلى مواطن العفة فى مجتمعنا وما الذى يتوجب علينا فعله إن كان ثمة من يشعر بهذا الواجب .

ماهو الفساد ؟

لقد هالنى ما للفساد من معان ودلالات فى اللغة العربية وتساءلت عن علاقة هذا الثراء اللغوى عن الفساد وانتشار الأخير بشكل ملحوظ فى المجتمعات العربية ؟! ... فالفساد هو مصدر للفعل فسد، وقد عرّفه لسان العرب بأنه نقيض الصلاح . وقد يتضمن الفساد معنى عضويا فيقال فسد اللحم أو اللبن أو نحوهما فسادا إذا أنتن أو عطب . وقد يشير الفساد إلى تجاوز الحكمة أو الصواب فيقال فسد الرجل أى جاوز الصواب، وفسد العقل أى بطل، وفسدت الأمور أى اضطربت وأدركها الخلل، وكما ورد فى القرآن الكريم لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . ويشير معنى الفساد إلى الجدب والقحط، كما أنه قد يعنى إلحاق الضرر، أو يعنى أخذ المال ظلما .

فإذا انتقلنا من المعنى اللغوى إلى المعنى الإصطلاحى وجدنا أن الفساد نقيض للإصلاح والرشادة والخير العام، ولذا حين يعم الفساد مجتمعا من المجتمعات وتفوح رائحته تجد تظاهرا بمحاولات الإصلاح وحديثا مملا ومكررا عن الشفافية وكأنه ستار يخفى ما تحته من الفساد كى يعيش أطول فترة ممكنة .

فالفساد ضد المصلحة، وإذا كانت كلمة سياسة فى أصلها العربى تعنى القيام على الأمر بما يصلحه فإن الفساد السياسى يعنى عدم القيام على الأمر بما يصلحه . ويعرف الدكتور حمدى عبدالرحمن حسن أستاذ العلوم السياسية الفساد بأنه : أحد أنماط السلوك الذى يقوم به، أو يمتنع عن القيام به،صاحب المنصب العام، والذى يهدد من خلاله معيار القيام على الأمر بما يصلحه سواء وقع ذلك تحت طائلة القانون والقواعد التى تحكم عمله أو لم يقع، ويكون الهدف من وراء هذا السلوك دائما هو إعلاء المصلحة الذاتية على المصلحة العامة (الفساد السياسى فى إفريقيا، 1993م، دار القارئ العربى، القاهره) .

الفساد ظاهرة عالمية ولكن !!:

استند الرئيس الأمريكى نيكسون إلى بعض الإضطرابت فى المجتمع الأمريكى وشكل لجنة مارس ضغوطه على أفرادها لتضع تقريرا أطلق عليه وقتها خطة هيوستون، ذلك التقرير الذى مهد لتكوين جهاز أمن الدوله الأمريكى، ذلك الجهاز الذى يمتلك الحق فى جمع المعلومات بصورة غير قانونية عن المواطنين الأمريكيين بحجة تأمين النظام والمحافظة على التوازن الداخلى، على أن تصل هذه المعلومات إلى الرئيس بشكل مباشر حيث أن هذا الجهاز السرى تابع للبيت الأبيض وتحظى معلوماته بثقة خاصة . وتحت غطاء السرية والخصوصية توسع هذا الجهاز فى جمع المعلومات عن الصحفيين والموظفين العموميين ورؤساء الأحزاب والشخصيات العامة والقيادات الدينية والإجتماعية ذات التأثير . وفى عام ١٩٧٢ استغل نيكسون المعلومات المتاحة لإعادة انتخابه رئيسا لأمريكا، ولكن الصحافة الحرة والواعية استطاعت فضح هذه المؤامرة فيما عرف باسم فضيحة ووترجيت، وأقيل بسببها نيكسون من رئاسة أمريكا وتم حل هذا الجهاز . وفى عام ١٩٧٦ تم الكشف عن قيام شركة لوكهيد لصناعة الطائرات برشوة عدد من المسئولين فى اليابان وهولندا وإيطاليا وتركيا وذلك بهدف ترويج مبيعاتها من الطائرات .

وهناك العديد من فضائح الفساد العالمية فى كثير من دول العالم المتقدمة منها والمتخلفة، وهذا يؤكد أن الفساد ظاهرة عالمية لا تقتصر على مجتمع دون آخر، بل هو ظاهرة إنسانية ترتبط بدوافع قوية لدى الإنسان خاصة دافعى التملك والخلود وهما من الدوافع الجامحة لدى الإنسان خاصة حين تضعف لديه الضوابط القيمية، أو تضعف آليات رقابته .

وبعبارة أخرى فإن الفساد مرتبط بالإنسان وبالحياة فى كل المراحل التاريخية، فهو أشبه بالميكروبات والفيروسات التى تخترق الجسد فى كل لحظة وتحاول الفتك به، ولولا وجود جهاز المناعة فى الجسد الحى لهلك الناس جميعا، وكذلك الفساد يهاجم

المجتمعات البشرية فى كل لحظة، والفرق بين مجتمع صحيح ومجتمع عليل ليس هو فى غياب الفساد عن الأول ووجوده فى الثانى وإنما فى قدرة المجتمع الصحيح على اكتشاف الفساد واعتباره دخيلا على منظومته وبالتالى مقاومته بآليات قادرة على ذلك طول الوقت، أما المجتمع العليل فإن الفساد يتسلل إليه دون وعى به وبخطورته ودون استنهاض للهمم لمقاومته ودون وجود آليات للمواجهة . ولا شك أن الدول المتقدمة لا تخلو من فساد بدرجة أو بأخرى ولكنها تملك وسائل إعلام حرة وقوية قادرة على تسليط الضوء على ذلك الفساد وتملك أيضا رأيا عاما وجماعات ضغط قادرين على توجيه الآليات المؤسسية لاجتثاث الفساد أو محاصرته فى أضيق الحدود، أما الدول المتخلفة (والتى نحن منها للأسف الشديد) فوعيها بمظاهر الفساد أقل، كما أنها تفتقد للإعلام القادر على كشف الفساد بشكل فعّال، وتفتقد للرأى العام وجماعات الضغط ذات التأثير، وتفتقد أكثر لآليات محاصرة الفساد أو اجتثاثه، ومن هنا تنكشف المغالطة الخطيرة التى يروج لها أنصار الفساد ورعاته من أن الفساد موجود فى كل المجتمعات وليس مقصورا على مجتمعنا المصرى أو المجتمعات العربية فهو ظاهرة إنسانية توجد حيث يوجد الإنسان، فهذه كلمة حق يراد بها باطل ومقولة يراد بها تسهيل قبول الناس للفساد كأمر واقع وسنة كونية لا يمكن تلافيها أو تفاديها .

إذن فهناك فوارق جوهرية تخص ظاهرة الفساد بين المجتمعات المتقدمة والمتخلفة نوجزها فيما يلى :

١ – الفساد فى الدول المتقدمة استثناء، أما فى الدول المتخلفة فهو قاعدة للسلوك الخاص والعام خاصة لدى الطبقة الحاكمة والمتحكمة .

٢ – هناك وعى فى الدول المتقدمة بمظاهر الفساد وخطورته على المجتمع فى حين نرى فى الدول المتخلفة جهلا بكل ذلك وغموضا حول ماهو مقبول وماهو غير مقبول سياسيا وأخلاقيا وقانونيا .

٣ – النخبة فى الدول المتخلفة أكثر ميلا للفساد وممارسة له من ناحية الكم والكيف.

٤ – المواطن فى الدول المتخلفة أكثر قبولا للفساد كأمر واقع لا يملك تغييره وربما لا يفكر فى تغييره أو يسعى إلى ذلك، بل قد يتقبله ويمارسه هو شخصيا كنوع من التكيف المشوه مع الواقع الحتمى فى نظره، أو يفعله توحدا مع النخبة التى تحكمه وتتحكم فى مصيره، وهو ما نسميه بالتوحد مع المعتدى فبدلا من أن يصبح ضحية لنخبة تمتص دمه، يتحول هو الآخر إلى فاسد يحاول أن يأخذ حقه ولو أمكن ينتزع فوق حقه حقوقا أخرى.

٥ – هناك العديد من وسائل الكشف عن الفساد فى الدول المتقدمة مثل وسائل الإعلام المختلفة والنقابات المهنية واستطلاعات الرأى وغيرها فى حين نرى فى الدول المتخلفة غيابا لهذه الآليات الكاشفة أو ضعفا شديدا لها أو تنكيلا بالقائمين عليها أو تجاهلا لما تكشفه .

٦ – توجد فى الدول المتقدمة مؤسسات وآليات لديها القدرة على تتبع الفساد الذى تكشفه وسائل الإعلام أو الأفراد أو الجمعيات وتقوم بمحاسبة المتورطين فيه أيا كانت مواقعهم، أما فى الدول المتخلفة فإما أننا نجد غيابا لهذه المؤسسات، أو وجودها بشكل صورى غير قادر على محاسبة أحد .

٧– الدكتاتورية فى الدول المتخلفة تشكل راعيا أساسيا للفساد ورموزه على الرغم من ادعاءاتها بمحاربته فى الظاهر، وهذا يشكل تحديا هائلا أمام أى محاولة للإصلاح.

٨ – تجرى محاولات مستمرة لتزييف الوعى فى الدول المتخلفة وبهذا يفقد المواطن العادى رؤيته للأمور فلا يتشكل رأى عام مضاد للفساد، فى حين نرى رأيا عاما قويا ومؤثرا ومضادا للفساد بكل صوره فى الدول المتقدمة .

٩– للرأى العام وزن وتأثير وقوة ضغط على صناع القرار فى الدول المتقدمة فى حين ينعدم تأثير الرأى العام أو يضعف جدا فى الدول المتخلفة ولهذا لا يأبه الحكام الفاسدون بالرأى العام فى تلك الدول .

١٠- تشكل المنظومة القانونية سياجا ضد انتشار الفساد فى الدول المتقدمة، فى حين نجد تلك المنظومة مضطربة فى الدول المتخلفة سواء من حيث صياغتها التى تخضع لهوى ومصالح الحاكم الفرد أو من حيث تطبيقها الذى يتم بشكل انتقائى لا يحقق مصالح جموع الناس بل يحقق حماية للفاسدين الكبار والصغار .

١١ - مع شيوع الفقر والجهل والمرض فى الدول المتخلفة تنهار القيم الأخلاقية مثل الصدق والأمانة وإتقان العمل، وتشيع قيم الخوف والإنتهازية والتملق والفهلوة، تلك القيم التى تشكل أرضا خصبة يترعرع فيها الفساد .

١٢- النخبة فى الدول المتخلفة إما رخوة أو هشة أو مفتتة أو مستقطبة أو يتم احتواؤها بواسطة السلطة القائمة، ولهذا تصبح غير قادرة على إدارة دفة الأمور فى اتجاه الإصلاح حتى ولو كانت تملك رؤية لذلك الإصلاح، أما فى الدول المتقدمة فإن النخبة تشكل ضمير المجتمع وتملك مفاتيح التغيير والإصلاح فيه ولا يملك أحد تفتيتها أو سحقها أو استقطابها أو شراءها .

١٣- لأسباب سياسية واقتصادية مختلفة تقوم بعض الدول القوية برعاية الأنظمة الفاسدة فى الدول المتخلفة حيث تكون مستفيدة من وجودها أو تخشى وجود قوى أخرى فى السلطة وهذا يشكل دعما للفساد وحماية له فى الدول المتخلفة لا نجده فى الدول المتقدمة التى تملك إرادة حرة بشكل نسبى .

١٤- أنظمة الحكم فى الدول المتخلفة استبدادية ولا تتغير بسهولة لذلك يعشش الفساد فيها لسنوات طويلة دون وجود فرصة لتغييره، وهذه الأنظمة تأمن المحاسبة لأنها تعرف أنها أبدية فى الحكم، أما فى الدول المتقدمة فإن آليات التغيير السياسى تزيح أى نظام فاسد فى أقرب انتخابات وتستبدله بنظام آخر له القدرة على كشف مساوئ النظام السابق ومحاسبة رموزه .

وبكلمات موجزة نستطيع القول بأن الفساد فى الدول المتخلفة أشبه بفيروس فى جسد بلا مناعة، وهذا الفيروس يتسلل إلى نواة الخلية (نظام الحكم ومؤسساته) فيصيغ

برامجها طبقا لاحتياجاته ثم يتسلل إلى المجتمع فينتشر المرض وتتغير البرامج كلها طبقا للبرنامج الفيروسى .

أركان الفساد :

وهناك أركان للفساد تتحالف مع بعضها وتتآمر لخلق منظومة الفساد التى تحاول أن تستفيد منها (أو تتوهم أنها ستستفيد منها) وهى :

– الحاكم المستبد (ويمثله فرعون)

– السياسى الوصولى، الذى يسخر ذكاءه وخبرته فى خدمة الحاكم المستبد، وتثبيت حكمه، وترويض شعبه للخضوع له (ويمثله هامان) .

– الرأسمالى أو الإقطاعى المستفيد من المنظومة الإستبدادية الفاسدة، فهو يؤيد تلك المنظومة ببذل بعض ماله ليكسب أموالاً أكثر من عرق الشعب ودمه (ويمثله قارون) .

ولقد ذكر القرآن هذا الثالوث المتحالف على الفساد، ووقوفه فى وجه رسالة موسى عليه السلام الهادفة إلى إصلاح الدنيا والآخرة، «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذّاب» «غافر : ٢٣، ٢٤ » وهناك رابطة عضوية بين الإستبداد والطغيان وبين الفساد نراها فى قوله تعالى : «إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين» (القصص ٤) ، «وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذى الأوتاد، الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد» (الفجر ٩–١٢) . وقد يتغير ترتيب هذا الثالوث فى مرحلة متأخرة من الفساد حيث يصبح لرأس المال السيطرة الأعلى على الحكم، ولو من وراء ستار، وهذه دلالة تدهور الأوضاع ووصولها إلى مرحلة الخطر، وهذا ما يتضح فى الآية التالية حين يذكر قارون قبل فرعون «وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين» (العنكبوت ٣٩) .

والعجيب – كما يقول الدكتور يوسف القرضاوى– أن قارون كان من قوم موسى، ولم يكن من قوم فرعون، ولكنه بغى على قومه وانضم إلى عدوهم فرعون، وقبله فرعون معه، دلالة على أن المصالح المادية هى التى جمعت بينهما برغم اختلاف عروقهما وأنسابهما .

الشعب الخاضع المستكين : فلا يمكن أن ينتشر فساد ويتغلغل فى شعب حى يرفض الفساد ويقاومه بيده وبلسانه وبقلبه . وقد ذم القرآن المتخاذلين عن مقاومة الفساد والمنكرات، واستخدم فى ذلك الذم لفظ اللعن «لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون* كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» (المائدة ٧٨ ،٧٩) . وفى الحديث الشريف يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه،فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم وغيره عن أبى سعيد الخدرى) . وللدكتور القرضاوى تعليق مهم على هذا الحديث حيث يقول: «ومن الخطأ الظن بأن المنكر ينحصر فى الزنى وشرب الخمر، وما فى معناها، إن الإستهانة بكرامة الشعب منكر أى منكر، وتزوير الإنتخابات منكر أى منكر، والقعود عن الإدلاء بالشهادة فى الإنتخابات منكر أى منكر، لأنه كتمان للشهادة، وتوسيد الأمر إلى غير أهله منكر أى منكر، وسرقة المال العام منكر أى منكر، واحتكار السلع التى يحتاج إليها الناس لصالح فرد أو فئة منكر أى منكر، واعتقال الناس بغير جريمة حكم بها القضاء العادل منكر أى منكر، وتعذيب الناس داخل السجون والمعتقلات منكر أى منكر، ودفع الرشوة وقبولها والتوسط فيها منكر أى منكر، وتملق الحكام بالباطل وإحراق البخور بين أيديهم منكر أى منكر، وموالاة أعداء الله وأعداء الأمة من دون المؤمنين منكر أى منكر . وهكذا نجد دائرة المنكرات تتسع وتتسع لتشمل كثيرا مما يعده الناس فى صلب السياسة، فهل يسع المسلم الشحيح بدينه، الحريص على مرضاة ربه، أن يقف صامتا أو ينسحب من الميدان هاربا أمام هذه المنكرات وغيرها ... خوفا أو طمعا أو إيثارا للسلامة ؟» .

وخيرية أى أمة ارتبطت بحيويتها وقدرتها الدائمة على مقاومة الخبائث والمنكرات والمفاسد التى تتسلل إلى جسدها من وقت لآخر ، وهذا مصداق لقوله تعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» . أما إذا عجزت الأمة عن تنظيف صفوفها ولفظ خبثها واستسلمت للظلم وخضعت للظالمين خوفا وطمعا، فهنا يصدق عليها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم : يا ظالم فقد تودع منهم» أى فقدوا استحقاق الحياة ولحقوا بالأموات، وفى بعض الروايات : «وبطن الأرض خير لهم من ظاهرها» .

ونظرا لخطورة تغلغل الفساد فى أى مجتمع نرى أن النصوص الدينية تعلى من أمر مقاومته وتضعه فى الأولويات، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم حين سئل عن أفضل الجهاد بأنه كلمة حق عند سلطان جائر، وكأنه هنا فضل الإصلاح الداخلى على جهاد الأعداء على الحدود أو خارجها، وهذا منطقى جدا فالفساد الداخلى يمهد ويسهل للغزو الخارجى بكل أنواعه العسكرية والإقتصادية والثقافية . ومن أجل هذا تصبح الشهادة على طريق الإصلاح الداخلى من أعلى درجات الشهادة فى سبيل الله كما ورد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء حمزه، ثم رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله . وربما نفهم ذلك فى إطار أن الإصلاح الداخلى يحتاج لقدر عال من الوعى وقدرة على الخروج على المألوف والسائد فى المجتمع الذى عمه الفساد وأصبح عرفا مقبولا فيه، ثم قدرة أكبر للخروج على ضغط الجماعة، ثم قدرة أكبر وأكبر لمواجهة أركان الفساد والمستفيدين منه بكل مالهم من سطوة وغلبة وتأثير فى ظل رأى عام متصف بالسلبية والخوف واللامبالاه .

أدوات الفساد :

لابد للفساد من أدوات للترهيب والترغيب حتى تخضع له الرقاب ويسلم له العباد (أو العبيد) إرادتهم وخياراتهم . والفاسد والمفسد يعرف جيداً مواطن ضعف البشر ويحاول استغلالها بأبشع الطرق وأكثرها حقارة ودهاءاً فى نفس الوقت . ونذكر

من هذه الأدوات حسب ترتيب أهميتها :-

١-**السلطة**:- فالأب الفاسد يستغل نفوذه المالى وقوته الجسدية ومكانته المعنوية فى إفساد أبنائه، والمسئول الفاسد يستغل ما يملك من صلاحيات للتحكم فى رقاب مرؤسيه وإفسادهم حتى يستطيع ممارسة فساده دون اعتراض من أحد، والحاكم الفاسد يستغل جنوده (الشرطة والجيش) لإرهاب رعيته ويستغل النظام السياسى الموالى له لإضفاء الشرعية على أفعاله وتجريد خصومه من تلك الشرعية ووصفهم بالتآمر والخيانة والإفساد فى الأرض وتعكير صفو الأمن، ويسعى ذلك الحاكم الفاسد إلى إفساد من حوله ومن تحته ومن خلفه (بوعى أو بدون وعى) وذلك كى تتوافق المنظومة كلها على تردد واحد ونغمة واحدة يصبح ما عداها نشازا، لأن الفساد إذا وجد وحده دون إفساد تصبح هناك فرصة لالتقاطه والوعى به ومقاومته، لذلك فلابد للفاسدين أن يتحولوا فى مرحلة ما لمفسدين لغيرهم كى تستقر الأمور من حولهم ويموت الوعى العام بالفساد، ويصبح الجميع متورطين فلا يرفع أحد رأسه مدعيا النزاهة أو مطالبا بالإصلاح .

والقرآن يصور هذا الموقف فى قوله تعالى : «إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين» (القصص ٨)وقوله «فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين» (القصص ٤٠)

٢-**المال**:- ومن لا يصلح معه الترهيب بالسلطة يصلح معه الترغيب بالمال، ولهذا يحرص الفاسدون على إمساك الثروة فى أيديهم لتكون وسيلة ضغط على من تحتهم، ووسيلة ترغيب وشراء ذمم .

٣-**المناصب**:- ينتقى الفاسد من بين الناس أولئك المتعطشين للمناصب والراغبين فى العلو بأى ثمن فيستخدمهم ويستعملهم كدروع له وكأدوات لحمايته وتبرير أفعاله، كما أنه يحرص على توريطهم فى الفساد حتى تصبح رقابهم فى يده يقطعها وقتما يشاء ويذلها حسبما يريد ويبتزها طول الوقت، وقد يستخدم بعضهم ككبش فداء يضحى به حين يريد تحلية صورته أو ادعاء محاربة الفساد أمام الرأى العام .

٤- الإعلام:- فالفاسد يحتاج لمن يدارى عوراته ويزين سوءاته ويسوق مشروعاته وأفكاره بين الناس ويبرر أخطاءه ويحولها إلى انتصارات ويمارس التزييف للوعى والتخدير للعقول ودغدغة المشاعر طول الوقت . ومن هنا يمكن أن نعتبر الإعلاميين الموالين لأى فاسد بمثابة سحرة فرعون الذين كانت مهمتهم أن يسحروا أعين الناس بمعنى تزييف وعيهم.

٥- رجال الدين:- ونقصد بهم فئة معينة من رجال الدين يقبلون إضفاء شرعية دينية على مظاهر الفساد والإفساد وإضفاء شرعية على كل أفعال الفاسد وإستغلال المفاهيم الدينية لتبرير وتمرير كل ما يقوم به، وإصدار الفتاوى المبنية على تفسيرات تلوى عنق الحقيقة لمصلحة استمرار الفساد . وكل فاسد يسعى إلى تقريب عدد من رجال الدين (حتى ولو كان هو ملحداً أو علمانياً) لمعرفته بقيمة الدين لدى الناس وتأثرهم به وقد يظهر احترامه للرموز الدينية ويحرص على الظهور الإعلامى معهم فى المناسبات المختلفة .

أنماط الفساد:

هناك أكثر من طريقة لرؤية أنماط الفساد، فبعض الباحثين يقسمه إلى الأنماط التالية بناءا على توزيعه على خريطة المجتمع :

١- الفساد الوظيفي: حين تسود البيروقراطية والرشوة والمحسوبية فتصبح هى معيار التعيين ومعيار الأداء .

٢- الفساد القانوني: ويظهر فى العبث بمواد الدستور لصالح النخبة الحاكمة، أو أصحاب المصالح الخاصة، ويمتد ذلك إلى القوانين المنظمة لعجلة الحياة فى المجتمع، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يتخطاه إلى تجاوز أحكام الدستور، وتعطيل القوانين أو التطبيق الإنتقائى لها بما يحقق المصالح الذاتية لرعاة الفساد والمستفيدين منه مع إهدار أحكام القضاء فى حالة صدورها لغير صالح النخبة الحاكمة والمتحكمة .

٣- **الفساد السياسي**: ويظهر فى دكتاتورية النظام الحاكم واستبداده وأبديته، وفى اقتناص السلطة واستبعاد بقية التيارات السياسية، وفى تكوين الدولة القرصان التى تشبه فى سلوكها العصابات من حيث السرية والنوايا الخبيثة والعمل على امتصاص دماء المجتمع لصالح عدد قليل من الأشخاص مع اعتياد الكذب والتحايل والخداع . كما يظهر فى صورة تزوير الإنتخابات وتزييف إرادة الجماهير وتغييبها عن إدارة شئون البلاد، مع الحرص على التعيين الإنتقائى فى المراكز القيادية بحيث تستبعد كل العناصر غير الموالية مهما كانت قدراتها وكفاءاتها، فالمعيار الوحيد للإقتراب من قمة السلطة هو الولاء الحزبى أو الفئوى أو الأيديولوجى فى معناه التعصبى الضيق، وبهذا يتم تجريف النخبة السياسية مع الوقت من كل العناصر الموضوعية الصالحة ذات الكفاءة وذات الرأى الشجاع المستقل فى حين تتراكم العناصر الفاسدة وتجتذب إليها كل من هم على شاكلتها بحثا عن التواؤم والإنسجام وتغطية للعورات .

٤- **الفساد الديني**: وهودائما تابع للفساد السياسى، حيث يعمد أركان الفساد السياسى إلى تقريب العناصر الرخوة من رجال الدين لاستخدامهم فى تبرير أفعالهم وتزيينها للعامة وإضفاء الشرعية عليها، فهم يعلمون مدى تأثر الناس بالرموز الدينية ومدى قوة الشرعية الدينية فيعملون على توظيفها حتى وهم أنفسهم غير منتمين لقيم الدين ومبادئه، أو حتى وهم يعلنون أنه لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة، وهذا يشكل استخداما انتقائيا للدين لتحقيق مصالح النخبة الحاكمة مع حرمان الآخرين من نفس السلاح .

٥- **الفساد المجتمعي**: وهو مكمن الخطر، حيث ينتشر فيروس الفساد إلى طبقات المجتمع المختلفة فيتورط الجميع فى الفساد وتتلوث أيديهم به فيفقدون القدرة على رؤيته فضلا عن استنكاره ومدافعته، وبهذا يستقر الأمر للفاسدين، ويصبح الشعار القائم ياعزيزى كلنا لصوص ، فلا يجرؤ أحد على ادعاء الطهارة أو المطالبة بالإصلاح، وهنا يصبح الفساد هو القاعدة، ويصبح المصلحون غرباء ومثيرين للقلق

ومرفوضين من الغالبية الفاسدة، وهذا يسهل على السلطة الفاسدة اجتثاثهم ورميهم بتهم مثل تكدير الأمن العام أو السعى لقلب نظام الحكم (المقلوب فعلا) .

واستنادا إلى معيار الرأى العام يقسم بعض الدارسين الفساد إلى ثلاثة أنواع (نقلا عن كتاب الفساد السياسى فى إفريقيا) :

١ - **الفساد الأسود:** وهو يتضمن كافة الأعمال التى تحظى باتفاق الأغلبية فى مجتمع معين (سواء من جانب النخبة أو الجماهير) على أنها تندرج تحت إطار الممارسات الفاسدة التى ينبغى التخلص منها ومعاقبة من يقومون بها .

٢ - **الفساد الرمادي:** وهو يوجد حيثما ترى بعض عناصر النخبة فى مجتمع معين أن عملا ما يعد من قبيل الفساد وتقوم بإدانته بينما يكون رأى الجماهير غامض فى هذا الصدد .

٣ - **الفساد الأبيض:** وهو ينطبق على الأعمال التى ترى كل من النخبة والجماهير فى مجتمع معين أنه يمكن التغاضى عنها حيث أنها لا تستحق العقاب، وإن كانت بعض عناصر النخبة ترى ضرورة توقيع مثل هذا العقاب .

الفساد ومواطن العفة:

قد يتسامح المجتمع مع الكثير من مظاهر الفساد السائدة على مستوى السلطة الحاكمة أو على مستوى المؤسسات أو على مستوى الوزارات أو البرلمان أو غيرها، ولكن هناك مواطن يعتبرها أى مجتمع مواطن عفة يحرص على بقائها خارج منظومة الفساد قدر استطاعته، نذكر من هذه المواطن : القضاء، والشرطة، والتعليم، والطب، والمؤسسة الدينية . وتتحدد مواطن العفة على أساس كونها صمام أمان لأى مجتمع وحصون أخيرة يلجأ إليها الجميع ويحتاجها الجميع فى اليسر والعسر، ولهذا يكون ثمة اتفاق غير مكتوب بالمحافظة على هذه القلاع الأخيرة بعيدة عن مستنقع التلوث، ولهذا يصبح اقتراب الفساد من مواطن العفة فى المجتمع ظاهرة تثير الكثير

من القلق بل تستحق أن تصبح زلزالا يهز كل أركان المجتمع ويدعوه للإنتباه قبل فوات الأوان .

فمثلا إذا بدأنا نسمع عن أشياء كثيرة تشوب تعيينات النيابة العامة ونسمع ونقرأ عن حوادث رشوة تمس بعض القضاة أو تورطات سياسية لبعض رموز العدالة أو محاولات استقطاب للجهاز القضائى بواسطة السلطة التنفيذية، كل هذا يجعل من حقنا أن نقلق على هذا الحصن المنيع (أو الذى يجب أن يظل منيعا)، ومن هنا نفهم وقوف الناس مع القضاة فى أزمتهم وحرصهم على مساندتهم فى تنظيف صفوفهم ومنع تسلل المغريات السياسية أو المالية أو الحزبية إليهم .

وإذا رأينا جهاز الشرطة يتمدد بل ويتوحش ويصبح وسيلة فى يد أفراد معدودين يحققون به مصالحهم وأمنهم بعيدا عن أمن الناس، أو أن يصبح جهازا للتنصت على أصحاب الرأى والمعارضين لحزب من الأحزاب أو أن يصبح فى خدمة مصالح هذا الحزب دون سواه، أو أن يصبح أداة للترهيب السياسى والإجتماعى بما يعوق محاولات الإصلاح ويعوق ضغط الرأى العام فى اتجاه التغيير، كل هذا ينزع عن جهاز الشرطة دوره الأساسى فى حماية مصالح الناس وتحقيق الأمن لهم، وإتاحة الفرصة أمامهم للتعبير السلمى عن احتياجاتهم . وحين يتحول جهاز الشرطة إلى أداة لتزوير الإنتخابات وتزييف الإستفتاءات ومنع الناس من الوصول إلى اللجان، ومنع الناس من التظاهر السلمى الذى تكفله كل دساتير الدنيا كحق من حقوق الإنسان فى المجتمعات الحديثة فإن ذلك إشارة إلى ابتعاد هذا الجهاز عن وظيفته . وحين يصبح الجهاز الأمنى متهما من الرأى العام ومن الجهات الرقابية المحلية والدولية بانتهاك حقوق الإنسان وممارسة التعذيب فإن ذلك ضوء أحمر وجرس إنذار يضع ذلك الجهاز المهم فى مواجهة غير منطقية وغير إنسانية مع أهله وناسه . وحين يتعامى جهاز الشرطة أو بعض أفراده عن تجاوزات قانونية أو أخلاقية لحساب بعض الأشخاص أو الأحزاب فإن ذلك يسحب عن ذلك الجهاز موضوعيته وحياديته ومصداقيته . ولا

يتصور أحد أن تتحول السلطة المخولة لأفراد هذا الجهاز لأداء وظائفه مصدرا لتحقيق المصلحة الشخصية وأن تتحول إلى استغلال للنفوذ وتحطيم للقوانين العامة وانتهاكا للحقوق الخاصة، وكمثال على ذلك قيام بعض المنتسبين إلى جهاز الشرطة بتسهيل الغش فى الإمتحانات لأبنائهم أو أبناء أقاربهم أو أصدقائهم استنادا إلى سلطتهم المطلقة فى المجتمع .

وإذا أصبحت الدروس الخصوصية فى مرحلة ما تمثل نوعا من التعليم الموازى ثم أصبحت فى الوقت الحالى تمثل نوعا من التعليم البديل، وتسرب الطلاب من المدارس إلى حجرات مغلقة فوق الأسطح وتحت السلالم، وانسحب مفهوم التربية، وأصبح الطلاب يلتقون بأستاذهم على القهوة لتحديد مجموعات الدروس الخصوصية وهو يشاركهم شرب السجائر والبانجو، وأصبح الغش فى الإمتحانات قاعدة يعتبر الخارج عليها أو الرافض لها متعنتا ومتشددا وظالما، فإننا أمام صورة من صور تسرب الفساد لأحد مواطن العفة فى أى مجتمع وهو التعليم . فإذا انتقلنا إلى الجامعات ،والتى كانت حرما فى السابق سيحزننا امتداد الفساد إليها بل وتمدده فيها فى صور متعددة نذكر منها على سبيل المثال : سقوط هيبة الأستاذ الجامعى من خلال تورطه فى المتاجرة بالمذكرات أو الكتب مع طلبته أو إعطاء الدروس الخصوصية، أو التورط فى تسريب الإمتحانات لأبنائه أو أقاربه أو معارفه، أو تعيين من يشاء واستبعاد من يشاء بناءا على معايير شخصية أو عائلية أو سياسية أو مادية . كما أن الجهاز الإدارى فى الجامعة أصبح متورطا فى الكثير من مظاهر الفساد العامة كالرشوة والمحسوبية وغيرها. ولم تعد أسوار الجامعة تشكل حرما كما كانت فى الماضى فأصبح الجهاز الأمنى داخل أسوارها يعين هذا ويستبعد ذاك ويحرك الأمور من خلف الستار أحيانا ومن أمام الستار فى أحيان أخرى، وأصبحت التعيينات فى المناصب القيادية العليا مرهونة بحسابات أخرى قد يكون آخرها الكفاءة العلمية والإدارية . وأصبحنا نسمع عن سرقة الأبحاث وتلفيقها وتأليفها ونسمع عن الرشاوى فى الحصول على الشهادات

والترقيات . وتدنت المستويات العلمية داخل الجامعات وأصابها ما أصاب بقية المجتمع من خلل، وتم اختراقها بكل صور الإختراق المرضية .

أما مجال الطب والعلاج فله حساسية خاصة حيث يتصل بصحة الناس وحياتهم، وقد كان الطبيب فيما مضى يسمى حكيما ويحظى باحترام وإجلال ومصداقية لا يحظى بها أحد غيره، ولم لا وهو يطلع على عورات الناس وأسرارهم برضاهم وثوقا فيه وتسليما بأمانته، وهو يعمل على الحفاظ على صحتهم وأرواحهم . وإذا بنا نسمع كثيرا فى السنوات الأخيرة عن عمليات متاجرة بصحة الناس وحياتهم وأعضاء جسمهم، وعن عمليات نصب واحتيال وجشع لدى بعض الأطباء، وإلى مغالاة فى الأجور بشكل استفزازى، وإلى عمليات تبادل منافع مع المعامل ومراكز الأشعة وشركات الأدوية لامتصاص دم المريض، وإلى حالات إهمال صارخة ومفزعة فى العيادات والمستشفيات الخاصة منها والعامة . وزيارة واحدة لأى مستشفى حكومى تضعنا أمام حقيقة مفزعة وهى أن الفساد والإهمال قد وصلا إلى الحصن الطبى وتغلغلا فى كثير من أجزائه .

أما المؤسسة الدينية فهى تشكل ضمير المجتمع وتعتبر بمثابة حلقة وصل بين الأرض والسماء أو قنطرة بين الدنيا والآخرة، ولهذا يقلق الجميع حين يرى أى مظهر للتدهور فى أى ركن من أركان تلك المؤسسة مثل الفتاوى الموظفة سياسيا، أو الإستقطاب لمصلحة بعض الأشخاص أو المؤسسات، أو الإنفلات الدعوى، أو الجرى وراء الكاميرات والميكروفونات بحثا عن الشهرة والثروة، أو تبنى الآراء الشاذة والغريبة والدعوة إليها خارج إطار التاريخ وخارج نطاق المنطق السليم وبعيدا عن أصول ومقاصد الشريعة بحثا عن الفرقعة الإعلامية والشهرة الشخصية، أو الجهل الشديد بالدين لدى خريجى الجامعات الدينية وتردى مستوى الخطباء فى المساجد، أو شيوع التفكير الخرافى لدى المنتمين للدعوة الدينية. كل ذلك يضع علامات حمراء حول بعض أو الكثير من أركان المؤسسة الدينية التى يحرص الجميع على بقائها بيضاء ناصعة .

ووصول الفساد إلى مواطن العفة فى أى مجتمع دليل على أننا أمام مرحلة متأخرة وخطيرة، وأن الإنهيار التام قد يصبح وشيكا، أو أن المجتمع يدخل فى مرحلة اللاعودة، أو أن ثمة اتفاق عام على قبول الفساد وتغلغله بلا أى استثناءات، أو أن محاولات الإصلاح قد تصبح مستحيلة إلا بعد زوال كل المنظومات القائمة وقيام منظومات جديدة وأن هذا الأمر قد يحوى بداخله انهيارات خطيرة تستمر لسنوات طويلة تأتى على البنية الأساسية فى المجتمع، وقد تقضى على أمنه وأمانه لسنوات طويلة (كما حدث فى العراق) .

أعراض الفساد الرئيسية:

١ - **الرشوة:** وهى من أكثر أعراض الفساد ظهورا، ويرى أرنولد روجو وهارولد لازويل أنها جوهر الفساد من حيث أنها تؤدى لانهيار النظام العام حيث لا يرى الراشى أو المرتشى إلا تحقيق مصلحتهما الشخصية ولو على حساب المصلحة العامة، وهنا تنهار المصلحة العامة . وتبدأ الرشوة على استحياء فى صورة هدايا ثم تتحول إلى إكراميات ثم تتم من خلال درج المكتب المفتوح ثم تطلب علانية بعد ذلك كحق مكتسب لا تتم قضاء الحوائج إلا به .

٢ - **المحسوبية:** وفيه تحل العلاقات الشخصية والعائلية والطائفية والحزبية محل الكفاءة والخبرة فى الوظائف العامة، وبذلك تنهار معايير الإختيار الموضوعية ويسند الأمر إلى غير أهله .

٣ - **استغلال المنصب العام:** وطبقا لتعريف جيمس سكوت فإن استغلال المنصب العام هو ذلك السلوك القائم على التخلى عن الواجبات الرسمية المرتبطة بالوظيفة العامة فى سبيل تحقيق مصلحة خاصة أو انتهاك لقواعد رسمية فى سبيل تكوين أنماط معينة من النفوذ والتأثير لتحقيق مصلحة خاصة .

٤ - **الغش فى الإمتحانات والتزوير فى الإنتخابات:** هناك علاقة وثيقة بين شيوع الغش فى الإمتحانات وتزوير الإنتخابات فكلاهما تنتمى لنفس الإضطراب الأخلاقى الذى

يتيح تغيير الحقيقة ويتيح الحصول على أشياء دون وجه حق ويتيح تزييف الحقائق وشراء الضمائر وبيعها وإفساد الذمم، وصعود من لا يستحق . وهنا تتكون معايير جديدة للصعود مجملها الكذب والتحايل والسرقة والخداع، وتغيب فى المقابل معايير الصدق والأمانة والإجتهاد والعمل الدؤوب، وشيئا فشيئا يتزايد عدد الصاعدون بوسائل الغش والتزوير فتتكون نخبة سياسية أو إدارية فاسدة نشأت على هذه القيم ولذلك تدعو لها وتدعمها .

الدولة الرخوة:

فى المراحل المتوسطة من الفساد تتحول الدولة إلى ما يسمى الدولة الرخوة وهى تتسم بما يلى :

– اللامبالاة وبطء الحركة، والتى تصل إلى درجة الجمود ويظهر ذلك فى ثبات الشخصيات الحاكمة لسنوات طويلة دون تغيير وتثبيت السياسات والممارسات الحكومية حتى مع ثبوت فشلها .

– ضعف الإستجابة لمطاب الناس واحتياجاتهم فترى الحكومة وكأنها لا تسمع الشكوى الصادرة من فئات كثيرة فى المجتمع، وإذا سمعت فهى تستجيب ببطء شديد لا يتناسب مع المواقف وسخونتها أو لا تستجيب على الإطلاق .

– لا تتحرك أجهزة الدولة إلا حين حدوث كوارث كبرى، وما أن تمر الكارثة حتى تعود أجهزة الدولة إلى سباتها فى انتظار كارثة أخرى قادمة .

– ضعف القدرة الرقابية على الأشخاص والأجهزة والمؤسسات بما يتيح فرصة مواتية لتمدد الممارسات الفاسدة دون خوف من عقاب .

–عدم وجود مشروع قومى أو هدف عام يجمع طاقات الناس والمؤسسات لتحقيقه .

– الإستهانة بالكرامة الوطنية والنظر بتراخ واستخفاف إلى ما يهدد الأمن القومى، والإكتفاء بتحقيق الأمن الشخصى والمصالح الذاتية للنخبة الحاكمة .

– يصبح الدور الخارجي (على المستوى الإقليمي أو الدولي) للدولة الرخوة باهتا وضعيفا، وتفقد تأثيرها في الأحداث، وتصبح تحركاتها مجرد ردود أفعال للأحداث أو وسيط معنوي بين الأطراف .

– تتميع لديها الثوابت العقائدية والسياسية والتاريخية والحضارية، وينعدم لديها الإحساس بالهوية والقيمة، وبالتالي تتقبل بسهولة الكثير من المواقف المهينة على المستوى الدولي .

– تفقد القدرة على رعاية شعبها في الداخل ورعاية أبنائها في الخارج، بل تصبح هي عالة على هؤلاء وعبئا عليهم .

الدولة القرصان:

وهي تظهر في المراحل المتأخرة من الفساد، وهي تسبق الإنهيار العام للنظام مباشرة، ذلك الإنهيار الذي يمكن أن يحدث في غضون شهور أو سنوات ولكنه بالضرورة آت آت، لأن قوانين المجتمعات لا تحتمل وجود الدولة القرصان لفترات طويلة، كما أن قوانين القرصنة تجعل الجميع يأكلون بعضهم البعض فيصبح الإنهيار حتميا . وفيما يلي خصائص الدولة القرصان كما تتضح من الدراسات النفسية والإجتماعية والسياسية :

– سيطرة الفرد الحاكم أو أسرته على مقاليد الأمور بشكل مطلق، وترسيخ نظام الحكم الدكتاتوري المستبد، وتوجيه سائر الأمور لتحقيق المصالح الشخصية للحاكم على أنها المصالح القومية العليا، واغتصاب السلطة، واعتبار البلد رهينة في يد الحاكم وبطانته .

– تكوين بطانة حول الحاكم الفرد تحميه وتحمي في نفس الوقت مصالحها الذاتية، وتصبح هذه البطانة مسيطرة على كافة الأجهزة والمؤسسات وتوجهها لتحقيق مصالحها ومصالح الحاكم الفرد .

– يصبح هدف الحاكم الفرد وبطانته البقاء فى مقاعدهم واستمرار تدفق الأموال إلى حساباتهم وإحكام سيطرتهم على مقاليد الأمور لأطول فترة ممكنة، ولضمان هذه السيطرة يتم تكوين أعين وأذرع من الأجهزة الأمنية والأجهزة الحكومية تكون مهمتها حماية مصالح النخبة الحاكمة وضمان بقائها والتخلص من معارضيها .

– تتحول الأعين والأذرع إلى أدوات فساد تنتشر فى كل الأجهزة والمؤسسات، وتترسخ مع الوقت قيم الإنتهازية والقرصنة والسلب والنهب والنفاق والخداع والكذب، وشيئا فشيئا تتحول أجهزة الدولة إلى أوكار للفساد .

– يصبح الفساد هو أسلوب الحياة المعتمد فعليا على المستوى الرسمى والشعبى، وشيئا فشيئا تغيب صيحات الإستنكار والإستهجان لذلك الفساد .

– تتحالف أجهزة الدولة مع رموز الفساد وتسهل لهم الحصول على الصفقات وتحقيق الأرباح الخيالية على أن يقتسم الجميع الكعكة فيما بعد، وتبسط أجهزة الدولة حمايتها على رموز الفساد حماية لنفسها وحفاظا على مصالحها .

– يتم اغتصاب السلطة فى أيدى أفراد معدودين أو فرد واحد وتستبعد بقية تيارات وفئات المجتمع، ويحدث هذا إما بشكل سافر، أو تحت ستار ديموقراطى خادع من خلال إجراء انتخابات أو استفتاءات مزورة تتحدد نتائجها سلفا .

– يحدث تحالف واضح بين رجال السياسة ورجال المال ليخدم كل منهما مصالح الآخر ويستبعد المفكرون والمثقفون والعلماء .

– يتم استخدام عدد من فقهاء القانون الراغبين فى السلطة لتفصيل القوانين وهندسة الدستور والتحايل بكل الطرق بما يحقق مصالح النخبة السياسية والمالية، كما يتم استخدام عدد من رجال الدين ذوى الرخاوة الدينية والشخصية لتمرير وتبرير كافة تصرفات النخبة الحاكمة وإعطائها شرعية دينية .

– وتبالغ الدولة القرصان فى الحديث عن الطهارة والشفافية وسيادة القانون واحترام الدستور بينما هى تدوس كل هؤلاء . وحين ترى أن الدستور أو القوانين تعوق حركتها وتعطل مصالحها تعمد إلى تغيير كل هؤلاء عند أول فرصة ممكنة .

– تتم عمليات تمويه وخداع كثيرة حيث يتشدق النظام بالمصلحة العامة والمصلحة الوطنية والمصلحة القومية ليل نهار فى حين هو يقصد مصلحة الحاكم، ويتحدث عن الأمن القومى فى حين هو يقصد أمن الحاكم وأسرته، ويتوحد الوطن كله مع الحاكم فيصبح أى مساس بشخص الحاكم هو مساس بالوطن فهما فى القدسية سواء، وتظهر تعبيرات مثل الزعيم الملهم أو رب العائلة أو صانع النهضة الحديثة أو المجاهد الأكبر أو المعلم أو قائد العبور للمستقبل أو حبيب الجماهير أو المخلص أو صاحب الحكمة ، وهكذا يحدث تضخيم لذات الحاكم حتى تبتلع بداخلها ذات الوطن ومصالحه، وينجح النظام القائم فى إيهام الناس بأن زوال الحاكم هو زوال للوطن، وأن بقاءه هو صمام الأمان الوحيد للناس .

– كثيرا ما تحتاج الدولة القرصان إلى تأييد ودعم خارجى يضمن استقرارها ويغمض العين عن خطاياها، وفى مقابل ذلك تضحى بالثوابت الوطنية وبالأمن القومى، وترضى بدور التابع أو الشرطى أو السمسار أو البلطجى .

– وفى حالة الدولة القرصان (وهى قمة الفساد السياسى) يتحول جهاز الدولة إلى مؤسسة للفساد والسلب والنهب ويعمل جميع أفراد جهاز الدولة لتحقيق مصالحهم الخاصة مع المبالغة فى الحديث الإعلامى عن المصلحة العامة، والمسئولون فى هذه الحالة يتحايلون على القوانين واللوائح وحتى على الدستور القائم، وتحدث تحالفات واتفاقات مشبوهة بين رجال السياسة ورجال المال بما يحقق مصالح الطرفين على حساب مصالح الجماهير، ويشيع الفساد فى ظل الدولة القرصان حتى يصبح واقعا مألوفا يحاول بقية الناس تعلمه وإتقان آلياته لكى يتكيفوا مع منظومته السائدة .

دوائر المسئولية فى مواجهة الفساد :

للإنسان ثلاث دوائر من حيث رأيه وسلطته وبالتالى مسئوليته نوجزها فيما يلى :

الدائرة الأولى : له فيها رأى وسلطة، كمثل الأب فى بيته، أو المدير فى إدارته، أو الرئيس فى دولته، وهنا تكون مسئولية التغيير كاملة أو شبه كاملة بناءا على مساحة السلطة المتاحة، بمعنى أن التغيير هنا سيكون باليد وباللسان .

الدائرة الثانية : له فيها رأى وليس له سلطة، كالمفكر والإعلامى وصاحب الرأى على المستوى العام، وكالموظف (غير القيادى) فى محل عمله، والأبناء فى الأسره، وهنا يكون التغيير باللسان أو بالقلم أو بإبداء الرأى، أو بضغط الرأى العام، ولا يملك الشخص هنا القدرة على التغيير المباشر باليد لأنه لا يملك سلطة التنفيذ .

الدائرة الثالثة : وفيها لا يملك الشخص رأيا ولا سلطة، وهذه الدائرة إما أنها لا تهم الشخص أساسا لذلك لا يكون فيها رأيا ولا يسعى لسلطة، أو أنها تهمه ولكن محظور عليه إبداء الرأى أو ممارسة الفعل، وهذا المشهد الأخير يكون غالبا فى البيئة الإستبدادية سواء على مستوى الدولة أو مستوى الإدارة أو مستوى الأسرة حيث تصبح وسائل التعبير مغلقة فضلا عن وسائل التغيير . وحتى فى هذه الظروف لم تبرأ ساحة الإنسان من محاولة التغيير وهى التغيير بالقلب، والذى وصفه الحديث النبوى بأنه أضعف الإيمان، أى أنه الدرجة التى لا يصح الإيمان إلا بها، وهى إنكار المنكر واستنكار الفساد على مستوى القلب والمشاعر، وأهمية هذه الدرجة من الإنكار والإستنكار فى ظل ظروف القهر والإستعباد تبدو فى الإبقاء على جذوة الصلاح حية فى القلوب انتظارا للحظة مواتية للتغيير، وهذا الأمر هو بمثابة تعبئة فكرية ووجدانية وروحية ضد المنكر والفساد والظلم والطغيان، وهى ليست انسحابا أو هروبا أو سلبية وإلا لما سماها الحديث النبوى تغييرا، وإنما هى إعداد نفسى داخلى وتطهير للضمائر من قبول الفساد، وتجميع لضغط فردى داخلى يلتقى فى لحظة ما بضغط متجمع فى نفوس أفراد آخرين أنقياء أنكروا المنكر والفساد بقلوبهم ليخلق هذا ضغطا جماعيا يواجه

الفساد والإفساد فى لحظة مواتية للتغيير . وفى الحديث النبوى يسمى هذا الإنكار التعبوى جهاد القلب ففى حديث رواه مسلم عن ابن مسعود - مرفوعا - : ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل .

من هذه الدوائر نرى أن لكل إنسان حظه فى مقاومة الفساد لأن الفساد مرتبط بالإنسان وبالحياة فى كل المراحل، فهو أشبه بالميكروبات والفيروسات التى تخترق الجسد فى كل لحظة وتحاول الفتك به، ولولا وجود جهاز المناعة فى الجسد الحى لهلك الناس جميعا .

ماذا بعد؟:

من السذاجة أن يتصور أحد أن بإمكان هذه الدراسة وضع حل للفساد يغطى كل جوانبه، ومع هذا سنحاول إعطاء بعض المفاتيح الأساسية تتصل غالبا بالبعد النفسى والإجتماعى للفساد .

دعنا نرى الفساد حين يصل إلى قمته لنرى كيف نتعامل معه وهذا يجعل التعامل مع الدرجات الأدنى أكثر سهولة . هناك سيناريوهات متعددة للفساد نذكر منها :

أن تنتبه النخبة الفكرية والثقافية والعلمية لما وصل إليه حال المجتمع من الفساد، خاصة أن هذه النخبة بتكوينها العقلى تكون قادرة على اجتياز عتبة المألوف اجتماعيا واختراق حاجز العتمة وتنبيه عموم الناس للخطر الذى لا يرونه، وبمعنى آخر تكون هذه النخبة عصيّة على الإستلاب الذى تمارسه السلطة على بقية الناس . ولا يكفى التنبيه، بل يحتاج لأن يتبعه تجميع سلمى لهذه النخبة، وإرادة ذات نفس طويل تجعل من العدد القليل منهم نواة يتجمع حولها كل الراغبين فى الإصلاح، ويجب أن تحتفظ هذه الدعوة بسلميتها وحياديتها وموضوعيتها وزهدها فى مكاسب

السلطة أو المال، وحرصها الشريف على المصلحة العامة وسلامة الوطن . ومن خلال جهود هذه النخبة تزداد مساحة الوعى وربما تبدأ آليات أخرى داخل أحزاب أو نقابات أو مؤسسات أهلية فى المجتمع لتحدث ضغطا سلميا على المؤسسات السياسية بهدف الإصلاح الحقيقى، وتكشف فى ذات الوقت أى محاولات للتلفيق أو التحايل أو الخداع. قد يبدو هذا الحل رومانسيا ومبالغا فى التفاؤل، وهذا صحيح فقد تصبح هذه النخبة هدفا للسلطة القائمة تسعى لاستئصالها أو تشويهها أو استقطابها، وهذا ممكن فى حالة تلوث النخبة وضعفها .

أن يستمر الفساد ويتضخم ويصبح سرطانا يأكل بعضه بعضا فيفاجأ الجميع بانهيار مفزع فى أى لحظة تنهار معه أركان البنية الأساسية وتحدث الفوضى وتمر سنوات إلى أن يحدث تجميع مرة أخرى على برامج ورؤى ومنظومات جديدة .

أن يحدث انقلاب على السلطة من داخلها أو من قوة متربصة أخرى وتتحول مقاليد الأمور إلى قوة غامضة لا يعرف أحد نواياها وتوجهاتها، أى أن المصير يوضع فى يد المجهول .

أن يحدث تدخل خارجى مباشر (فى صورة احتلال كما حدث فى العراق) أو غير مباشر (بالضغوط والأعمال المخابراتية) لوضع خريطة جديدة للمجتمع تحقق فى الأساس مصالح القوى الخارجية وتشكل وصاية على الشعب وحكومته الجديدة العميلة فى الأغلب .

أن تحدث هبّة شعبية عارمة تحت تأثير احتياجات أساسية محبطة (كالطعام والشراب والمسكن)، أو جرح للكرامة الوطنية أو مساس بالثوابت الدينية، وتكتسح الجموع الثائرة الغاضبة كل شئ فى طريقها، ولا يمكن التنبؤ بالنتائج فالأمر يخرج هنا عن إطار المنطق العقلانى إلى إطار سلوك الحشد، وأحسن الفروض هو أن تظهر قيادة تستطيع التحكم فى هذا الحشد الهائج بوعود إصلاحية وتغييرات أساسية يحلم بها ذلك الحشد، وقد تصدق هذه الوعود أو لا تصدق، المهم هو صرف مارد الحشد الذى توحش وانتفض بعد صمت طويل .

مراجع الباب السابع

- ا لقرآن الكريم .
- حمدى عبدالرحمن حسن (١٩٩٣) . الفساد السياسى فى إفريقيا، الطبعة الأولى، دار القارئ العربى، القاهره .
- يوسف القرضاوى (١٩٩٤) . فتاوى معاصرة، الطبعة الثالثة، الجزء الثانى، دار الوفاء، المنصورة.
- فهمى هويدى (٢٠٠٧) . عن الفساد وسنينه، الطبعة الثانية و دار الشروق، القاهره.

الباب الثامن

نماذج تطبيقية من المجتمع المصرى والعربى

١- الفهلوة المصرية والعلاقة بالسلطة

٢- رؤية تحليلية لظاهرة العنف فى المجتمع المصرى

٣- الجو النفسى للفتنة

٤- سيكولوجية الشيعة وإمكانات التعايش والصراع

٥- الفئران المحبوسة وبلادة الحس العربى

٦- انفجار ماسورة الغرائز فى وسط البلد

٧-شايف العصفورة ؟ (لعبة الإلهاء والإحتواء)

الفصل الأول
الفهلوة المصرية والعلاقة بالسلطة

منذ سنوات عديدة وبالتحديد فى عام ١٩٨٣ كنت أؤدى امتحان الجزء الأول من الماجستير فى الطب النفسى وتعرضت فى كلامى لتصنيف للشعوب المختلفة يعطى كل شعب سماتا مشتركة وأحيانا نمطا شخصيا عاما، ولكننى وجدت الممتحن (وهوأستاذ مصرى كبير و شهير فى الطب النفسى) تظهر عليه علامات القلق والرفض ، وحذرنى وقتها من الوقوع فى خطأ التعميم على الشعوب حيث أن كل فرد فى أى مجتمع له سماته الخاصة ونمط شخصيته، وأن هناك تفاوتات هائلة داخل كل مجتمع فيما يخص السمات والأنماط الشخصية، ولقد احترمت رؤيته واستجبت لتحذيره لعدة سنوات، ولكن مع التعامل مع مجتمعات متعددة وجنسيات مختلفة بشكل أكثر عمقا عاودنى هذا الخاطر مرة أخرى واكتشفت أن هناك الكثيرون يتفقون على أن للشعوب أنماطا وسمات مشتركة تميزها بشكل عام على الرغم من الإختلافات الفردية الكثيرة لأفرادها، وأن عوامل الجغرافية والتاريخ والسياسة والإقتصاد والدين، كل ذلك يشكل الشخصية العامة لمجتمع بعينه، وقد كتب عالمنا العظيم جمال حمدان عن شخصية مصر وكأن مصر نفسها (وليس فقط المصريين) كيان معنوى له سمات مميزة تفرقها عن أقطار أخرى لابد وأن لها هى الأخرى سماتها المختلفة .

وإذا كان هناك من علماء الإجتماع من ينكر وجود نمط سائد للشخصية فى مجتمع ما أو فى عصر ما إلا أن عالما مثل الدكتور حامد عمار قدم دراسة مستفيضة رجع فيها إلى العصور القديمة والمجتمعات البدائية وما كتب عنها من دراسات تؤيد أن كل مجتمع يسود فيه نمط معين للشخصية يغلب على أفراده ويظهر على السطح ويحظى بالفرض والأسبقية، وقد ضرب أمثلة لذلك من المجتمعات القديمة والحديثة نكتفى منها بذكر نماذج لمجتمعات حديثة لعلها تكون أقرب للر ؤية من غيرها، فإذا

أخذنا المجتمع الإنجليزى وجدنا أن المثل الأعلى للشخصية الإنجليزية هو نمط الجنتلمان ، ومن أهم سمات هذا النمط : ضبط النفس وعدم المبالغة أو الإسراف فى التعبير، والتحفظ الشديد فى السلوك أو إظهار المشاعر، والتمسك بالشكليات، والميل إلى التلميح أكثر من التصريح، والحرص على أن تكون هناك مسافة بين الفرد والآخرين، والإحتفاظ بخط الرجعة فى كل علاقة أو صداقة، والتوفيق بين الآراء، والحرص على إظهار الإستعداد للخسارة والتنازل فى الوقت الذى يكون قد حسب حساباته جيدا وتأكد أنه الرابح، ويحرص ال جنتلمان أيضا على مراعاة القانون والتقاليد الإجتماعية . أما النمط الأمريكى فهو – على العكس – يمجد الرجل العادى، ويرى أن المساواة تسبق الحرية، وهو متفائل دائما ويرى أن الغد سيكون أفضل من اليوم، ولديه نزعة إلى الظهور، والنفوذ، والقوة، والعنف، والسيطرة، ويسعى دائما إلى النجاح، ويقبل التحدى والمنافسة والصراع، ويعتمد على جهده الفردى ليشق طريقه . والشخصية الأمريكية – كما هو معروف – لا تميل إلى التعمق فى التفكير والتحليل، وتفضل الطابع العملى، والسلوك والسعى إلى كل ما يحقق منفعة، وهذا هو جوهر الفلسفة البراجماتية التى تمثل جوهر الشخصية الأمريكية (عن كتاب المصريون فى المرآة، رجب البنا، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠) .

إذن نستطيع القول – بدرجة معقولة من الصحة – أن مفتاح الشخصية الإنجليزية هو ال جنتلمان فى حين أن مفتاح الشخصية الأمريكية هو البراجماتى ، وهذه المفاتيح هى بمثابة الشفرة التى من خلالها نستطيع قراءة الكثير من أفكار وسلوكيات كل شخصية، وهى أيضا فلسفة حياة تكونت عبر ظروف جغرافية وتاريخية عميقة، فالشخصية الإنجليزية – على سبيل المثال – قد تأثرت بأخلاق طبقة الفرسان والنبلاء فى العصور الوسطى وتأثرت بطريقة حكم الملكة إليزابيث الأولى التى كانت تنتهج طريقة فى الحكم لاتتسامح فيها مع أى خطأ وتعلى من قيمة أخلاق طبقة النبلاء، وتأثرت أيضا بعصور الإستعمار وما يلزمها من حرص وحذر

وتحفظ ودقة فى التعامل مع الآخر ,أما الشخصية الأمريكية فقد تشكلت من مجموعة من المغامرين والمهاجرين وأحيانا المنبوذين من مجتمعاتهم التقليدية، وهؤلاء جميعا يجمعهم حلم التفوق والثروة والنجاح والنفوذ والسيطرة، وهم فى سبيل ذلك مستعدون للتضحية بأى قيمة، خاصة أن القيم فى نظرهم تنتمى إلى أخلاقيات المجتمعات التقليدية التى هجروها أو نبذتهم هى، وكأن بينهم وبين القيم التقليدية عداء خفى، وبهذا تصبح المنفعة عندهم هى الدين الأساسى وهى القيمة العليا التى تتشكل حولها كل تفصيلات السلوك وكل سمات الشخصية، ويشجعهم على ذلك ما حققته هذه الفلسفة البراجماتية من تفوق تكنولوجى ومن ثروة طائلة ومن نفوذ عالمى بصرف النظر (نظرهم هم) عن أى اعتبارات دينية أو أخلاقية أو قانونية .

إذن فمن المشروع أن نحاول اكتشاف مفتاح (أومفاتيح) للشخصية المصرية يسهل علينا قراءتها وفهمها والتنبؤ بردود أفعالها، وطريقة التعامل معها وأخيرا – وهو الأهم – إصلاحها إن كان ثمة ضرورة ونية لذلك . ومسألة مفتاح الشخصية قد استخدمها العقاد بنجاح فى عبقرياته لكى يوضح بها محور الشخصية الأساسى الذى تدور حوله ,أو تنبثق منه بقية عناصر الشخصية وتوجهاتها .

وقد رأى المستشرق الفرنسى جاك باركن أن الفهلوة هى السلوك المميز للشخصية المصرية، وهو يرى أن هذا السلوك مكن مصر من ألا تضيع أبدا لكنه جعلها تخسر كثيرا (حماده حسين، روزاليوسف ٢٠٠١/٣/٣٠ –٣٧٩٨) . ويصدق دكتور حامد عمار عميد التربويين المصريين على مقولة المستشرق الفر نسى محاولا قطع شوط طويل فى المسافة الشائكة بين كون الفهلوة سلوكا أنقذ مصر على طول تاريخها من الضياع، والخسارة التى ما زالت مصر تتكبدها بسبب الفهلوة، ووصل دكتور عمار فى رحلته إلى عمق رأى فيه أن الفهلوة قد توحشت وأصيبت بالسعار .

يقول دكتور عمار : عصور طويلة مرت لكل عصر منها سماته المميزة، وخصائصه الفريدة وألوانه الخاصة فى تلوين ملامح الفهلوة دون المساس بالأصل ...

والحقيقة أنه لم يكن هناك متسع من الوقت والجهد لأن يتغير الأساس ... إذ كانت الفهلوة الوسيلة المثالية لبناء جسد يتجاوز به المصرى المسافة الفاصلة بين قدرته اللامتناهية على الطاعة والقبول بأقل القليل .. وبين إحساسه بالبرودة والغربة تجاه السلطة فهو مثلا يخاف منها ويطيعها .. رهبته منها تمحو قدرته على الفعل والمشاركة .. يخادعها .. يتنكر لها .. ينتقدها سواء فى نكتة أو قعدة فرفشة، وغالبا ما يصل نقده إلى حد السخرية اللاذعة والتجريح . وطبقا لذلك فقد كونت خفة الظل والحداقة والشطارة والقدرة على المراوغة كوكتيل سعادة أعطى المصرى القدرة الفائقة على طى سنوات طويلة سكنها السواد والحزن .. ربما يكون هذا هو الجانب المشرق للفهلوة الذى قصده المستشرق الفرنسى .

أما الخسائر كما يقول حامد عمار فتبدو فى أن المصرى البسيط لم يشارك فى بناء بلده المشاركة الحقيقية وإنما ترك المهمة لفئة واحدة اختارت نوع الحضارة والعمران وبلورة القيم والأعراف، وهذا لا شك خلق نوعا من الإذعان والإستسلام مخلوطا بالمخادعة والتملق المبالغ فيه، إضافة لشئ أخطر هو أن نهمه الشديد للكلام قد فجّر طاقات لسانه عمّال على بطّال بينما أصيبت رغبته فى الفعل وبذل الجهد والعرق بالشلل شبه التام . تنزل من بيتك فى الصباح فتسمع هذا الشخص ويبدو من صوته وعباراته أنه يبيع الهواء فى زجاجة .. ولديه قدرات خاصة تمكنه من لف الفيل فى منديل .. وسحق عظام من يقف فى وجهه .. بينما هو لا يعرف ماذا يبيع .. أو من أين سيأتى بالفيل إذا كان فى جيبه منديل .. ويخاف من العتمة .. تقول فى نفسك أنه فهلوى .. وهذا حقيقى لأنه يعتمد على إحداث أكبر قدر من الضجيج والتشويش وجذب الإنتباه بتضخيم الذات لتفادى مواجهة الواقع بمشاكله المعقدة وخيوطه المتشابكة التى يتطلب حل عقدها الإجتهاد والجهد والفعل .

وشخصية الفهلوى تراها وأنت تركن سيارتك بجانب أى رصيف أو تخرج بها فتفاجأ بأن الأرض انشقت وخرج منها شخص يقف وراءك أو أمامك ليقول لك تعالى

.. تعالى ويتصرف وكأنه ينظم حركة دخولك أو خروجك، وفى الحقيقة هو يعوق حركة السيارة بوقوفه المستفز أمامها أو خلفها . وترى الفهلوى يقابلك فى الشارع أو فى أى مصلحة حكومية فيبادرك بالسلام (وكأنك تعرفه من زمن) ويقول لك بشكل سمج وثقيل كل سنه وانت طيب يابيه ، أو يقول لك وأنت عائد من المطار حمدالله على السلامه يابيه ، ومن كثرة ما ترددت هذه الكلمات فى مثل هذه الظروف وبهذه الكيفية من هؤلاء الأشخاص أصبحت ذات مدلول سلبى يجعلك تكره سماعها .

والفهلوى المصرى تراه عند شبابيك تجديد رخص السيارات فى إدارات المرور يعرض خدماته عليك، وكثيرا ما يفرض نفسه عليك بتقديم مشورة لم تطلبها، والتلويح لك بقدرته على إنهاء الأوراق بسهولة وسرعة، وحمايتك من كل أنواع الروتين والبيروقراطية، وترى أخاه الفهلوى الآخر يعمل ساعيا أو عامل بوفيه فى أى مصلحة حكومية يقابلك فى مدخل المصلحة ويرى الحيرة والإرتباك على وجهك فيصطادك ويعرض عليك تخليص أو تسهيل المهمة . والنظام البيروقراطى، والتعقيدات المكتبية وشيوع الرشوة والوساطة، كل ذلك أدى إلى تنامى دور الفهلوى حتى أصبح من مكونات المنظومة الإجتماعية المصرية المعاصرة .

ولا تتوقف الفهلوة عند هذه المستويات الدنيا بل تتسلل إلى المراكز الوظيفية العليا حين يتلاعب رؤساء مجالس إدارات الشركات بالأرقام ويحولون خسائرهم إلى مكاسب ويوهمون الآخرين وربما أنفسهم بتحقيق إنجازات عظيمة، ويتصورون أن للكلام تأثير يساوى الفعل فيضعون هذا محل ذاك، وحين تتكشف الأمور ويحدث الإنهيار يلجأون للتبرير والتهرب من المسئولية والبحث عن كبش فداء من صغار الموظفين .

والفهلوى تراه فى مسئول كبير فى وزارة الصحة يؤكد أننا فى مصر قضينا تماما على شلل الأطفال ولم تسجل فى مصر حالة واحدة منذ عدة سنوات، ثم تكتشف أن هناك عدد ليس بالقليل من الحالات مسجلة بالإسم والعنوان لدى المنظمات العالمية المهتمة بالصحة والطفولة.

والفهلوة تراها فى طبل وزمر حول قدرة مصر على تنظيم أكبر مونديال للكرة العالمية وأن مصر فيها قوة جذب لا تقاوم للسائح الأجنبى ثم يتمخض الأمر عن صفر كبير تلقيه الهيئات الدولية فى وجه الفهلوى المصرى .

والفهلوى تراه يتحدث عن إمكانات مصر السياحية التى لا تبارى من وجود ٤٠ ٪ من آثار العالم فى مصر، ومن شمس ساطعة إلى جو معتدل، ويعلن أن عدد السائحين قد وصل رقما قياسيا وهو ٦ مليون سائح، ولكنك للأسف تكتشف فيما بعد أن فرنسا وأسبانيا يزور كل منها حوالى ٤٠ مليون سائح سنويا على الرغم من افتقارهما لهذا الكم الهائل من الآثار الذى نمتلكه.

والفهلوى يعلن أن الإرهاب انتهى فى مصر إلى غير رجعة وأن الأمور أصبحت كلها تحت السيطرة، وأنه تم القبض على فلول الإرهابيين ثم تفاجأ بعدها بأيام بحدث إ رهابى مروع تتلوه حوادث أكثر ترويعا .

وتظهر الفهلوة واللف والدوران بشكل صريح وفج فى فترة الإنتخابات حيث تجد الإعلانات المليئة بالأكاذيب والنفاق والوعود البراقة، وإعلانات التأييد والمبايعة التى يشارك فيها الأجنة وهم بعد فى بطون أمهاتهم ويشارك فيها الأموات الذين أفضوا إلى ربهم، وكأن سلوك الفهلوة لدى الشخصية المصرية سلوكا أبديا يسبق الميلاد ويستمر حتى بعد الوفاة . وتخلو الدعايات الإنتخابية عندنا من البرامج الموضوعية التفصيلية الجادة، وتلجأ بديلا عن ذلك إلى شعارات عاطفية أو دينية أو تاريخية يتم من خلالها خداع الناخب، ولو لم تنجح هذه الوسائل فالتزوير ومنع الناخبين من الوصول إلى اللجان الإنتخابية وسيلة سهلة لتحقيق المطلوب .

وتصل الفهلوة إلى بعض الدعاة والأدعياء حيث يميلون إما إلى تملق السلطة (بالفتاوى الميسرة والمبررة للإستبداد والفساد) أو تملق الجماهير (بالروشنة الدعوية والمظهر النجومى وفتاوى التيك أواى وتسطيح الدين بما يتناسب مع ذوق مشاهد الفضائيات الذى لايحتمل ذوقه إلا نوع من التدين الخفيف الممزوج بالمتبلات ،المسبوق بالسلطات والمخللات) .

والإعلام فى أى بلد يفترض أنه كاشف للحقيقة وموقظ للوعى ومحرض على التغيير نحو الأفضل والأجمل والأصلح، ولكن سلوك الفهلوة حين غزا الإعلام شوه هذه الصورة حين سوق لخطاب إعلامى مزدوج ومزيف، يروج للأكاذيب، ويمدح ويهلل لكل صاحب سلطة ويمجد فيه وربما يقدسه، ويلمع أنصاف الموهوبين ويفرضهم على الناس، ويصنع نجوما وقيادات من ورق ويسوقها للجماهير المخدوعة بالبريق الإعلامى والإلحاح المتكرر، وبهذا يصبح الإعلام أداة ترويج وتدعيم لوباء الفهلوة، بل إنه يعطى لسلوك الفهلوة شرعية واحتراما على أنه سلوك مقبول وأنه ينم عن ذكاء وحسن تصرف، وتقدير للأمور، ومراعاة للظروف . والإعلام المزيف يعطى للناس دروسا عملية ومهارات فى لبس الأقنعة والتزييف، وتصبح الأصوات الصادقة والأصيلة والأمينة نشازا فى هذا الوجه أو يصبح صوتها خافتا ضعيفا وسط جوقة التهليل والتزييف .

وفى عالم المال والإقتصاد يظهر الفهلوى فى صورة مستثمر يقترض أموال البنوك أو يجمع أموال الناس تحت أى شعار، ويعطى ضمانات وهمية ويؤسس شركات ورقية، وينشر ميزانيات خادعة، وفى لحظة الموا جهة أو الإنكشاف يهرب إلى الخارج وقد سبقته الأموال عبر البنوك لكى ينعم بها هناك، ومن هنا تقلصت وضعفت قيم العمل الجاد الدؤب، وحل محلها قيم الكسب السريع بدون جهد وفى أقصر وقت ممكن وبأى وسيلة، وشعار هؤلاء خذ الفلوس واجرى ، وهناك من يمكنهم من أخذ الفلوس ثم يمكنهم بعد ذلك من الجرى طالما هو سيأخذ عمولته ويكون فى الخلفية بعيدا عن المحاسبة .

وتصل الفهلوة إلى ذروتها حين تصل لمسئولين كبار يدغدغون المشاعر الوطنية والقومية بشعارات الريادة والسبق الحضارى (أننا أبناء حضارة خمسة أو سبعة آلاف سنة وأننا رواد العالم العربى والإسلامى وأن العالم يتعلم منا ومن قادتنا الحكمة) ، ويغطون التخلف والجمود على كل المستويات بأرقام خادعة تعكس إنجازات

وهمية، ويبررون الهزائم والنكسات والإنكسارات ويحولونها إلى انتصارات تاريخية تستوجب أجازات رسمية للإحتفال بها، وتمتلئ الخطب والتصريحات بالمغالطات والمبالغات والتهويلات، ويكتفى بالكلام والشعارات الرنانة بعيدا عن التخطيط العلمى والعمل الدؤب والفعل الجاد والإنجاز النوعى المتراكم .

فنحن بلد له دستور مكتوب ومع هذا تسير الحياة فى واد والدستور فى واد آخر، فالدستور اشتراكى والحياة اليومية الواقعية والرسمية ر أسمالية، ولدينا أشكال ديموقراطية (انتخابات نيابية ورئاسية) ولكن الواقع ليس ديموقراطيا بالمرة، وإنما يكتفى بإطلاق صراخ وصياح وسباب فى صحف معارضة أو مستقلة دون أن يكون لذلك صدى، كأنما يكتفى بالكلام والصراخ بديلا للفعل والتغيير.

وحين ينتشر الإرهاب فى العالم ويكتشف الآخرون أن غياب الديموقراطية وانتشار الفساد فى مصر والعالم العربى وراء هذه الظاهرة المهددة للعالم كله، وحين تشتد المطالبة بإصلاحات سياسية، تظهر الفهلوة المصرية فى الإلتفاف والمراوغة والتحايل، وعمل بعض التغييرات الشكلية، وإطلاق التصريحات اللفظية، وعقد بعض الندوات والمؤتمرات بهدف امتصاص الضغط الخارجى، وإبقاء الحال (المائل) على ما هو عليه .

والفهلوى يهتم بالشكل دون المضمون ويهتم بالكلام بديلا عن الفعل، ويمارس حالة من الإذدواجية تمكنه أن يقول مالايفعل ويفعل مالا يقول، ويمارس حالة من الخداع لغيره تنقلب بعد فترة إلى الخداع لنفسه، وبالتالى تغيب الحقيقة عن الجميع وتغيب البصيرة اللازمة للتغيير، إذا افترضنا وجود نية للتغيير، وهذا أخطر مافى سلوك الفهلوة من الناحية النفسية والإجتماعية .

وهكذا نجد أن الفهلوة لم تصبح سلوكا فرديا لدى البائعين الجائلين أو منادى السيارات على الأرصفة أو المسهلاتيه أو المشهلاتيه من السعاة وعمال البوفيه فى المصالح الحكومية، وإنما أصبح سلوكا عاما لم ينج منه أحد على أى مستوى مهما علا أو نزل، وأصبح وباءا عاما لم تخل منه طبقة من الطبقات .

والفهلوى فى التوصيف النفسى هو شخص لديه سمات سيكوباتية، وليس بالضرورة أن يكون سيكوباتيا بالمعنى الإصطلاحى المعروف، وهذا يعطيه قدرة على الخداع والمناورة، فهو كثيرا ما يبدو خفيف الظل، خفيف الحركة، يغرى بالقدرة على تخليص الأمور الصعبة والمعقدة، ويغرى بالرغبة فى المساعدة فى حل المشكلات العويصة، فكل عقدة عند الفهلوى لها ألف حل، وكل شخص عنده وله مفتاح وثمن، والفهلوى لايحل المشكلات بالطرق المعهودة من العمل والمثابرة والتفكير والتخطيط وإنما يتخطى كل ذلك ويتجاوزه ويلجأ إلى الطرق الخلفية والخفية والسريعة بصرف النظر عن مشروعيتها . والفهلوى بهذه السمات السيكوباتية يميل لأن يبدو مهذبا، وهناك تعبير السيكوباتى المهذب والذى تراه فى مستويات وظيفية أو قيادية أو سياسية عالية يتحدث بهدوء وأدب، ويعطيك شكل الأشياء دون جوهرها لأنه يعرف حرص الناس على الشكل فهو لا يصدمهم بانتزاع الشكل، فيحافظ على الظاهر قانونيا أو أخلاقيا مع الإحتفاظ بحقه فى العبث بالجوهر أو انتزاعه تماما بما يحقق مصلحته . والمحافظة على الشكل تحمى الفهلوى من المساءلة والإنتقاد وتجعله قادرا على المناورة والدفاع عن نفسه إذا حاول أحد كشفه أو محاسبته، وهذا مما يرسخ لسلوك الفهلوة ويحبط كل محاولات الإصلاح الجادة، حيث تصطدم كل هذه المحاولات بأن كل شئ تمام على مستوى الشكل، ولا تستطيع أن تثبت غياب المضمون أوتشوهه لأن الفهلوى (أو السيكوباتى المهذب) لديه القدرة عل المناورة والجدال، تلك القدرة التى ربما يفتقدها دعاة الإصلاح بحكم طبيعتهم المستقيمة والبريئة .

وتتبدى سمات الفهلوة فى الشخصية المصرية من خلال بعض الألفاظ الدارجة على ألسنة الناس مثل : إحنا اللى دهنا الهوا دوكو .... إحنا اللى خرمنا التعريفه .... إحنا اللى علمنا النمل يمشى طوابير ... نعمل من الفسيخ شربات ... بنفهمها وهى طايره .... حلنجى ..... بتاع التلات ورقات ..... حاوى ..... ألعبان ..... زى الزيبق .

وعلى المستوى الفنى يكفى أن تتابع بعض المسلسلات المصرية لتكتشف أنها فى معظمها مليئة بوسائل اللف والدوران والإلتواء، وادعاء القدرة بلا قدرة، والإحتيال، والخداع، والمبالغات، والسخرية، وازدواجية الخطاب، باختصار تجد نفسك أمام سمات الفهلوة المصرية فى قالب فنى . وفنون الكوميديا تفوقت على سائر الفنون فى إبراز سمات المصرى الفهلوى فى قالب ساخر ظريف به الكثير من المبالغات والمفارقات التى تبرز السمات الفهلوية، وأكثر من نجح فى تقديم هذه الشخصية على المستوى الكوميدى هو الفنان عادل إمام حيث يمتلك ملامح وجه المصرى الغلبان ويمتلك أيضا تركيبة جسده المنهك المطحون ولكنه فى نفس الوقت يحاول التكيف مع الظروف من حوله بالسخرية أو ادعاءات البطولة الخارقة، أو التنكيت على من يقهره، أو الحيلة الذكية اللطيفة للخروج من المآزق، أو استخدام توريات لفظية تحمل معان مزدوجة أو متعددة . وربما يكون هذا هو سر تفوق عادل الإمام الرهيب حيث أنه قد هضم الشخصية المصرية تماما وأعاد إخراجها بوسائل توصيل لفظية وغير لفظية غاية فى البراعة لذلك تصل إلى الناس بسرعة البرق وتضحكهم على أنفسهم التى يرونها فى مرآته الصافية التى التقطت كل تناقضات الشخصية المصرية فى قوتها وضعفها، ولذلك لقبه المصريون بالزعيم بما يعنى أنه زعيما للكوميديا أو زعيما للفهلوة فى فنه أو زعيما للشخصية المصرية . ويليه فى هذه المقدرة على إبراز شخصية الفهلوى الفنان أحمد آدم، فهو قصير القامة و ضعيف البنية، ولكنه يحاول التعايش مع الظروف التى تقهره بتبنى روح المرح والسخرية، وادعاء الكرامة والغلبة والقدرة اللامتناهية على التأثير فى الأحداث ولكنه فى النهاية يكتشف أنه معرض طول حياته للبهدلة فيسخر من كل هذه المواقف حتى يظل واقفا على قدميه الصغيرين .

وبعد هذا الإستعراض لصور ومظاهر الفهلوة فى الشخصية المصرية وفى الحياة المصرية، نود الإشارة لدراسة مبكرة للدكتور حامد عمار عن أحوال المجتمع المصرى

والشخصية المصرية ضمنها كتابا بعنوان : فى بناء البشر : دراسات فى التغير الحضارى والفكر التربوى صدر فى عام ١٩٦٤ م ، وفى هذه الدراسة القيمة حاول الدكتور عمار أن يحدد سمات مميزة لشخصية المصرى الفهلوى نذكر منها بإيجاز :

١ – التكيف السريع والقدرة على التلون مع الموقف ونقيضه، والإدراك فى لمح البرق وفيما يشبه الإلهام بما هو مطلوب فى هذه اللحظة فيستجيب على الفور، وهو قادر على أن يعيش فى أى ظروف ويتعامل مع أى شخصية ،ويتباهى بأنه يستطيع أن يلاعب الجن الأحمر ويعايش ملائكة السماء والأرض فى نفس اللحظة دون أن يجد فى ذلك غضاضة، ودون أن يتطلب ذلك منه جهدا كبيرا . ولذلك استطاع هذا النمط أن يتقبل ويساير كل تغيير، ويتعامل مع كل جديد دون ارتباك أو حيرة، ومظاهر الحياة تدل على هذه القدرة الفائقة، وإن كانت هذه المرونة والقدرة على التكيف السريع تتميز بأمرين : الأول : المرونة والقدرة على هضم وتمثيل كل جديد، والثانى : المسايرة وإخفاء المشاعر الحقيقية . وهذه النزعة هى التى أعطت للمصريين القدرة على التعايش مع حكام وولاة بلغوا غاية فى الظلم والإستبداد، ووجد المصرى أنه إذا لم يذعن فسوف يتعرض للعقاب والنقمة، ولن يجنى شيئا، فأصبح التكيف السطحى فى مثل هذه المواقف من ضرورات البقاء فى ظروف متغيرة لا ضابط لها ولا مقدر لعواقبها . ومع الزمن فإن هذا التكيف السريع الذى كان أسلوب الحماية والوقاية الذى كفل للمصريين البقاء مع التقلبات السريعة المتلاحقة، تحول إلى وصولية وانتهازية، ثم تركز فى نمط الفهلوة .

٢ – النكتة المواتية : فحين تحاصر المصرى الهموم والأزمات، وتثقل عليه، وتنقلب أمامه الأمور تقلبا لم يشارك فيه، فإنه يشارك فى الأحداث بالتعليق الساخر عليها، ويطلق النكتة بعد النكتة، فيضحك، ويخفف بذلك من التوتر العصبى الذى كان يمكن أن يدفعه إلى الغضب، ويستريح بما تحققه له السخرية بالذين انفردوا بالعمل من دونه، وتصرفه عن الواقع إلى عالم من الخيال والمرح، وهذا ما جعل أحمد أمين يقول

فى كتابه الشهير قاموس العادات والتقاليد المصرية : إن النكتة كانت سلاحا مصريا يلجأ إليها المصرى تعويضا عما أصاب الشعب من كبت سياسى واجتماعى، وتنفيسا له من الضائقات التى تنغصه، مما يجعل الحياة أمرا محتملا . والنكتة عند المصريين تختلف عن النكتة عند غيرهم من الشعوب، فهى أولا إحدى السمات المميزة للشخصية المصرية، فهو يستمتع بتأليف النكتة والإستماع إليها حتى لو تكرر سماعه لها، وأهم الوظائف التى قامت بها النكتة المصرية هى التغطية على الموضوع، وأخذه على المحمل الهين، والإنصراف عنه انصرافا يعفى من التفكير فيه تفكيرا جديا، وكأن فرقعة النكتة تكفى لإنهاء المشكلة، أو هى فى حد ذاتها حل لها (راجع النكت السياسية فى فترات الحكم الإستبدادى وما أكثرها فى حياة المصريين وستكتشف أن النكتة كانت تصرف طاقة الغضب اللازمة للتغيير وبذلك يظل الأمر على ماهو عليه)

٣ – المبالغة فى تأكيد الذات والإلحاح على إظهار قدرة فائقة : وهناك فرق بين الثقة بالنفس الناتجة عن الطمأنينة الداخلية والإدراك الواعى للقدرات والظروف من ناحية والموقف الخارجى من ناحية أخرى، وبين تأكيد الذات الناجم عن فقدان الطمأنينة، وعدم الرغبة، وعدم القدرة أيضا، على تقدير المواقف تقديرا موضوعيا، وإحساس داخلى بعدم الكفاءة، وشعور بالنقص أمام المواقف يحاول إخفاءه بالتهكم على الآخرين، أو بادعاء المقدرة الخارقة على حل العقد بما يشبه المعجزة، وإنجازها هوا ، أو عمل كل شئ بالإصبع، أو حل المعضلة بجرة قلم .

ومن سمات الفهلوة المبالغة فى تأكيد الذات (إخفاءا لشعوره بالضآلة) وبما يعرف عادة بأنه القنزحة فى الكلام والسلوك، ولعل معظم ما نراه من البذخ فى العزائم، أو المبالغة فى تأكيد الكرامة الشخصية بمناسبة وبدون مناسبة، والإهتمام المبالغ فيه بالشكليات فى المناسبات والأفراح والمآتم، وكل ما يتصل بالمظهر أو واجهة الشخصية للفرد أو للجماعة ,ليس إلا تعبيرا عن الرغبة فى تأكيد الذات، وليس غريبا أن تكون الكلمة الحلوة هى التى يأسر بها المصرى غيره، وتجريح الغير و

التريقة عليه فى غيابه جزءا من سلوك الكثيرين، ومن يستطع أداء هذا الدور ببراعة يحظى عادة بالإعجاب، فالتهوين من قدر الآخرين ومن قيمة أعمالهم هو الجانب الآخر السلبى لتأكيد الذات، والشخص الذى لا يعجبه العجب ولا الصيام فى رجب هو وحده الذى يفهمها وهى طايره وهو الذى يستطيع أن يجيب الديب من ديله

٤ – العلاقة الملتبسة مع السلطة : فالفهلوى برغبته الدائمة والملحة فى تأكيد الذات يشعر فى قرارة نفسه بالسخط على الأوضاع التى توجد التمايز والتفرقة أيا كان نوعها، مهما كانت أسبابها ومبرراتها، ويتفرع من ذلك عدم الإعتراف بالسلطة أو الرئاسة، والتنكر لها فى أعماق الشعور، مع أنه فى الظاهر يبدى الخضوع ويستخدم عبارات فيها مبالغة شديدة للتفخيم (أفندى و بيه و باشا، سعادة الباشا)، ويلجأ إلى طقوس زائدة عن الحد للتعبير عن الإحترام، ويخفى كل ذلك الشعور بالإمتعاض، ويعبر عنه أحيانا بقوله : فلان عامل ريس أو عايش فى الدور .

فالفهلوى لا ينظر إلى السلطة أو الرئاسة على أنها ضرورة من ضرورات التنظيم، يتطلبه توزيع المسئوليات وتحمل الأعباء فى التنظيم الإجتماعى أوالإدارى، ولكنه ينظر إليها على أنها قوة قاهرة يذعن لها إذعانا لما تبعثه فى نفسه من الهيبة والخوف .

٥ – الإسقاط والتهرب من المسئولية : إن أهم الأسلحة التى تتزود بها شخصية الفهلوى هى عملية الإسقاط ، لكى يزيح المسئولية عن نفسه ويلقيها على غيره من الناس، أو على ظروف خارج نطاق الذات تبرر ما يقع فيه من مواقف الخطأ أو التقصير (وهو ما يعرف فى علم النفس بوجهة الضبط الخارجية حيث يعتقد الفرد أن أحداث حياته تمت بتأثير من الآخرين أو من الحظ أو من عوامل لا يملك التأثير فيها أو تغييرها – الباحث)، وتزداد الفهلوة بازدياد القدرة على ممارسة هذه العملية النفسية، وبذلك لا يقوم الفهلوى بالعمل نتيجة شعوره الداخلى بالواجب، ولكن بدافع الطمع فى الكسب أو الخوف من العقاب، وما يقوله ويفعله هو دائما لحاجة فى نفس

يعقوب كما يصفها المصريون، وليس لتحقيق الذات بالعمل الإجتماعى المنتج (ربما يفسر هذا المحاولات المستميتة لدى المصريين للتهرب من العمل، ويؤكد هذا الإحصائية التى بينت أن إجمالى الإنتاج لدى الشعب المصرى يساوى فى المتوسط ٢٧ دقيقة عمل يوميا لكل فرد - الباحث) .

ومن مظاهر الإسقاط الواضحة كثرة الشكوى من الزمان والتبرم من كيد الآخرين وإلقاء التبعة فى كل مشكلة على الحكومة أو على البلد اللى من غير عمده أو على الإدارة ، أو أى قوة أخرى غير الشخص أو الجماعة المسئولة .

٦ - الفردية وغلبة ال أنا ، وعدم التوافق مع العمل الجماعى : وليس هذا من قبيل الأنانية لمجرد الأنانية، ولكنه تأكيد للذات من ناحية، وانصراف عن احتكاك الذات بغيرها من ناحية أخرى مما يعرضها لمواقف تنكشف فيها حقيقتها، أو تذوب فيها شخصية الفرد فى شخصية الآخرين . ويضاف إلى ذلك جذور العصبيات القبلية والعائلية، ونقص التربية الإجتماعية، لأن الإنسان يولد بنوازع الفردية والأنانية، ثم ينجح المجتمع أو يفشل فى عملية التطبيع الإجتماعى أى جعل الفرد يتخلى عن جانب كبير من فرديته والإندماج فى الجماعة واكتساب القدرة على التفاهم والتعاون والعمل بجدية وإخلاص مع الآخرين، وفى ظل تنظيم اجتماعى أو إدارى أو قانونى، فإذا لم تتم عملية التطبيع الإجتماعى كما يجب فإن شخصية الفهلوى تظهر وهى تجيد إظهار الموافقة، ومسايرة الآخرين والتعاون معهم، ولكنه يتخذ هذه المواقف الشكلية من قبيل المجاملة، أو الخوف من الحساب أو العقاب، فيتظاهر بالعمل مع الجماعة ولكن بلا روح ولا التزام، وهذا هو سر الشكوى من غياب روح الفريق والقدرة على العمل الجماعى فى ظل قيادة (راجع فشلنا المزمن فى الألعاب الجماعية مثل كرة القدم خاصة على المستوى العالمى، وتذكر دائما صفر المونديال - الباحث) ، ولتحقيق هدف عام وليس لهدف شخصى، بولاء للجماعة، وفى الأمثال المصرية الكثير مما يعبر عن الروح الفردية مثل حصيرة ملك ولا بيت شرك ، ويظهر ذلك

أيضا فى تعبير كل فرد أنا عملت بدلا من احنا عملنا . بينما سر القوة والنجاح فى الدول الكبرى فى هذا العصر هو أنها تؤمن بروح الفريق، وبالعمل الجماعى، وبتعاون عدة أفراد معا وكأنهم كيان واحد، ينسب إليهم جميعا النجاح، وينال كل فرد فى الجماعة نصيبه من هذا النجاح الجماعى .

٧ – الحرص على الوصول إلى الغنيمة بسرعة ومن أقصر الطرق دون الإعتراف بالمسالك الطبيعية : ولذلك يبحث الفهلوى دائما عن وسيلة تجعله يقفز على المراحل، ويتخطى الحواجز، باللجوء إلى الكذب أو التزوير أو الوساطة، أو الرشوة أو الغش، فإذا وجد أنه لن يصل إلى الهدف إلا بالطريق الطبيعى كغيره، وأن هذا الطريق يحتاج إلى المثابرة والصبر واتباع خطوات لابد منها، فإن الحماس للعمل ينطفئ فى لحظة، فالطالب لا يعترف بأن الإستذكار وسهر الليالى للفهم والإستيعاب هى الوسائل الطبيعية للنجاح فى الإمتحانات، والفهلوى منهم يريد أن يصل إلى النجاح بدون هذا العناء ... بالغش أو بمحاولة شراء الإمتحانات ورشوة الآخرين (أو بالدروس الخصوصية التى تصنع كائنات امتحانية تحقق تفوقا شكليا مؤقتا – الباحث)، والعامل لا يريد أن يضيع وقته فى الإتقان والتشطيب لكى يبلغ الكمال، ولكنه يفضل الكلفتة ، والجماعات التى يحركها الحماس لإقامة مشروع لا يستمر حماسها بعد ذلك لمتابعة استمرار المشروع ورعايته وصيانته .

والآن نسأل أنفسنا : مالذى جعل الشخصية المصرية تصاب بهذا الداء بشكل وبائى مستعص لم ينج منه إلا القليلون ؟

يرجع معظم المفكرون والباحثون هذا السلوك إلى العلاقة السلبية للمصريين بالسلطة على مر العصور حيث تعرض المصريون على طول تاريخهم لفترات استعمار واستبداد وقهر وتسلط مما كان يفوق قدرتهم على المقاومة أو التغيير فى كثير من الأحيان، ونظرا لتكرار هذه الخبرات السلبية تعلم المصرى أساليب للتكيف والمواءمة تتضمن تحايلا على المستعمر أو المستبد، خاصة أن الحاكم فى مصر يتحكم فى ماء

النيل أى فى لقمة العيش للناس، ففى مجتمع النهر يصبح الحكم مركزيا لأنه يتحكم فى شريان الحياة لسائر الناس، وهذا عكس المجتمع الرعوى الذى يعتمد على المطر وبالتالى تكون حركته وإرادته فردية ومستقلة نسبيا ويحكمه نشاط المطر الذى لا يحكمه أحد من البشر .

يقول الدكتور حامد عمار فى ذلك : الفهلوى برغبته الدائمة والملحة فى تأكيد الذات يشعر فى قرارة نفسه بالسخط على الأوضاع التى توجدالتمايز والتفرقة أيا كان نوعها، ومهما كانت أسبابها ومبرراتها، ويتفرع من ذلك عدم الإعتراف بالسلطة أو الرئاسة، والتنكر لها فى أعماق الشعور، مع أنه فى الظاهر يبدى الخضوع ويستخدم عبارات فيها مبالغة شديدة للتفخيم (لاحظ كثرة استخدام الألقاب الرنانة فى المجتمع المصرى : بيه، باشا، سعادة الباشا، سعادة الريس، ....إلخ – إضافة من الباحث)، ويلجأ إلى طقوس زائدة على الحد للتعبير عن الإحترام، ويخفى كل ذلك الشعور بالإمتعاض . والفهلوى لاينتظر من السلطة المقتدرة أى نوع من الألفة أو رفع الكلفة، ويتوقع منها أن تكون على عكس ذلك، حازمة وصارمة، وكأنما ذلك من لوازم السلطة . ويرجع هذا الشعور بالخوف من السلطة أو الهيبة من أصحابها إلى الظروف التاريخية التى تعاقبت على شخصية المصرى من علاقته بالحاكم، واستجابة المحكومين، وقد وصف الجبرتى شعور الأهالى نحو الملتزم بجمع الضرائب، فكان الفلاحون يهابون الملتزم القوى، أما إذا كان ذا رحمة بهم استهانوا به واذدروه فى أعينهم وسموه بأسماء النساء (عن كتاب : المصريون فى المرآه، مكتبة الأسره ٢٠٠٠) .

ويضيف الأستاذ على سالم : نحن نباهى الأمم صغيرة السن ذات التاريخ القصير الذى لا يتعدى عدة مئات من السنين انشغلت فيها ببناء الديموقراطية، بأننا اقدم منها وننسى أننا نحكم أنفسنا منذ أقل من خمسين عاما فقط، ولابد من الإعتراف بأن مئات السنين من الحكم الأجنبى المستبد أرست فى عقولنا قواعد راسخة للفهلوة ..

عقولنا مدربة على نحو شبه غريزى على الحذر من الحكومة وعمل المستحيل للإفلات منها، من قوانينها ولوائحها وتعليماتها، ثم شن حملات مضادة عليها عندما تحين لنا الفرصة، حتى الآن يداخلنا شك فى أننا نحكم أنفسنا، وفى المقابل سنجد الذين وصلوا إلى مواقع الحكم والسلطة يتوحدون على الفور بنفسية ذلك المملوك القديم المستورد من الخارج التى امتلأت أبعادها بالقسوة والحذر من هذا الشعب النمرود ، وهكذا تستمر علاقات الحذر والتربص بين الحكومة والأهالى كامتداد لا واع لآليات الواقع فى الحكم الأجنبى (على سالم، وشاح الفهلوة ، روزاليوسف، ٢٠٠١/٣/٣٠ وحين عاود الدكتور حامد عمّار النظر فى الشخصية المصرية فى التسعينيات وجد تحولات أخرى أكثر خطورة ذكرها فى المحاضرة التذكارية التى ألقاها فى المؤتمر العلمى السنوى لرابطة التربية الحديثة فى يوليو ١٩٩٤، حيث وجد أن مسيرة التيارات السياسية والإجتماعية والإقتصادية فى العقدين الماضيين قد أوجدت خللا ملحوظا فى فى عقيدة الإنتماء الوطنى والقومى ... وكذلك اضطربت العلاقات بين الفرد والجماعات والدولة، وأدى ذلك إلى أن يكون حرص الفرد أو الجماعة متجها نحو الخلاص الذاتى، وإلى تغليب المصالح الخاصة، وإلى ولاء محلى وعشائرى ضيق، مما قد يتعارض فى كثير من الأحيان مع قيم الوطن والمواطنة الرشيدة فى إطار الحق والواجب، ومن هنا ظهرت أعراض الفساد والإفساد .... وأعان على ذلك التوجه ما ساد مصر فى فترة السبعينيات من رخاء مؤقت، وما انتهزه البعض من فرص الإنفتاح، والإستغلال والمضاربات، والأرباح السريعة المذهلة، وأوهام شركات توظيف الأموال، والبحث عن النفوذ الخاص، هى العوامل المتحكمة فى طريق القيم والعمل ..... وذلك اللهاث نحو الإستهلاك المفرط والمستفز بإعلاناته، ومظاهر الحياة اليومية، أدى إلى هشاشة العلاقات، وشيوع نمط شخصية الهبّاش الذى يخطف بسرعة بقدر ما يستطيع، ويجرى قبل أن يلاحقه حساب القانون أو حساب المجتمع .... وهكذا جاءت شخصية الهبّاش بعد شخصية الفهلوى (نقلا عن كتاب المصريون فى المرآة لرجب البنا) .

وقد ظهر هذا الهباش فى صور كثيرة منها رجال الأعمال الذين يهبشون أموال البنوك ثم يهربون إلى الخارج، أو رجال السياسة الذين يهبشون السلطة للأبد، أو المرشحين الذين يهبشون المقاعد بشراء الأصوات علنا وبمبالغ متزايدة أمام اللجان، أو يستأجرون البلطجية مقابل ألف جنيه فى اليوم الواحد لإرهاب المواطنين، أو تسخير قوات الأمن لحساب أحد الأحزاب أو أحد الأفراد لتمنع الناس من الوصول إلى لجان الإنتخابات، أو تزوير إرادة الناخبين عند إعلان النتائج . وهناك صور أخرى على المستوى الفردى ومنها الموظف الذى لا يقضى مصلحة إلا بعد أن يأخذ مقابلا لها، وأحيانا يأخذ ويهرب، ومنها العامل أو الفنى الذى يأخذ أجرا ولا يتقن عملا، , ...وهكذا نماذج عديدة فى كل مستويات المجتمع من أعلاه إلى أدناه، حتى كادت تكون شخصية الفهلوى وشخصية الهبّاش هى القاعدة، وأصبحت النماذج الشريفة المخلصة (وهى موجودة فعلا) تشكل استثناءات تدعو للعجب، فمثلا حين يرفض أحد ضباط حرس الحدود رشوة، يكرمه الوزير لأمانته، وكأن القاعدة المتوقعة أن يقبل الرشوة، وأنه حين رفضها قام بعمل استثنائى، وأيضا حين صدعت المستشارة البطلة نهى الزينى بكلمة الحق فى تزوير انتخابات دمنهور اعتبرها الشعب المصرى بطلة عظيمة (وهى فعلا كذلك) مع أن المتوقع – فى الظروف الطبيعية – أن تكون المستشارة على هذا المستوى العالى من النزاهة والشجاعة والجرأة .

الفصل الثانى

رؤية تحليلية لظاهرة العنف فى المجتمع المصرى

هل المجتمع المصرى فى أزمة ؟

نعم فالملاحظ والمعايش لهذا المجتمع يدرك ذلك بسهولة بمجرد الخروج إلى الشارع والنظر فى وجوه الناس فسيدرك كم هم متأزمين ومتعبين وغاضبين، وتتضح الصورة أكثر إذا كان هذا الملاحظ يقارن وجوه الناس وأحوالهم بفترات سابقة، كانت الشخصية المصرية فيها تتسم بالطيبة والمرح والتفاؤل والإيثار، أما الآن فالصورة مختلفة كثيرا حيث حلت القسوة والكآبة والتشاؤم والأنانية والإنتهازية والفهلوة والرغبة فى الكسب السريع بأى شكل من الأشكال .

وتتضح الصورة أكثر لمن يسافر خارج مصر إلى أى بلد عربى أو أوروبى ثم يعود، فسيلاحظ الفرق شاسعا بين نوعية الحياة المصرية ونوعية الحياة خارج مصر، وبين حالة المواطن المصرى وغيره من المواطنين .

وإذا تجاوزنا الملاحظة الميدانية، وفتحنا الصحف أو الراديو أو التليفزيون فسوف يذهلنا استخدام كلمة أزمة فى كل الأحاديث والمقالات أو على الأقل معظمها، فترى الحديث عن الأزمة السياسية، والأزمة الإقتصادية، والأزمات الإجتماعية، والأزمة الثقافية، وأزمة السينما، وأزمة المسرح، وأزمة الضمير، وأزمة المؤسسات الدينية، وأزمة الفتنة الطائفية، وأزمة الفكر الدينى، وأزمة الرياضة، وأزمة الشباب، وأزمة البطالة، وكأننا مجتمع يسبح فى بحر من الأزمات .

والسؤال الآن لماذا وصلنا إلى هذه الحالة الإستثنائية من الأزمات والتى تجاوزت – كما وكيفا – الحدود المقبولة للأزمات فى المجتمعات البشرية وأصبحت تهدد أمننا واستقرارنا وإحساسنا الطبيعى بالحياة ؟

السبب وراء ذلك هو تراكم المشكلات يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما بعد

عام دون وجود حلول علمية وعملية (حقيقية) لها، والإكتفاء بالحلول الشكلية أو الإعلامية أو الوهمية أو الفهلوية دون الدخول إلى جوهر المشكلات . فتراكم المشكلات دون حل حقيقى يؤدى إلى حالة من التأزم، وتراكم الأزمات دون حل حقيقى يؤدى إلى شعور متزايد بالإحباط، والذى يؤدى بدوره إلى تراكم شحنات الغضب والتى تظل كامنة إلى أن تصل إلى مستوى معين فيحدث الإنفجار فى ظروف مهيئة وضاغطة (وما أكثرها فى حالة المجتمع المصرى) فى صورة أعمال عنف ظاهرة، أو تتحول تلك الشحنات إلى غضب مزمن ومكتوم يؤدى إلى حالة من العدوان السلبى يظهر على شكل لامبالاة، كسل، تراخى، بلادة، عدم انتماء، عدم اتقان، ....الخ .

أما إذا أردنا معرفة أبعاد الأزمة بصورة إحصائية دقيقة فيكفى أن نرجع لإحصاءات المركز القومى للبحوث وغيره من الجهات البحثية، وسوف تصدمنا إحصاءات العنوسة (٩ مليون عانس)، نسب الطلاق (٢٦ ٪)، وأعداد الشباب العاطلين (حوالى ١٢ مليون)، ومعدلات الجريمة، والعنف الأسرى، والمخدرات، وغيرها .

إذن فنحن فى أزمة حقيقية ولا يجوز أن نهون منها، أو نمالئ أو نداهن لأن ذلك يزيد من حدة الأزمة ويجعلها أكثر خطورة وربما تصل إلى مرحلة اللاعودة فى وقت من الأوقات، إذا استمرت عمليات التغطية ودفن الرأس فى الرمال، وإذا استمرت الحلول القائمة على الخداع والفهلوة، والشكل دون المضمون، وهذه أمراض أخرى تفشت فى مجتمعنا فى السنوات الأخيرة .

هل هناك ظاهرة عنف فى المجتمع المصرى ؟ ... وهل هى آخذة فى الزيادة أم فى النقصان ؟

والإجابة : نعم، توجد ظاهرة عنف مقلقة جدا فى المجتمع المصرى، وهى فى تنامى مستمر كما وكيفا . ونحن نطلق عليها ظاهرة لأنها أصبحت تتكرر بشكل ملفت للنظر ومؤثر فى حياتنا كشعب على كل المستويات، فهى قد تجاوزت أحداث العنف الإستثنائية الموجودة والمتوقعة فى كل المجتمعات البشرية من لدن آدم حتى اليوم،

وهذه الظاهرة قد دخلت مرحلة الخطر الحقيقى، فمنذ السبعينيات ونحن نعيش هذه الظاهرة والتى نضرب لها بعض الأمثلة فقط للتذكير والتنبيه:

أحداث العنف فى أسيوط على يد الجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد، أحداث العنف الطائفى فى الصعيد والوجه البحرى (الزاوية الحمراء، الكشح ، الإسكندرية ....,.....) .وحادث المنصة الذى أودى بحياة أنور السادات، محاولات الإغتيال السياسى المتكررة (الصحفى مكرم محمد أحمد، وزير الإعلام صفوت الشريف، وزير الداخلية حسن الألفى، رئيس الوزراء عاطف صدقى، رئيس الجمهورية حسنى مبارك) وحادث الأقصر، وحادث ميدان التحرير، وحادث الأزهر، وحادث ميدان عبدالمنعم رياض، وحادث ميدان السيدة عائشة، ومظاهرات الغضب المتكررة فى الكاتدرائية بالعباسية، والغضب الصامت أو الظاهر على الجانب الآخر، وبين كل هذا مئات من الأحداث العنيفة .

وهذه الزيادة فى الكم والكيف تدل على وجود العديد من عوامل الخطورة الكامنة، والتى تحتاج لحلول حقيقية، وليست حلول إسمية أو شكلية، فقد أصبح فى مصر – للأسف الشديد – خبراء فى إعطاء الشكل دون المضمون، وإعطاء الإسم دون المحتوى، وممارسة خداع الذات والآخر طول الوقت، وهذه كلها جرائم كبرى خاصة فى موضوع كهذا أصبح يهدد أمن واستقرار هذا البلد .

وإذا أضفنا إلى هذه الأحداث الجماعية أحداث العنف الفردى المروعة والمبالغة فى القسوة، مثل الأب الذى قتل بناته الخمسة ونجت منه السادسة لأسباب خارجة عن إرادته، والأم التى قتلت ابنها المدمن حتى تستريح من مشاكله، والعاطلين الذين اغتصبوا فتاة فى ميدان العتبة على مرأى ومسمع من الناس وفى وضح النهار دون أن يتحرك منهم أحد، والطلبة الذين سرقوا شقة زميلهم ثم أشعلوا النار فيه وفى صديقه، كلها أحداث تنبئ عن كم هائل من الغضب المتراكم والخطر .

ومما يؤكد خطورة الموقف ذلك التكرار القريب لأحداث العنف الطائفى بالذات

فى الشهور القليلة الأخيرة، فمثلا حادث وفاء قسطنطين تبعه بعد فترة قصيرة حادث مارى عبدالله ثم كنيسة الفيوم ثم حادث كنيسة مارى جرجس بمحرم بك بالإسكندرية، ومن الواضح أن هناك شحنات غضب هائلة قابلة للزيادة والإشتعال، وإنه لمن الخيانة لهذا الوطن أن لا نراها على حقيقتها، أو نركن إلى تماسك نسيج الشعب المصرى عبر العصور، فهذا وهم آخر حيث تغيرت الظروف والحسابات، والمصالح، وأصبحت هناك أطراف محلية وعالمية تدفع بالأمور إلى الحافة بغية إعادة ترتيب المنطقة وفق أولوياتها مستندة فى ذلك إلى الظروف الدولية غير المواتية لمصر والعالم العربى، ومستغلة أطماعا شخصية فى البقاء أو الإستمرار .

أشكال العنف السائد فى مصر:

العنف المباشر:

١- **لفظى:** وهو يتبدى فى استخدام ألفاظ بذيئة أو جارحة فى الشارع المصرى، وعلو الصوت، وحدة النبرة، والصراخ، والصخب، وكلاكسات السيارات بدون داع .

٢- **جسدى:** ويظهر فى الخشونة فى التعامل مع الدفع فى الشوارع ووسائل المواصلات، لكى يصل إلى التشابك بالأيدى لأتفه الأسباب، أو استخدام الأسلحة، واستأجار البلطجية والحراس الشخصيين لرجال الأعمال والفنانين والفنانات بهدف الدفاع أو الإرهاب .

العنف غير المباشر: (العدوان السلبى)

ممثلا فى اللامبالاة ، والتراخى، والكسل، وتعطيل المصالح، والصمت، والسلبية، والإهمال ......الخ .

العنف المضاد:

ويتمثل فى عمليات الإعتقال المستمرة للمعارضين، وعمليات التعذيب (حتى الموت أحيانا)، والإختفاء القصرى لبعض الناس (الصحفى رضا هلال كمثال)،

واختطاف المعارضين وضربهم وتركهم عرايا فى الصحراء (عبدالحليم قنديل) وضرب ممثلى القنوات الفضائية خاصة قناة الجزيرة (حادث ضرب المذيع أحمد منصور) والقبض على مراسليها .

ويوضح التقرير الأخير للمنظمة العربية لحقوق الإنسان هذا الموقف (القاهرة ٢٠٠٤) بقوله :

بينما استمر العمل بقانون الطوارئ للعام الثالث والعشرين على التوالى، واستمر التقصير فى مواجهة ظاهرة التعذيب ونقص الرعاية الصحية فى السجون ومراكز الإحتجاز، وسقوط وفيات من جرائها، كما استمرت حملات الإعتقال فى صفوف الإسلاميين مع استمرار الإحتفاظ بقرابة تسعة آلاف منهم قيد الإعتقال (وفقا لأدنى التقديرات) ، وكذا استمرار المحاكمات الإستثنائية، ومنع المسيرات السلمية أوتقييدها، ومنع تسجيل جمعيات أهلية ناشطة فى مجال حقوق الإنسان، وتقييد الحق فى التنظيم والنشاط الحزبى، ....وفى مجال الحق فى الحياة، شهد العام استمرار سقوط وفيات بشبهة التعذيب ونقص الرعاية الصحية فى السجون ومراكز الإحتجاز . وتستحق الظاهرة الوقوف أمامها بعناية شديدة، خاصة فى ضوء ما جرى توثيقه خلال السنوات الأربع الأخيرة، والتى بلغت ٤٢ حالة منذ عام ٢٠٠٠، بينها ١٥ حالة خلال الفترة التى يغطيها هذا التقرير، علما بأن المتوفين فيها ليسوا من الناشطين السياسيين الذين عادة ما يتعرضون لأصناف مختلفة من التعذيب . ..... وقد استمرت قرابة ٣٠ حالة اختفاء قسرى وثقتها تقارير سابقة للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان دون إجلاء، فيما شهد العام ٢٠٠٢ أول حكم قضائى بالتعويض ضد وزير الداخلية بصفته بمبلغ ١٠٠٠٠٠ جنيه مصرى فى واقعة اختفاء مصطفى محمد عبدالحميد عثمان عقب القبض عليه فى العام ١٩٨٩ فى أعقاب محاولة اغتيال وزير الداخلية السابق زكى بدر، ولم تتمكن وزارة الداخلية من إجلاء مصيره .

وفى مجال الحق فى المحاكمة العادلة، وعلى الرغم من إلغاء العمل بقانون

محاكم أمن الدولة منذ شهر مايو/أيار بغرض تسهيل إجراءات التسليم القضائى مع الدول الأجنبية، إلا أن السلطات واصلت العمل بإحالة المدنيين إلى المحاكم العسكرية، ومحاكم أمن الدولة طوارئ المؤسسة على قانون الطوارئ .

وما يهمنا هنا هو التأثير النفسى لهذا العنف المضاد والذى يولد حالة من الكراهية للجهاز الأمنى ويخلق نوعا من الثأر المتبادل والمستمر بينه وبين المواطنين الذين يتعرضون لهذه الممارسات المؤسفة وغير الشرعية، ليسوا هم فقط بل وذويهم أيضا . أما أولئك المطلوبين الذين يطاردهم الجهاز لأمنى، فلمعرفتهم بمصيرهم الغامض والمظلم الذى سيواجهونه فى حالة القبض عليهم (بعيدا عن أعين الشرعية) ، فإنهم يمارسون أكبر قدر من العنف الإنتحارى فى حالة تعرضهم لخطر القبض عليهم لأن الموت – فى نظرهم – أهون من التعرض للتعذيب حتى الموت، وهذا يسقط القانون ويسقط الشرعية فى العلاقة بين الجهاز الأمنى والمواطنين عموما ويجعلهم ينظرون إليه بريبة ولا يبدون أى نوع من الألفة تجاهه، وبالتالى لا يتوقع تعاونهم معه فى تعقب المجرمين أو الخارجين عن القانون.

وهذه العلاقة السلبية بين الجهاز الأمنى وبين المواطنين تتبدى فى أوضح صورها فى استمرار العمل بقانون الطوارئ طوال ربع قرن، وهذا دليل على عدم الثقة المتبادل بين السلطة والشعب . وهذا القانون لم يمنع العنف فى مصر بل زاده، وقتل نبض الشارع المصرى، وكتم أنفاس المعارضين وغير المعارضين، وأعطى إحساسا وهميا بالسيطرة والإستقرار يسبح فوق بحر هائج ملئ باحتمالات الغضب والإنفجار .

أسباب العنف فى المجتمع المصرى:

١ - أسباب نفسية:

-**الإحباط:** وهو أهم عامل منفرد يؤدى إلى العنف، ولدى الشعب المصرى كم هائل من الإحباط على مستويات متعددة نذكرها فى موضعها لاحقا .

- **التلوث السمعى والبصرى والأخلاقى** : والمتمثل فى الضوضاء والصخب والقاذورات والأخلاقيات المتدنية فى الشوارع والميادين والدواوين مما يخالف الطبيعة الهادئة والنقية التى اعتادها الشعب المصرى فى مراحل سابقة من تاريخه .

- **الإحساس المؤلم بالدونية لدى المصرى داخل وخارج بلده** ، فالمصرى يشعر أنه مواطن من الدرجة الثانية سواء فى بلده أو خارجها، ويتأكد لديه هذا الإحساس كلما ذهب إلى قسم شرطة أو سفارة أو أى جهة رسمية فى الداخل والخارج، فهو بلا حقوق وبلا كرامة، ولا يدافع عنه أحد، وفى نفس الوقت يرى المواطنين من الجنسيات الأخرى سواء كانوا عربا أو أجانب يحظون بالرعاية والحماية والإحترام.

- **فقدان الأمل فى المستقبل** على كل المستويات السياسية والإقتصادية والإجتماعية خاصة لدى طبقة الشباب الذين قضوا سنوات طويلة فى التعليم وأرهقوا أهلهم فى الدروس الخصوصية ثم اكتشفوا أنهم يحملون ورقة (شهادة) لا قيمة لها وأنهم لن يجدوا فرصة للعمل بها، وحتى لو وجدوا فستكون أعمالا دونية لا تتفق مع مستوياتهم الإجتماعية أو العلمية

- **انسداد قنوات التعبير**، وانسداد مسارات الحوار، وشيوع ألوان من الحوار السلبى مثل : حوار الطريق المسدود (لا داعى للحوار فلن نتفق)، وحوار الطرشان (قل ما تشاء فلن أسمعك)، والحوار السلطوى (اسمع واستجب)، والحوار الإلغائى أو التسفيهى (كل ما عداى خطأ)، والحوار المعاكس (عكسك على طول الخط)، وحوار العدوان السلبى (صمت العناد والتجاهل)، والحوار العدمى التعجيزى، وحوار المناورة (الكر والفر)، والحوار المزدوج، والحوار السطحى، وحوار البرج العاجى، والحوار المداهن (معك على طول الخط ورهن إشارتك وتحت أمرك)، والحوار الفهلوى (نفهمها وهى طايره، احنا اللى دهنا الهوا دوكو، احنا اللى خرمنا التعريفه و احنا اللى مشينا النمل طوابير، كله تمام يا سعادة الباشا، ......

- **انسداد قنوات التغيير السلمى والشرعى** مما يؤدى إلى علاقة ملتبسة بين المواطن

والسلطة، فهو يراها سلطة مستبدة يحمل تجاهها مشاعر الرفض والغضب وفى نفس الوقت يداهنها ويخشاها، وشيئا فشيئا تحدث تشوهات فى شخصية المواطن فإما أن ينفجر غضبه فى أعمال عنف تجاه السلطة ورموزها، أو يزيح هذا الغضب تجاه غيره من المواطنين فيقهرهم ويعذبهم، أو تجاه زوجته وأبنائه فيحيل حياتهم جحيما، أو يحول غضبه إلى عدوان سلبى يظهر فى صورة عناد وسلبية ولامبالاة وكسل وتراخ، أو يتحول إلى فهلوى وسيكوباتى يلاعب السلطة ويخادعها ويستفيد من سلبياتها ويتعايش معها . أما السلطة فإنها تنظر إلى المواطن بتوجس وحذر وترى فيه مخادعا أو متآمرا وبالتالى تحتاج لقانون طوارئ يحكمه ويتحكم فى نواياه الخبيثة (فى نظرها) التى لاتكفيها القوانين العادية، فهو فى نظر السلطة ماكر ومخادع ويمكنه الإحتيال على القوانين واستغلال ثغراتها

٢ - أسباب سياسية:

داخلية :

– الجمود السياسى والذى أصبح سمة واضحة منذ سنوات عديدة، ذلك الجمود الذى أصبح عاجزا عن استيعاب حركة المجتمع وأصبح عائقا أمام النمو الطبيعى للحياة، فهناك فجوة هائلة بين حركة الحياة والحركة السياسية، وهذه الفجوة تتسع يوما بعد يوم وتهدد دائما باحتمالات خطرة، ولا يجدى فى الوقت الحالى تلك المحاولات السطحية والمترددة للتغيير الشكلى دون الجوهر والمضمون .

– الصمم السياسى : وهو عدم الإستماع للأصوات الأخرى المنادية بالإصلاح أو التغيير رغم علو نبرة هذه الأصوات ووصولها إلى مرحلة التجاوز .

– العناد السلطوى وعدم الإستجابة للمطالب الشعبية .

– القهر السلطوى لكافة ألوان المعارضة (باستثناء المستأنس والمنتفع منها) مما يدفع إلى العمل السرى والتنظيمات التحتية .

– انتشار الفساد بشكل وبائى ومستفز ومتجاوز لما هو مقبول فى المجتمعات البشرية ومع ضعف المحولات للسيطرة عليه بما يوحى بقبوله أو التورط فيه على كافة المستويات .

– البيروقراطية الحكومية، وما تؤدى إليه من معاناة وعذابات يومية يعيشها المواطن المصرى بحثا عن حقوقه (صور هذا الموقف فى شكل كوميدى فيلم الإرهاب والكباب) .

– الإحساس بالظلم لدى قطاعات عريضة من الناس مع عدم وجود آلية شرعية لدفع هذا الظلم نظرا لما سبق الحديث عنه من الجمود والصمم والعناد والفساد على كل المستويات .

– التحايل والمناورة والإلتفاف على الضغوط الداخلية والخارجية المطالبة بالإصلاح الحقيقى، مع التظاهر بالإستجابة من خلال عمليات شكلية مفرغة من أى مضمون حقيقى، بما يعطى إحساسا باليأس من التغيير السلمى ويفتح الباب أمام مخططات العنف بهدف تعتعة هذا الجمود والعناد السلطوى القاهر.

– غياب الديموقراطية الحقيقية والإكتفاء بأشكال هشة وخادعة للديموقراطية تكرس للأمر الواقع وتخفى تحتها وجها قبيحا للإستبداد . ونظرا لأن الشعوب ومن بينها الشعب المصرى أصبحت ترى ثمار الديموقراطية الحقيقية فى الدول المتقدمة (وحتى نصف المتقدمة) عبر القنوات الفضائية، لذلك أصبح غياب الديموقراطية عن أى شعب عملا مستفزا ينبئ بمخاطر جمة، فلم تعد المجتمعات مغلقة كالسابق، ولم يعد خداعها ممكنا فى وجود السماوات المفتوحة وقنوات الإتصال الهائلة، ومن يعتقد أنه قادر فى مثل هذه الظروف على الإستمرار فى الخداع والمناورة وكسب الوقت والإبقاء على الأوضاع كما هى فهو يعيش وهما يؤدى إن آجلا أو عاجلا إلى أوضاع مأساوية تأتى على الأخضر واليابس .

خارجية:

– جرح الكرامة الإسلامية والعربية والمصرية من خلال القهر العالمى والأمريكى والإسرائيلى من خلال احتلال فلسطين وأفغانستان والعراق، وإذلال ليبيا، والتمهيد لاحتلال السودان وسوريا وربما مصر، مع صمت واستسلام وتخاذل رسمى تجاه كل هذا .

– زيادة التبعية للغرب بوجه عام ولأمريكا بوجه خاص، مما يثير الحفيظة وربما الغضب تجاه التابع والمتبوع على السواء

– القهر الخارجى وما صاحبه من تجاوز الشرعية الدولية بواسطة القوة الأمريكية الباطشة والغاشمة، مما يعطى تبريرا للبعض بتجاوز مماثل لكل أنواع الشرعية دفاعا عن الذات، ودفعا للإحساس المؤلم بالظلم.

٣ - أسباب اجتماعية:

– تقلص المساحة الحضارية بسبب الزحام وسوء التوزيع والإختناقات المرورية وتفشى العشوائيات : ومفهوم المساحة الحضارية لدى علماء الإجتماع يعنى تلك المساحة المتاحة للفرد كى يتحرك فيها بحرية، ومن خلال التجارب العملية وجد أنه كلما ضاقت هذه المساحة كلما زادت دفعات العنف لدى الأفراد .

– شيوع وغلبة عدد كبيبر من القيم السلبية مثل الفهلوة والإنتهازية والنصب والإحتيال والكذب ومحاولة الكسب السريع بغير جهد أو بأقل جهد، والرشوة والمحسوبية، والظلم الإجتماعى .

– سفر عدد كبير من الآباء للعمل فى الخارج مما أدى إلى خلل فى الضبط الأسرى وفى التركيبة الإجتماعية .

٤ - أسباب دينية وطائفية:

–تنامى الفكر الدينى الإستقطابى الذى يكفر الآخر أو يفسقه أو يلغيه .

- تنامى النزعات الطائفية فى غياب الإنتماء الوطنى العام وضعف الحكومة والأحزاب السياسية (اتجه الأقباط إلى الكنيسة والبابا، واتجه المسلمون إلى الجماعات الدينية وأمرائها ومرشديها)

- ضعف التربية فى المدارس وانتقالها إلى الكنائس المغلقة والمساجد المنزوية والغرف المغلقة، وجارى الشحن والتسخين حتى إشعار آخر .

- محاولات خارجية لتسخين الأجواء وتهيئتها لفتنة طائفية أكبر .

- انشغال السلطة بجنى مكاسبها الشخصية والحفاظ على الكراسى (بالتمديد أو التوريث) ، وأحيانا اللعب بالورقة الطائفية لشد الأذن أو الضغط أو التحجيم أو التأديب و وهذه كلها ألعاب شديدة الخطورة على الوحدة الوطنية والأمن القومى .

- التغطية والتمويه والإلتفاف على المشكلات الطائفية القائمة بمزيد من الأحضان والقبلات التليفزيونية بين القيادات الدينية الرسمية، والدعوات الرمضانية وادعاءات الإستقرار الزائفة، كل هذا يشكل خطورة كبيرة لأنه يحول دون رؤية أوضاع تتزايد حدتها يوما بعد يوم، ويمكن أن تفلت وتخرج عن السيطرة فى أى لحظة ومع أى تسخين خارجى أو داخلى، وهناك الكثير من الإرهاصات المتصاعدة والتى تؤكد هذه الإحتمالات المرعبة .

- الإرتكان إلى عمق العلاقة التاريخية بين المواطنين المصريين مسلمين وأقباط، مع عدم الإنتباه إلى التغيرات الداخلية والخارجية التى ربما تغير الصورة وتدفع إلى مزيد من اليقظة والحذر واتخاذ التدابير الحقيقية لاستعادة سلامة النسيج الوطنى الذى كان معروفا لدى المجتمع المصرى .

- إزاحة الكثير من الغضب الموجه تجاه السلطة نحو موضوعات طائفية ودينية بهدف الإحراج أو الإنتقام أو الزحزحة أو التنفيس اليائس .

٥ - أسباب أمنية:

– الإكتفاء بالضبط الأمنى (دون السياسى والإجتماعى والإقتصادى) مما أدى إلى حالة من الصراع والثأر تتزايد عنفا يوما بعد يوم .

– تضخم المؤسستين العسكرية والشرطية على حساب المؤسسات المدنية مما أعطى إيحاءا بعسكرة الحياة المصرية وعسكرة الصراع مع المختلفين والمعارضين وبالتالى سيطرة الحلول العنيفة ولغة القوة (بدلا من الحوار والتفاهم السياسى والمدنى) لمواجهة هذا الطغيان العسكرى الذى لا يعرف – غالبا – لغة الحوار المدنى و وإذا عرفها لايستجيب لها، بل إنه غالبا يقف معاندا ومتعاليا على المطالب والمقترحات المدنية . أى أننا أمام ظاهرة يمكن تسميتها عسكرة الحوار ، سببها تضخم المؤسسات العسكرية وشبه العسكرية، والمقصود بالأخيرة هو هذا العدد الهائل من أصحاب المناصب القيادية العسكرية على رأس المؤسسات المدنية بعد خروجهم من الخدمة العسكرية أو إحالتهم إلى المعاش، وهؤلاء وإن كان يفترض فيهم قدرتهم على الضبط والربط والحزم والحسم والإنضباط (بما لديهم من خلفية عسكرية) ,إلا أنهم تنقصهم الحنكة والمرونة والتفهم لمتطلبات الحياة المدنية بتشابكاتها وتعقيداتها .

– العلاقة المشوبة بالخوف والحذر وأحيانا الكراهية بين السلطة الأمنية والمواطن، وذلك بناءا على خبرات سلبية متراكمة فى تعامله مع هذه السلطة مما يجعله يحجم عن التعامل معها أو حتى الإحتكاك بها بأى صورة، وتصبح كل أمنيته اكتفاء شرها . وقد ساهم فى ذلك قانون الطوارئ الذى استمر سنوات طويلة وأعطى سلطات استثنائية للسلطة الأمنية أدت فى كثير من الأحيان إلى تجاوزات قانونية وإلى انتهاكات لحقوق الإنسان سجلتها تقارير المنظمات المحلية والدولية . ونظرا لقسوة وبطش الحملات الأمنية على المعارضين أو المخالفين أو المتهمين فقد يلجأ بعضهم إلى العنف الإنتحارى فى مواجهة تلك الحملات، وكأنه يفضل الموت على الوقوع فى أيدى السلطة الأمنية التى يعرف أنها ستتجاوز كل الحدود القانونية والإنسانية فى

تعاملها معه، يؤدى هذا أيضا إلى القيام بأعمال عنف ثأرية مروعة (كما حدث فى حادثى الأقصر وشرم الشيخ)

الوقاية والعلاج:

لابد وأن نعترف بأن مواجهة ظاهرة العنف هى واجبنا جميعا بلا استثناء لأن الظاهرة تحرق الجميع بلا تفرقة، وتعطى صورة سيئة عنا فى الداخل والخارج، لذلك يجب أن نكف عن اتهام بعضنا البعض وإسقاط المشكلة على الآخرين أو إلقاء التبعة عليهم وانتظار الحل منهم . ومن المهم أن نعترف بأننا أصبحنا فى نظر العالم بيئة مصدرة للعنف والإرهاب، وأننا بالتالى نحتاج كمجتمع للتأهيل النفسى والإجتماعى والسياسى والدينى، وأن العالم الآن يفكر (بحسن نية أو بسوء نية) كيف يتم هذا التأهيل، فكأننا أصبحنا نمثل أحد عشوائيات العالم التى تحتاج للعلاج والتأهيل بعد أن كنا أرض الحضارة ومهبط الديانات .

مبادئ عامة فى الوقاية والعلاج:

١) توجيه العناية نحو الفئات الهشة (الأكثر قابلية لاستثارة العنف) للتعرف على مثيرات العنف لديها ومحاولة خفض هذه المثيرات .

٢) دراسة حالات العنف دراسة علمية مستفيضة لاستكشاف الجوانب العضوية والنفسية والاجتماعية التى تحتاج إلى علاج .

٣) الحوار الصحى الإيجابى لإعطاء الفرصة لكل الفئات للتعبير عن نفسها بشكل منظم وآمن يقلل من فرص اللجوء إلى العنف .

٤) التدريب على المهارات الاجتماعية ، حيث وجد أن الأشخاص ذوى الميول نحو العنف لديهم مشكلات كثيرة فى التواصل والتفاعل الاجتماعى مما يضعهم فى كثير من الأحيان فى مواجهات حادة وخطرة مع من يتعاملون معهم ، وهذا يستثير العنف لديهم . لذلك فإن برنامجاً للتدريب على المهارات الاجتماعية كمهارة التواصل

ومهارة تحمل الإحباط وغيرها . يمكن أن يؤدى إلى خفض الميول العدوانية لدى هؤلاء الأشخاص .

٥) العقاب : أحياناً يؤدى العقاب المناسب (خاصة إذا كان قريباً من الفعل العنيف زمنيا) إلى تقليل حدة وتكرار السلوكيات العنيفة من خلال الارتباط الشرطى بين العنف والعقاب . ولكن إذا كانت هناك فترة زمنية طويلة بين الفعل العنيف وبين توقيع العقوبة ، أو كان العقاب غير متناسب مع الفعل العنيف فإن العقاب ربما يؤدى إلى نتيجة عكسية فيزيد من احتمالات زيادة العنف ، وهذا ملاحظ فى الحالات التى تتعرض للإيذاء الجسدى والنفسى العنيف حيث يصبحون أكثر ميلاً نحو العنف ، بل ويزداد عنفهم خطورة .

٦) الاستجابات المغايرة : وهذه الطريقة تقوم على مواجهة السلوك العنيف بسلوك مغاير تماما يؤدى إلى إيقاف العنف والتقليل من معاودته . وكمثال على ذلك إذا وجد الشخص ذوى الميول العنيفة أن الشخص المقابل يعامله بحب وتعاطف وشفقة فإن ذلك يقلل من إندفاعاته العنيفة ، وهذا مصداق للآية ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ومثال آخر : أن تقابل الميول العنيفة بالدعابة من الطرف الآخر ، وقد وجد فعلا بالتجربة أن الدعابة والطرافة فى المواقف الحادة تقلل من احتمالات العنف . ووجد أيضاً أن إيقاظ الإحساس بالذنب أو الانغماس فى نشاط ذهنى معرفى ، أو التعرض لبعض المثيرات المحببة للشخص ، كل هذا يمكن أن يؤدى إلى انخفاض نزعات العنف .

٧) العلاج الدوائى : وهذا العلاج يصبح ذو أهمية خاصة فى الحالات المرضية كالاضطرابات العضوية أو النفسية وحتى فى غير هذه الحالات وجد أن لبعض الأدوية مثل الليثوم والريسبيريدون وأدوية الصرع أثراً على نزعات العنف .

مسئولية السلطة السياسية :

– البدأ فورا ودون تراخ أو انتظار فى عملية الإصلاح السياسى الحقيقى الذى يؤدى وبسرعة وبلا خوف أو تردد إلى نظام ديموقراط تعددى يستوعب كل ألوان الطيف السياسى والإجتماعى دون نبذ أو وصم أو استبعاد أو إلغاء أيا كانت أسبابه أو مبرراته .

– الكف عن اغتصاب السلطة التنفيذية أو التشريعية بالتزوير أو بغيره من المحاولات المكشوفة للجميع، والتى يمكن أن تعصف بكل شئ فى لحظة انفجار لا يعلم مداها أحد.

– إلغاء قانون الطوارئ الذى أدى إلى تنامى أحداث العنف بدلا من أن يحد منها، وخلق حالة من الإحتقان الأمنى والسياسى لا مبرر لها .

مسئولية السلطة الأمنية :

– الإلتزام الكامل بالقوانين العادية وبحقوق الإنسان فى التعامل مع المواطن

– الإبتعاد عن الصراعات السياسية والطائفية والتعامل مع المصريين جميعا بشكل متعادل وحيادى .

– استعادة ثقة المواطن فى أجهزة الأمن وتشجيعه على أن يكون عونا لتلك الأجهزة فى السيطرة على المجموعات الإرهابية والخارجين على القانون .

– محاسبة كل من ينتهك حقوق الإنسان من المنتمين إلى جهاز الشرطة.

مسئولية وزارة التربية والتعليم :

– استعادة الدور التربوى للوزارة حتى لا يتم هذا الدور فى الأماكن المغلقة وفى التنظيمات السرية، أو لا يتم أصلا .

– تطوير التعليم بالشكل الذى يؤدى إلى انتهاء أزمة الدروس الخصوصية فعلا لا قولا .

مسئولية الإعلام:

– إشاعة قيم التسامح والصدق والعدل والرحمة وغيرها من الأخلاقيات .

– الكف عن الإستفزاز الإعلامى والإستهلاكى والأخلاقى فى مجتمع فقيرومتدين.

– الكف عن الكذب والتضليل والخداع ونفاق الحكام لأن كل ذلك من شأنه فقد الثقة لدى الناس فى التغيير الحقيقى والتعبير الحقيقى بما يفتح احتمالات وخيارات التغيير العنيف.

– إعطاء الفرص المتكافئة لكافة الأطياف السياسية والإجتماعية والدينية والثقافية للتعبير عن نفسها بحرية دون حجر أو وصاية أو إلغاء أو استبعاد .

مسئولية المؤسسات الدينية:

– محاربة الفكر الدينى الإستقطابى والكف عن اللعب على الوتر الطائفى .

– إشاعة قيم المحبة والقبول للآخر المختلف.

– عدم الإكتفاء بالقبلات والأحضان التليفزيونية بل الدخول فى عمق المشكلات وحلها بأمانة وموضوعية .

– ممارسة الأنشطة التربوية والدينية والثقافية فى جو مفتوح وبعيد عن السرية .

– الكف عن الشحن الطائفى بكل الوسائل خاصة لدى الشباب .

مسئولية الأسرة:

– رعاية الأبناء واحتوائهم .

– إشاعة جو الحوار والتفاهم داخل الأسرة .

– تعليم الأبناء قيم الإختلاف ومهارات حل الصراع .

الفصل الثالث

الجو النفسى للفتنة

(قراءة فى أحداث كنيكة مارى جرجس بالإسكندرية)

تعودنا فى مهنة الطب النفسى أن نحدد عوامل الخطورة لدى الأشخاص المعرضين للقيام بسلوكيات عنيفة تجاه أنفسهم أو تجاه غيرهم ، وذلك بهدف دراسة تلك العوامل والتعامل معها وتقليلها لكى نصل إلى حالة نسبية من الأمان للشخص وللمجتمع . وهذا المنهج يمكن تطبيقه فى قراءة وتحديد عوامل الخطورة فى الوسط الإجتماعى مع الوضع فى الإعتبار سيكولوجيات الجماعة وسيكولوجية القيادة ، وهذا ما سنحاوله تجاه أحداث العنف فى الإسكندرية خاصة بعد أن هدأت العاصفة (مؤقتا وإلى إشعار آخر) وانقشع الغبار بعض الشئ .

وكما تعودنا فإن مهنة الطب هى أحد المهن الإنسانية المحايدة التى يفترض فيها الموضوعية والتعادلية والنزاهة والبعد عن التحيز والتعصب وميلها للرعاية والعناية والحفاظ على الحياة بصرف النظر عن أى اعتبارات سياسية أو دينية أو اجتماعية ، فالطبيب حتى وهو فى أرض المعركة مكلف بإنقاذ الجرحى وعلاج المرضى دون النظر إلى أى المعسكرين ينتموا ، وهذا هو سر احترام الناس لها عبر القرون . وإذا كانت هذه الإعتبارات فى صلب قوانين وآداب مهنة الطب فهى أيضا قناعات شخصية لكاتب هذه السطور تجاه البشر عموما (كمخلوقات كرمها الله) ، وتجاه أبناء الوطن على وجه الخصوص بما لهم من حقوق المواطنة والجوار والشراكة والبر والعدل ، وهذا ليس موقفا شخصيا أو إنسانيا أو رومانسيا مجردا ، وإنما هو نابع من قناعة دينية أصيلة قررها خالق كل البشر بقوله : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم والله يحب المقسطين ، نسأل الله أن يجعلنا من المقسطين الذين يحبهم لأنهم يبرون خلقه ويقسطون إليهم .

نستطيع بعد هذه لمقدمة الضرورية (لدفع أى مظنة للتحيز ، فالشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم كما ورد فى الحديث الشريف) أن نرصد بعض عوامل الخطر والتى ما زالت كامنة على الرغم من الحسم الأمنى وعلى الرغم من الأحضان واللقاءات التليفزيونية وحفلات الإفطار الرمضانية ولقاءات أعياد الميلاد وأعياد القيامة، وعلى الرغم من التاريخ الطويل لسلامة النسيج الوطنى المصرى على مر العصور كتجربة فريدة ومميزة فى التعايش بين الطوائف والأديان تحت مظلة واحدة:

١- تنامى نزعات الفكر الدينى الإستقطابى

الذى يرفض الآخر أو يلغيه أو يكفره أو يفسقه أو يسفهه أو يعاديه سرا أو علنا . وهذا الفكر قد يكون موجودا منذ زمن طويل لدى فئة قليلة من الطوائف والأديان المختلفة التى عاشت على أرض مصر ولكنها لم تكن تشكل توجه الأغلبية أو لم تكن على الأقل تشكل نسبة كبيرة خاصة بين الشباب ، أما الآن فهناك عوامل تغذيها على الجانبين نذكر منها :

عوامل داخلية :

وجود قيادات دينية داخلية على الجانبين تتبنى الفكر الإستقطابى وتغذيه لدى الشباب ، وتستغل كل الأحداث والظروف لتأكيده ، ومع الوقت أصبحت هذه القيادات الدينية تمثل بؤرا للإستقطاب الدينى يلتف حولها الشباب ويلجأون إليها فى وقت الشدائد والمحن فتمنحهم الرعاية والحماية ، فيتأكد لديهم مفهوم الإنتماء الطائفى المستقطب ، ويشعرون بالأمان فى كنفه . ويزيد من المشكلة ضعف القيادات السياسية والوطنية وتراجعها أمام ضغط القيادات الدينية الإستقطابية أو المستقطبة ، وإعطائها امتيازات تغرى بمزيد من التمادى فى الإستقطاب حتى ولو على حساب الحقوق الدستورية والقانونية للمواطنين المصريين (كانتماء أحدهم لعقيدة معينة) .

عوامل خارجية :

كثرة الأصابع التى تلعب على الوتر الطائفى وتزكيه ، بعض هذه الأصابع تنتمى لمن هاجروا من مصر أو هجروها وهم يحملون فى أنفسهم مشاعر سلبية تجاه الوطن نظرا لما عانوه فيه من مصاعب ومشكلات فاقت قدرتهم على الإحتمال ودفعتهم للهجرة (أو الهجر) بعيدا عن حضن وطنهم ، لذلك فهم لديهم مشاعر ثأر من الظروف التى عاشوها ولديهم رغبة فى الإنتقام ممن سببوها لهم خاصة إذا شعروا أنهم تعرضوا لما تعرضوا له بسبب انتماءاتهم الدينية أو الطائفية . وأصعب وضع يمر به وطن أن تصل فيه الأمور إلى حالة تدفع أبناءه إلى حربه من الخارج واستعداء القوى الخارجية والداخلية ضده ، وفى هذا دلالة على انعدام (أو على الأقل ضعف) قيم العدالة والمساواة والحرية وحقوق المواطنة فى هذا الوطن .

وتنتمى بعض الأصابع الأخرى إلى جهات وهيئات أجنبية (أمريكية فى الأغلب على الأقل فى الفترة الأخيرة) تحاول تغيير خريطة المنطقة بما يخدم مصالحها فى ظل ظروف غير مواتية تعيشها الدول العربية ، وهذه الأصابع تستغل كل الأوراق بما فيها الورقة الطائفية ومفهوم الأقليات والحريات الدينية ، وتستغل أطماع الجالسين على كراسى الحكم فى الأنظمة العربية (أطماعهم فى البقاء وأطماعهم فى الحكم الإستبدادى المطلق) لكى تساومهم وتبتزهم وتقايض مصالحهم الشخصية بمصالح الأوطان . وهذه الأصابع الخارجية تكاد تكون أحد أهم عوامل الإستقطاب الدينى فى الوقت الحالى فهى تعطى وعودا مباشرة أو غير مباشرة لطرف من الأطراف بالحماية والرعاية وربما تدفعه للإستقواء على الطرف الآخر ، وهذا الموقف يستفز الطرف الآخر ويدفعه للبحث عن مصادر قوته ودعمه للوقوف أمام قوى الإستقطاب الداخلية المستقوية أو المحتمية بالقوى الخارجية ، وهذا الوضع قد شعر به المثقف المتابع كما شعر به رجل الشارع وأصبح يشكل خطرا لا يستهان به ، بل ويشكل تشكيكا (بحق أو بغير حق) فى وطنية وانتماء المحتمين أو المستقوين

بالخارج أو حتى الذين يحاولون استثمار الوضع العالمى الجديد لتحقيق مصالح فئوية أو طائفية بالضغط الخشن أو الناعم . وهذا الدعم الإستقطابى القادم من الغرب يقابله على الطرف الآخر دعما استقطابيا آخر قادم من الشرق فى صورة توجهات دينية سلفية معاصرة تضع الآخر فى موضع أدنى عقائديا وتشكك فى انتمائه الوطنى والإيمانى وتضعه فى معسكر قابل لأن يكون معاديا فى أى لحظة .

٢- ضعف الإنتماء الوطنى العام :

فنتيجة للظروف السياسية التى اتسمت بالجمود والميل للإستبداد وفقدان الأمل فى التغيير ، والظروف الإقتصادية التى اتسمت بصعوبات الحياة أمام غالبية الشعب وانعدام فرص العمل وانعدام الأمل أمام الشباب ، والظروف الإجتماعية التى اتسمت بتفشى سمات الفهلوة والقيم السلبية الأخرى مثل الرشوة والفساد والوساطة والإهمال والتسيب ، كل هذا أفرز حالة هى مزيج من الغضب المكتوم والسلبية واللامبالاة والتراخى والكسل والمشاعر السلبية تجاه كل شئ وفقدان الحلم وانعدام الأمل فى المستقبل ، وحالة من العدوان السلبى تجاه الوطن وتجاه الناس وتجاه الشخص ذاته ، ولم تعد هناك على المستوى السياسى أو الإقتصادى أو الإجتماعى شخصيات وطنية تغرى بالحب أو الإقتداء .

٣- ظهور القيادات التحتية المتعددة :

ففى حالة ضعف الإنتماء الوطنى العام وغياب الهدف القومى الذى يسعى من أجله الجميع (كما قالت المرأة الصعيدية فى ديوان أحمد سماعين لعبد الرحمن الأبنودى : الشغل يا ولدى يخاوى بين المسلم والنصرانى) ، وغياب القيادة السياسية التى يشعر الجميع بحيادها ونزاهتها وعدلها وحبها ، وغياب النظام الديموقراطى الذى تجد كل الفئات والطوائف نفسها ممثلة وفاعلة فيه ، فى ظل كل هذا تتكون قيادات تحتية تعمل بديلا للقيادة العامة الغائبة أو الضعيفة أو المتحيزة أو المتهمة (بحق أو بغير حق) ، وتبدأ حالة تكوين المجموعات والجماعات التحتية ، تحت قيادات متعددة

لا رابط بينها ولا تنسيق ، وهنا تبدأ الإنشقاقات والتصدعات خاصة إذا تم تدعيم أو تحفيز أو تشجيع تلك القيادات من هنا أو هناك . وهذا ما حدث ويحدث فى مصر فى السنوات الأخيرة حيث ضعف الإنتماء الوطنى العام واتجه جانب كبير من شباب المسلمين نحو جماعاتهم الدينية وأمرائهم ومرشديهم ، واتجه شباب الأقباط إلى الكنيسة وإلى البابا ، وأصبحت هذه الإنتماءات البديلة هى الأقوى والأكثر تأثيرا بدليل احتشاد الشباب القبطى فى الكنائس مع أى مشكلة تواجههم ودفاع البابا عنهم لدى الدولة وكأنهما طرفين متصارعين ، وأيضا تجمع عدد غير قليل من الشباب المسلم حول قيادات دينية لها مصداقية وتأثيرا عليهم أكثر من الدولة وقياداتها بل إن هناك صراعا بين الدولة وبين تلك القيادات والجماعات ومن خلفهم من الشباب . هذا الوضع خلق حالة من التقسيم غاب عنها الدور الناضج والمحايد والعادل والراعى للدولة ، وهو آخذ فى الإزدياد مع الوقت فى ظل الإصرار على لحالة السياسية الراهنة بمشكلاتها وعيوبها وجمودها وتشبثها بالسلطة وتحايلها من أجل البقاء بأى ثمن حتى ولو كان سلامة الوطن .

٤- التربية في الأماكن المغلقة :

لما ضعف الدور التربوى للمدارس أو اختفى تقريبا فى بعض المراحل الهامة (وبالأخص المرحلة الثانوية) ، لذلك انتقلت عملية التربية إلى الغرف المغلقة والمساجد النائية والكنائس المغلقة ، وأصبح غير معروف ما يقال فى هذه الأماكن للشباب ، ولكن من الواضح أن هنا عمليات تسخين وتحفيز تجرى على الجانبين نرى آثارها حين تظهر أى مشكلة فى صورة شباب غاضب وناقم ومتحفز ومستقطب .

٥- التغطية على المشكلات وتجنب مواجهتها :

فما من شك أن هناك مشكلات يعانيها الشعب ككل سببها غياب الحريات الحقيقية وضعف الأمل فى تداول السلطة ، وحالة الصمم السياسى أمام المطالب الشعبية ، وحالة العناد السلطوى، وحالة البطالة والفقر ، وتفشى الفساد بشكل مرعب ،

كما أن هناك مشكلات تخص عنصرى الأمة كل على حدة ، وهذه المشكلات تحتاج للمناقشة الجادة ومحاولات الحل الصادقة وتحتاج للثقة بين جميع الأطراف وتحتاج للتفكير من خلال المصلحة الوطنية وليس من خلال البحث عن مكاسب فئوية أو طائفية أو من اخلال استغلال ظروف محلية أو دولية . ومن الخطر أن نكتفى بالحلول التليفزيونية وبالأحضان والقبلات بين القيادات الدينية فى المناسبات المختلفة ، فهذا يشكل غطاءا خادعا يخفى النار تحت الرماد لنفاجأ – لا قدر الله – باشتعالها فجأة كما حدث فى الإسكندرية

٦- تكرار أحداث الغضب وتصاعدها :

فمن حادث وفاء قسطنطين إلى حادث مارى عبد الله إلى حادث كنيسة الفيوم وقبلها حوادث الكشح وآخرها وأخطرها حادث الإسكندرية ، والذى يزيد من خطورته وجود نص مسرحى ومسرحية ترى الآخر بصورة مشوهة وعدائية تمثل فى كنيسة كبيرة وبموافقة كنسية رسمية ثم رد فعل عنيف ومفاجئ وضخم (حوالى عشرة آلاف متظاهر غاضب ومتألم) . فهذا التكرار وهذا التصاعد دون ظهور حلول حقيقية على السطح يجعل معدلات الخطورة أكثر من الناحية العلمية (مثل محاولات الإنتحار أو القتل المتكررة والمتصاعدة على المستوى الفردى والتى توحى بقدر عال من الخطورة لا يجب تجاهله) .

والآن وبعد استعراض عوامل الخطورة الكامنة وراء هذه الأحداث نذكر من موقع الأمانة الوطنية والحياد النزيه بعض المقترحات المتواضعة علها تصل إلى من يهمهم الأمر (فعلا) فيفعلون شيئا قبل فوات الأوان :

١ – تكوين لجنة من الحكماء المعروفين بوطنيتهم واستقلالهم وتجردهم ، تكون وظيفتها دراسة ومناقشة الأوضاع المتأزمة بين الفئات والطوائف المختلفة ووضع الحلول الحقيقية والمقترحات لها ومتابعة تنفيذها حتى لا تنفض كما انفضت لجنة العطيفى السابقة التى كلفت بمثل هذه المهمة كإجراء شكلى ولم يأخذه أحد مأخذ الجد .

٢- المسارعة فى الإصلاح السياسى على كل المستويات دون تأجيل أو مراوغة أو التفاف بحيث تتحقق تعددية سياسية حقيقية تستوعب كل التيارات والطوائف بشكل يسمح للجميع بالتعبير عن مشكلاته وطموحاته ومصاعبه وأماله ويشارك بشكل حقيقى فى بناء هذا الوطن ، ولا يشعر أحد - أيا كان - أنه مهمش أو مستبعد

٣- استعادة الدور التربوى فى المدارس وفى المؤسسات الثقافية والإجتماعية وفى الأحزاب السياسية (بعد إطلاقها من القيود) .

٤- تجنب الإستقواء بالخارج سواء كان شرقيا أو غربيا ، وتجنب استغلال الظروف الدولية الراهنة لتحقيق مصالح أو مكاسب فئوية أو طائفية على حساب قطاعات أخرى من الشعب لأن ذلك سيولد ضغينة لدى تلك الفئات يصعب اقتلاعها بعد ذلك .

٥- التعامل الواضح والنظيف والنبيل بين السلطة والقيادات الدينية والشعبية بعيدا عن كل وسائل لى الذراع أو شد الأذن أو ما نسميه بالعدوان السلبى المستتر ، ذلك العدوان المتبادل الذى تغطيه وتخفيه بعض الإبتسامات والتصريحات الدبلوماسية .

٦- وأخيرا نتذكر أننا جميعا أبناء وطن واحد ، وإذا لم نعمل جميعا لصالحه ومن أجل سلامته فسندفع جميعا ثمنا باهظا .

وأخيرا نسأل الله السلامة والسلام والمحبة للجميع .



الفصل الرابع

سيكولوجية الشيعة

(وإمكانات التعايش والصراع)

يتفق علماء النفس أن للإنسان جانب ظاهر من السلوك يحكمه عقله الواعى ، وهذا الجانب قد يبدو غريبا أو متناقضا أو غير مفهوم إذا نظرنا إليه وحده مقطوع الصلة عن جذوره الكامنة فى ما يسمى بالعقل الباطن (اللاشعور) ذلك العقل الباطن الذى اختزنت فيه الذكريات والأمانى والرغبات والمخاوف والدوافع والحاجات فشكلت قوة مستترة ولكنها هائلة التأثير على السلوك الظاهر للفرد . ولم يقتصر الأمر على الفرد بل امتد ليشمل الجماعة فثمة ما يطلق عليه العقل الباطن الجمعى (اللاشعور الجمعى) والذى وصفه العالم النفسى كارل جوستاف يونج ، وهو يحوى أرشيفا لتاريخ الأمم والجماعات يؤثر بوعى أو بدون وعى فى طرق تفكيرها ووجداناتها وسلوكياتها . وبدون هذه المنطقة الكامنة فى أعماق النفس (وغير المتاحة لنا فى الأحوال العادية) يصعب فهم الكثير من سلوكيات البشر أفرادا وجماعات ، لأن سلوكياتهم حينئذ ستبدو كـ[illegible]ـاعات عرضية فى فروع شجرة مدفونة فى الرمال لا نرى جذرها لذلك تبدو لنا أجزاء هذه الفروع فى تعدديتها وتناثرها وكأنه لا يوجد بينها رابط ، أما إذا أزلنا الرمال ووصلنا لجذر الشجرة فإننا نرى تسلسل الفروع منها بشكل منطقى ومنظم ومفهوم .

نسوق هذه المقدمة لندعو لما يمكن أن نطلق عليه التفسير النفسى للتاريخ وهو تفسير لا يأبه له أحد على الرغم من أهميته القصوى وارتفاع درجة صدقه وثباته فى قراءة وتفسير سلوك البشر أفرادا وجماعات ، وليس فقط القراءة الراجعة وإنما أيضا القراءة التنبؤية بناءا على التركيبة النفسية والديناميات النفسية التى تساعدنا على توقع سلوك معين من شخص معين أو جماعة معينة ، وهذا الأمر ربما يصبح فى المستقبل القريب أو البعيد علما له أصوله وفروعه يهدف إلى القراءة السابقة واللاحقة

للسلوك البشرى ليس رجما بالغيب أو قراءة للكف أو استطلاعا للنجوم أو تفسيرا للأحلام (كما يفعل الكهّان والعرّافون الجدد على شاشات الفضائيات العربية هذه الأيام) وإنما بناءا على معطيات تربط المقدمات بالنتائج وترجع الفروع إلى الأصول.

إذن لكى نفهم سلوك الشيعة أو أى طائفة دينية أو سياسية أو اجتماعية علينا أن نعود إلى الجذور النفسية المبكرة لها لتفسر لنا جزئيات السلوك الظاهرة والمتناثرة والتى يبدو أنها متفرقة أو غير مبررة أو غير مفهومة ، أو غير مترابطة وهى فى الحقيقة ليست كذلك لحظة قتل الحسين رضي الله عنه تشكل التركيبة النفسية للشيعة:

لا يمكن فهم الجوانب النفسية لأتباع المذهب الشيعى دون الرجوع إلى حادثة كربلاء التى استشهد فيها الحسين رضى الله عنه وعدد كبير من آل بيت النبى (على الرغم من أن بدايات الشيعة تعود إلى أيام الإمام على كرم الله وجهه) ، حيث تعتبر هذه الحادثة من اللحظات شديدة التكثيف والترميز والإيحاء والتأثير ، فالحسين رضى الله عنه خرج من مكة إلى العراق رغم إشفاق الكثير من الصحابة عليه حيث لم يكن يملك العدة أو العدد اللازمين لملاقاة جيش يزيد ، وهو كان يعلم ذلك جيداً ، ولكنه كان حريصاً على إحياء معنى الحق فى النفوس وضرب المثل بنفسه وبعشيرته فى الوقوف ضد الظلم حتى ولو وقف وحيداً ، وجعل حياته فى كفه وإرساء هذه المعانى فى نفوس المسلمين فى كفة (خاصة وأن تنازل الحسن رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية قد قوبل لدى قطاع من المسلمين وقتها بأنه مهادنة لبنى أمية) ، فهذه لحظة فاصلة تتحدد من خلالها قيماً ومعان هائلة تؤثر فى التاريخ الإسلامى بل والتاريخ الإنسانى كله. ومما يزيد من كثافة هذا الحدث وعمقه غدر أهل الكوفة الذين وعدوا الحسين رضى الله عنه بالنصرة ثم خذلوه وتركوه هو وعدد من خيرة آل بيت النبى يواجهون الموت فى الصحراء عطشى وجوعى على أيدى جنود يزيد الذين لم يراعوا حرمة آل بيت النبى ولم يراعوا – شأنهم شأن أى حاكم مغتر بقوته وسطوته – أى قيم إنسانية فذبحوا الحسين وفصلوا رأسه عن جسده ولم يراعوا حرمته حياً أو ميتاً . هذا الحدث

رسخ فى الوجدان الشيعى الأشياء التالية :

١- الشعور الشديد بالذنب تجاه الحسين رضي الله عنه فهم يشعرون أنه قتل وحيداً ولم يهبوا أو يهب أحد غيرهم لنصرته ، وأنهم تركوه يلاقى هذا المصير المؤلم وحده بيد عدو لدود لم يرع فيه إلاً ولا ذمة وهو من هو من شرف النسب ونبل المقصد .

٢- الإحساس الدائم بالحزن ، ذلك الحزن الذى لا تخطئه العين فى وجوه أتباع المذهب الشيعى ، وقد عبر الإمام على بن الحسين (زين العابدين) عن ذلك حين سأله الناس عن سر ذلك الحزن فقال: إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف ولم يعلم أنه مات ، وإنى رأيت بضعة عشر من أهل بيتى يذبحون فى غداة يوم واحد أفترون حزنهم يذهب من قلبى (البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ، ص ١٠٧) .

٣- الإحساس العميق بالظلم والغدر والشعور بالمرارة تجاه ما حدث والرغبة فى الثأر ممن فعلوا ذلك أو تواطئوا فيه أو سكتوا عنه .

٤- الخوف من الآخر والتشكك فيه واعتباره قابلاً للغدر فى أى لحظة ، وأخذ الحيطة والحذر إلى أقصى حد ممكن ليس فقط فى الأفعال ولكن حتى فى الكلام ، وهذا ما نشأ عنه مبدأ التقيّة الشهير فى السلوك الشيعى .

٥- الانعزال عن سائر جماعة المسلمين ، فعلى الرغم من اشتراك الشيعة فى كثير من شعائر الإسلام مع السنة إلا أنهم معزولون عقائدياً ووجدانياً عنهم ، وهناك الكثير من جدران الشك والتوجس لدى الجانبين بعضها تاريخى وبعضها عقائدى وبعضها سياسى . وقد فشلت محاولات متكررة فى مراحل تاريخية مختلفة لكسر هذه العزلة وإيجاد صيغة للتقارب أو التفاهم أو حتى التعايش بين السنة والشيعة وكان وراء هذا الفشل عوامل نفسية (ممثلة فى حالة التشكك والتوجس بين الطرفين ، إضافة إلى مبدأ التقيّة الذى يهز ثقة السنة فى أى وعود شيعية) ، وعوامل عقائدية (ممثلة فى خلافات تبدو أساسية فى العقيدة ومنها الإمامية كركن سادس للإسلام لدى الشيعة ، وموقف الشيعة من الصحابة وخاصة أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة رضوان الله

عليهم ، تلك الخلافات التى يبدو صعوبة تجاوزها لدى الطرفين شأن أى أمر عقيدى) ، وعوامل سياسية (متمثلة فى اختلاف توجهات أهل الحكم ومصالحهم بصرف النظر عن مصالح الشعوب ، إضافة إلى لعب القوى الخارجية خاصة أمريكا على وتر إثارة الصراع الطائفى بين السنة والشيعة بغية السيطرة الكاملة على منطقة الشرق الأوسط الغنية بالنفط) .

٦- محاولة امتلاك ناصية القوة بناءاً على مشاعر الظلم والاضطهاد والعزلة وذلك لحماية الذات من العدو البعيد ممثلاً فى قوى الغرب غير المسلم (تمثله أمريكا حالياً) والعدو القريب (تمثله الكتلة الإسلامية السنية وبوجه خاص التيار السلفى الوهابى) . وربما نفهم فى هذا السياق النفسى محاولات إيران المستميتة لامتلاك السلاح النووى ومحاولات التمدد الشيعى المنظم فى لبنان والعراق ودول الخليج .

٧- التعظيم الذى يصل إلى التقديس : فمن شدة شعورهم بالذنب تجاه الحسين من ناحية ، ومن ناحية أخرى إعجابهم بشجاعته وصموده وتضحيته ، بالغوا كثيراً فى التعامل معه ومع ذكراه ، وهذا الأمر له شبيه فى تاريخ السيد المسيح عليه السلام حين حاول اليهود الغدر به وقتله وصلبه ، وهنا ظهرت مشاعر الذنب الشديدة لدى أتباعه من النصارى فعظموه لدرجة التأليه . فالشيعة تحت تأثير الشعور بالذنب يعطون لسيدنا الحسين رضى الله عنه مساحة فى وعيهم تطغى على كل ما عداه وتنتقص فى ذات الوقت من مساحة ومكانة الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً ، والسبب وراء ذلك هو الشعور الشديد بالذنب والانطلاق من لحظة مقتله ، تلك اللحظة المليئة بمشاعر الألم والحسرة من ناحية والبطولة والصمود من ناحية أخرى . وهذا التعظيم والتقديس للحسين وعلى رضى الله عنهما وصل لدى الشيعة إلى حالة من الإستقطاب الوجدانى الشديد ، بمعنى أن حبهم الهائل هذا جاء على حساب حب بقية الصحابة رضوان الله عليهم جميعا ، بل كثيرا ما قابله مشاعر سلبية تجاه نفر من خيرة الصحابة بظن أنهم انتزعوا الخلافة من آل بيت النبى .

٨- المجتمع الأبوى : وفى أعماق وعى الشيعة إحساس بالتخلى عن الحسين وعن نصرته ، لذلك يظهر رد فعل عكسى فيما بعد فى صورة الاحترام الشديد للأئمة من بعده واعتبارهم معصومين لا يسألون عما يفعلون ، ويصل الأمر إلى تقديسهم والانضواء تحت لوائهم بلا أى تحفظ ، وحين انتهت سلسلة الأئمة المعصومين بالسيد الحسن العسكرى واختفاء ابنه المهدى (المشكوك فى وجوده من الأصل لدى علماء السنة) ظهرت لديهم عقيدة انتظار الإمام الغائب والذى سيخرج من السرداب يوماً ما ليكون إمامهم ، وحتى فى غيابه هم يأتمون به ، ويتخذون أحد أئمتهم نائباً عنه ويمتثلون له بالطاعة المطلقة ويسلمون له أنفسهم . ونجد أيضاً فى العقيدة المسيحية مقابلاً لذلك يتمثل فى رجل الدين والذى يدعى بالأب (أبونا) الذى هو جدير بالطاعة والقداسة ، ولديه صلاحيات من الرب بأن يستمع لاعترافات المذنبين ويمنحهم صكوك غفران .

وهذه العقيدة الأبوية الإمامية لدى الشيعة تنبع من إحساسهم بأنهم أقلية وأن الأغلبية ربما تجور عليهم أو تغدر بهم أو تبيدهم (كما حدث للحسين ﷺ) ، لذلك أعطاهم ذلك نوع من التماسك والإحساس بالأمان تحت راية الإمام المعصوم الذى يضفون عليه كل معانى القداسة والعصمة والاحترام ويطيعونه طاعة لا حدود لها وينسبونه إلى آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ويعتبرونه نائباً عن الإمام المهدى الغائب . والعقيدة الإمامية لدى الشيعة تحمل سماتا ماسوشية (طبقا لرأى الدكتور عبد المنعم الحفنى فى كتابه : الموسوعة النفسية الجنسية) حيث أن قولهم بالإمام المعصوم يعلن عن حاجتهم الطفولية المستمرة لوجود إمام راشد يتولاهم عن أنفسهم ويسلمون له قيادهم . وعلى الرغم من طاعة الشيعة للإمام وانصياعهم الماسوشى الكامل له كمنصب إلهى ذكورى إلا أنهم يأخذون موقفا ساديا مع المرأة وأخصها السيدة عائشة ، ولم يحدث فى تاريخ الأديان - حسب قول الدكتور الحفنى - أن نالت زوجة رسول من الذم والتحقير والتشويه ما نالته السيدة عائشة على لسان الشيعة .

وقد أدت العقيدة الإمامية فعلاً إلى حالة من التماسك حول سلطة (مرجعية) دينية يتعدى تأثيرها المجال الدينى فى أوقات كثيرة إلى المجال السياسى والاجتماعى ، وإن كانوا فى بعض الأحيان يحرصون على الفصل بين المرجعية الدينية والعمل السياسى المباشر إلا أن التأثير الروحى للمرجعية يتغلغل بشكل تلقائى فى كل جوانب حياة الشيعة ، وأكبر دليل على ذلك مساهمة كل شيعى طواعية ب ٥٪ من دخله يضعه تحت تصرف المرجعية الدينية ، وهذا عمل اقتصادى واجتماعى وسياسى ودينى فى ذات الوقت ، إضافة إلى ما نشهده من علو السلطة الدينية (ممثلة فى الإمام والملالى والمرجعيات والحوزات) على أى سلطة سياسية أو اجتماعية أخرى .

٩– التكفير : يميل الشيعة فى كثير من سلوكياتهم وطقوسهم إلى التكفير عما يشعرون به من ذنب داخلى تجاه مقتل الحسين ، وهذا يبدو فى أوضح صوره فى طقوس الاحتفال بعاشوراء وبذكرى مقتل الحسين حيث يمارسون ما يسمى بالطق (أو الطج) فيضربون وجوههم وصدورهم باليد أو العصى أو السياط كشعيرة تعبدية فيها تذلل لله سبحانه وتعالى حتى تدمى وجوههم وأجسادهم ، وعلى الرغم من عنف هذه الشعيرة إلا أنهم يشعرون بعدها بحالة من الرضا والراحة والوله وأحيانا النشوة . والطق وسيلة بدائية للتكفير عن الذنب وهو بطبيعة الحال لن يعيد الحسين إلى الحياة ، ولكنه من الناحية النفسية نكوص إلى مرحلة الطفولة حيث يعاقب الطفل المخطئ أو المذنب بالضرب .

١٠– التقيّة : وهى أن يخفى الإنسان الحقيقة كلها أو بعضها فى مواقف يتوقع فيها الخطر أو الغدر من الآخرين وقد يبالغ البعض فيها فيعتبرونها جزءاً من عقيدة الشيعة (كما قال أحد أئمتهم : التقية عقيدتى وعقيدة آبائى وأجدادى) ، وقد يعممها البعض فى كل المواقف فتصبح هى الأصل فى التعامل مع الآخر . والتقية هى أحد الإشكاليات الكبيرة فى تعامل الآخرين مع الشيعة حيث تضع الثقة فيما يقولونه محل شك كبير ، فلا يدرى أحد أهم يقصدون ما يقولون أم يقصدون عكسه . والتقية قد

نشأت فى ظروف خاف الشيعة على أنفسهم من غدر يزيد بن معاوية ولكنها استمرت وصارت حولها الأقاويل لدرجة جعلت البعض يعتبرها واجبا دينيا أساسيا أن يخفى الشيعى حقيقة أفكاره وتوجهاته عن بقية الناس وأن يعلن غير ما يبطن .

من هنا نستطيع القول أن دماء الحسين التى سالت على أرض كربلاء كان لها أبعد الأثر فى تشكيل الوجدان الشيعى ، وهذا يفسر لنا احتلال الحسين ﷺ مساحة هائلة فى ذلك الوجدان وقد تتجاوز هذه المساحة الحدود الآمنة لدى بعض طوائف الشيعة ، فردود الأفعال لهذا الحدث الجلل سيطرت على الكثير من السلوكيات الشيعية فيما بعد ، فمثلاً التقية ، تشكل رد فعل لوقفة الحسين الصريحة والمتحدية فى وجه الباطل ، وتقديس آل البيت ورفعهم لمستويات النبوة عند بعض الطوائف هو رد فعل مغالى فيه على التنكيل الشديد بهم فى كربلاء ، وطقوس إيذاء الذات هى رد فعل على خذلان الحسين .

سيكولوجية الأقلية:

الشيعة على وجه العموم يشعرون أنهم أقلية ، فهم من الناحية العددية (حوالى ٢٠٠ مليون على مستوى العالم إن صح هذا الرقم) أقل من السنة ، وكثير منهم (باستثناء من يعيشون فى إيران) يعتبرون أقلية فى بلادهم أو يعاملون معاملة الأقلية، ويعيشون فى ظروف اجتماعية واقتصادية صعبة نسبيا . والأقليات من الناحية النفسية والاجتماعية لا يشعرون بالأمان وهم يتوقعون القهر والتهميش والاستبعاد من الأغلبية، لذلك تراهم يتسمون بالحذر والحيطة ويعمدون إلى العمل الجاد وإلى امتلاك نواصى القوة بالعلم أو المال أو الإعلام ، فليست لديهم رفاهية الاسترخاء والراحة وسط أغلبية ربما تتربص بهم أو تظلمهم ، وهم يتحينون الفرصة لاسترداد الحقوق الضائعة أو المكانة المنقوصة .

والشيعة فى كثير من البلدان (باستثناء إيران كما ذكرنا) كانوا ينتمون إلى طبقات اجتماعية فقيرة ومحرومة (فى لبنان أسسوا حزبا فى وقت مبكر أسموه حزب

المحرومين نشأت عنه حركة أمل ثم حزب الله بعد ذلك) ، ولذلك كانت تسعى تلك الطبقات إلى الصعود والترقى رغم الظروف غير المواتية المحيطة بهم سياسياً واجتماعياً ودينياً فعلى المستوى السياسى ينظر إليهم بشك على أنهم ينتظرون الفرصة للوثوب إلى السلطة أو على الأقل تكوين قوة سياسية أو عسكرية مؤثرة ، وعلى المستوى الاجتماعى ينظر إليهم كأقلية مغلقة لها تقاليدها وأعرافها الخاصة ، وعلى المستوى الدينى توجه لهم انتقادات نحو بعض معتقداتهم تختلف حدتها من طائفة دينية لأخرى ولكنها تبلغ حدتها من ناحية التيار السلفى والذى يرى فى عقيدة الشيعة كثير من المثالب ويعزو إليهم (كلهم بلا استثناء أو تفريق بين طائفة وأخرى) سب الصحابة ووضع الأحاديث وتغيير أركان الإسلام بوضع ركن سادس هو الاعتقاد فى الإمام المعصوم وولاية الفقيه والاعتقاد فى الإمام الغائب والتشكيك فى المصحف المتداول لدى المسلمين حاليا وادعاء وجود ما يسمى بمصحف فاطمة .

المساحات المشتركة والاختلافات العميقة:

لو بحثت عن مساحات مشتركة بين السنة والشيعة فلن تعدم ذلك فهم يشتركون فى الإيمان بالله وبرسله وبخاتم الرسل محمد ﷺ ويشتركون فى غالبية الشعائر التعبدية وتراهم يؤدون مناسك العمرة والحج فى أرض الحجاز جنبا إلى جنب مع السنة ، ولو بحثت فى مناطق خلاف واختلاف فلن تعدم ذلك متمثلاً فى الموقف من بعض الصحابة والعقيدة الإمامية ومبدأ التقية ويصل الاختلاف لدى بعض الطوائف على الجانبين إلى حد التكفير المتبادل .

والأمر له جانب نفسى هام حيث يتوقف على الطبيعة النفسية لصاحب الرؤية ودوافعه ومصالحه وانتماءاته ، فلو كان متسامحاً واسع الأفق محتملاً للخلاف لرأيته أكثر ميلاً لرؤية مساحات الاتفاق (وهى كثيرة) والرغبة فى التعايش وتبادل المصالح ، أما لو كان غير ذلك لوجدته ينتقى من بين صفحات الكتب وصفحات التاريخ كل عوامل الشك والبغضاء والكراهية ليؤكد لك أن الصراع والاقتتال بين السنة

والشيعة هو الحل ليحيى من حيى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة ، وهو هنا يعطى أولوية للصراع العقائدى بين السنة والشيعة على الصراع القائم حالياً بين الإسلام من ناحية والمعسكر الصهيوأمريكى من ناحية أخرى .

رهاب الشيعة :

كانت الشيعة فى الماضى تمثل أقلية عددية (وما زالت) لا يؤبه لها كثيراً وسط المحيط السنى الهادر ، وكان زمام المبادرات بيد الجانب السنى صاحب الأغلبية العددية وصاحب التيار الحضارى الأساسى ، ثم حدثت تحولات فى ربع القرن الأخير جعلت الدول الرئيسة فى التيار السنى تتراجع عن دورها القيادى والحضارى فى المنطقة وتقنع بالدوران فى فلك القوى الكبرى مما أفقدها (على المستوى الرسمى بالذات) بوصلة توجهها الإسلامى (أو القومى أو الوطنى) الأصيل فصدرت فى كثير من قراراتها من منطلق المجاملة أو الإنصياع لضغوط وابتزازات القوى الكبرى التى تسعى لتحقيق مصالحها والتى هى بالضرورة معاكسة لمصالح المسلمين والعرب ومتناقضة معها فى أغلب الأحوال . وقد قام ما يشبه التحالف بين حكام الدول الإسلامية السنية الرئيسة وبين المعسكر الأمريكى وذلك لخدمة المصالح الأمريكية من جانب ولخدمة بقاء كراسى وعروش حكام تلك الدول من ناحية أخرى ، وقد أدى هذا إلى انشقاقات وتصدعات شديدة داخل المجتمعات السنية مما أدى إلى حالة انشقاق بين أنظمة الحكم وبين الشعوب وخاصة الجماعات التى تتبنى فكرا إسلاميا بشكل أو بآخر ، وأدى هذا إلى تنامى تيارات المعارضة الدينية وإلى ظهور بعض الفرق التى لجأت للعنف بدرجاته المختلفة كسلاح أشهرته فى وجه السلطة التى تراها انحرفت عن المسار الصحيح سعيا نحو مصالحها الذاتية . فى ذات الوقت كانت هناك أحداثا مختلفة تجرى فى المعسكر الشيعى فقد نجح الإمام الخومينى فى قيادة ثورة شعبية ناجحة للإطاحة بشاه إيران الموالى لأمريكا وإنشاء نظام وطنى قائم على المبادئ الدينية الشيعية ، ورغم محاربة العالم كله لهذه الثورة إلا أنها ثبتت وشكلت بناءا

تنظيميا متماسكا يجمع بين المبادئ الدينية والدنيوية ويحقق استقلالية حقيقية ويكسر التبعية لأمريكا . وقد استطاع النظام الإيرانى أن يكسب المعارك السياسية مع أمريكا والغرب ويحافظ على مصالحه واستقراره بشكل ملفت للنظر ، وهاهو الآن يخوض معركة تبدو ناجحة حتى الآن فى سبيل امتلاكه للسلاح النووى (فى الوقت الذى سلمت واستسلمت فيه حكومات الدول السنية للإرادة الأمريكية والإسرائيلية بالتخلى عن أى سلاح أو موقف ذو أهمية على الرغم من الإذلال الأمريكى والإسرائيلى لهم فى كل لحظة من حياتهم) ، يضاف إلى ذلك ما تحقق من قيام تجربة ديموقراطية حقيقية أدت إلى تداول السلطة (المشروط والمحكوم بولاية الفقيه) فى إيران (فى الوقت الذى تعيش فيه غالبية الدول الإسلامية السنية إن لم تكن كلها فى حالة استبداد سياسى مزمن وبائس) ، وفوق كل ذلك تلك الكاريزما الهائلة التى تمتع بها الإمام الخومينى فى حياته وبعد مماته كرجل دين وكسياسى وكقائد لأكبر ثورة شعبية دينية فى القرن العشرين .

وقد تلا ذلك عمليات تمدد شيعى منظم فى لبنان والعراق وبعض دول الخليج ، وهذا التمدد يزداد يوما بعد يوم ، ويعضده فى هذه الأيام نشاط حزب الله فى لبنان بقيادة شخصية بارزة ومؤثرة وآثرة هى شخصية حسن نصرالله ، ذلك الزعيم الشيعى الذى نجح فى تكوين صورة للبطل الحر الواعى المستنير المتدين ، واستطاع بذكائه الحاد أن يخاطب الجماهير العربية والإسلامية خطابا يتجاوز الحدود العرقية والطائفية (فلا يذكر كلمة توحى بالخلافات العقائدية أو المذهبية الصادمة) ، ويحيى فى نفوسهم معانى العزة والكرامة والشجاعة والتضحية (التى يعرف أنهم يشتاقون إليها بعد انكسارات حكوماتهم أمام الطغيان الأمريكى والغطرسة الإسرائيلية) ، وهو قد قاد حزب الله فى معركة تحرير الجنوب واضطر إسرائيل للإنسحاب ثم قاد الحرب السادسة فى يوليو وأغسطس ٢٠٠٦ ضد إسرائيل وخرج منها منتصرا بعدة مئات من المقاتلين على دولة إسرائيل التى تمتلك (أو تدّعى امتلاك) أكبر جيش فى المنطقة ،

وصمد للغطرسة الإسرائيلية والأمريكية والتواطؤ العالمى فى الوقت الذى ارتعشت فيه أنظمة الحكم العربية واختبأت أو تواطأت أو انحنت .

نصل فى النهاية إلى وضع جعل المعسكر السنى فى وضع سئ على المستوى السياسى والعسكرى والإجتماعى فى الوقت الذى كسب فيه المعسكر الشيعى جولات عديدة على تلك المستويات ، وهذا جعل العديد من الشباب والمثقفين ينظرون بإعجاب إلى قيادات الشيعة .

(راجع المظاهرات فى كل مكان وهى تحمل صور حسن نصر الله وراجع صفحات الجرائد والمجلات وهى تضع صورا شامخة له على أغلفتها وبجانبه صورا مطأطئة لحكام عرب أو مسلمين) .

وقد أدى هذا إلى وجود حالة من الهلع على المستويين السياسى والدينى فى الدول السنية ، فالسياسيون يخشون تنامى الإنبهار والإعجاب بالقيادات الكاريزمية الشيعية وعلى رأسها حسن نصرالله على حساب شعبيتهم التى تدهورت كثيرا بسبب مواقفهم المترددة المرتعشة وانشغالهم بمصالحهم الذاتية فى التشبث بالحكم والتوريث ، ولهذا بادروا بتوجيه اتهامات لحزب الله بالتهور وجر الأمة العربية إلى حرب غير متكافئة وغير مبررة ، ولكن هذه الإتهامات انهارت مع صمود المقاومة اللبنانية وانتصارها على الهجمة الصهيوأمريكية . أما على المستوى الدينى فقد خاف الدعاة على الشباب السنى من ذلك الإنبهار بالصعود الشيعى العسكرى والسياسى والإنبهار بشخصية حسن نصر الله الساحرة (١٢٨ مولودا فى الإسكندرية حملوا اسم حسن نصرالله وصوره تملأ الشوارع والبيوت وشاشات التلفاز) لذلك همّ التيار السلفى بوجه خاص بإصدار الفتاوى والكتب والأشرطة التى تبين حقيقة العقيدة الشيعية ، وموقف الشيعة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشكلات التقيّة والإمام الغائب وعصمة الإمام ومصحف فاطمة والمواقف التاريخية التى توضح العداء القديم والمستحكم بين السنة والشيعة . وقد وقف العديد من خطباء المساجد خاصة مساجد

أنصار السنة فى مصر ومساجد عديدة فى دول الخليج يحذرون الناس من مناصرة الشيعة ومن الإنبهار بهم وبقادتهم ، ولكن هذا كان يقابل برفض شعبى نظرا للظروف والملابسات التى شرحناها من قبل (وحدثت كثير من المشادات بين الدعاة والمصلين حول هذا الأمر) ، فهم (أى الناس) يرون أن علماء السنة اكتفوا بالظهور المدفوع الأجر على شاشات الفضائيات والوقوف على المنابر الفخمة أو الجلوس فى الغرف المكيفة أو الإستمتاع بالزيجات المتعددة فى القصور الفخمة ، فى حين يرون حسن نصر الله يقف فى الميدان رافعا رأسه تحت قصف الطائرات الإسرائيلية الأمريكية وقد قدم ابنه هادى نصر الله شهيدا من قبل فى معارك تحرير الجنوب اللبنانى .

إذن فهناك تهديد حقيقى بالإختراق الشيعى (على المستوى السياسى أو الفكرى أو الوجدانى أو حتى الدينى) للمجتمعات السنية ، ويوازى هذا الإختراق تمددا وتمكننا شيعيا فى العراق ولبنان والبحرين والسعودية والإمارات وعمان وغيرها . وهذا الإختراق وذلك التمدد والتمكين يخلق الآن حالة من الرعب لدى السياسيين ورجال الأمن وعلماء التيار السلفى ، وهذا الرعب وهذا الإختراق لن يوقفه كلام أو تحذير وإنما يوقفه مراجعة شاملة لمظاهر الإنكسار والإنحدار فى جوانب حياة المجتمعات السنية ، ولن يكفى التخويف الأمنى أو التشكيك السياسى أو التكفير العقيدى لإيقاف هذا الزحف الشيعى .

وأكبر تهديد الآن للرموز السياسية والدينية السنية هو شخصية حسن نصر الله والذى ظهر فى صورة البطل الشعبى الذى يعيد للناس ثقتهم بأنفسهم واعتزازهم بكرامتهم وشرفهم والوقوف فى وجه أعدائهم الذين يذيقونهم كل ألوان العذاب والهوان ، كل هذا فى الوقت الذى تدعو فيه قيادات سنية كثيرة إلى التحلى بالموضوعية والواقعية وضبط النفس (أو خنقها) وإلى عدم الوقوف أمام إسرائيل التى نعجز عن حربها وعدم الوقوف أمام أمريكا التى تتحكم فى مصير العالم . كل هذا يخلق خللا نفسيا يدفع الشباب إلى التوحد مع البطل الشعبى خاصة إذا أثبتت الأحداث مصداقيته،

والإنصراف عن قياداته التى تأكد له مع الزمن حرصها على مصالحها الخاصة ، كما أن هذه القيادات دائما ما تدعوه إلى طأطأة الرأس والركوع لكل قوى الأرض الظالمة بدعوى الواقعية وعدم التهور . والشباب (ومعه حتى الكبار من المقهورين والمكسورين) إذ يتوحد مع البطل الشعبى سوف ينسى أو يتناسى الإشكالات العقيدية التى ربما تفصله عن هذا البطل .

احتمالات التعايش والصراع:

جرت محاولات كثيرة فى فترات تاريخية متعددة للتقريب بين السنة والشيعة (استعرضها الأخ العزيز الدكتور محمد إسماعيل المقدم فى عدد كبير من محاضراته المسجلة والتى أمدنى بها) ، وكانت هذه المحاولات تتمحور حول الجانب الدينى ، وكان أصحاب هذه المحاولات يحدوهم الأمل فى التقريب بين رؤى الطرفين ومحاولة تصفية الخلافات العميقة خاصة فى الجانب العقيدى ، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل لسبب بسيط وجوهرى وهو أن أصحاب العقائد ليسوا على استعداد لأن يغيروا عقائدهم ليرضوا أطرافا أخرى أو ليتقاربوا معهم ، لذلك فإن محاولات التقريب الدينى تكاد تكون مستحيلة من الناحية النفسية لأن العقائد غير قابلة للنقاش أو التصحيح لدى كثير من البشر.

فنحن أمام مشكلات نفسية وتاريخية ودينية عميقة الجذور (على الرغم من المساحات المشتركة) تحول دائماً دون التعايش بين السنة والشيعة على الرغم من ضرورة ذلك وإلحاحه الآن (وعلى الرغم من تعايش الطرفين مع أطراف أخرى غير إسلامية) ، حيث أن البديل لذلك هو حالة من الاستقطاب الشديد بين الشيعة والسنة يتبعها حالة من المواجهة تؤججها قوى خارجية على رأسها أمريكا وإسرائيل وتدعو إليها قوى داخلية لدى الطرفين تشهر سلاح التكفير أو التفسيق أو الخوين أو التآمر ، ولو نجح الاحتمال الثانى فإن ذلك يعنى انتحار الأمة الإسلامية بشقيها السنى والشيعى لحساب قوى الاستكبار العالمى ولحساب حكام وأمراء دول أو جماعات قصرت رؤاهم

عن استشراف آفاق للتعايش بين البشر على اختلاف معتقداتهم وأحوالهم ، فمما لا شك فيه أن المسرح الشرق أوسطى يعد حالياً لمواجهة سنية شيعية بديلاً للمواجهة الإسلامية مع المعسكر الصهيوأمريكى ، ولو لم يعلو صوت العقلاء والمعتدلين فى السنة والشيعة للدعوة إلى التعايش (وليس التقارب العقيدى المستحيل كما ذكرنا) وتبادل المصالح وقبول الاختلافات فإن الطوفان سيأخذ الجميع ، ونسأل الله السلامة ، الأ هل بلغت اللهم فاشهد .

مراجع الفصل الرابع :

١ – أبوحامد الغزالى . الشيعة : عجم ملحدون ؟ أم عرب موحدون ؟ . تقديم وتعليق إيهاب كمال ، ٢٠٠٦ ، الحرية للنشر والتوزيع ، القاهرة .

٢ – كمال أبو المجد . السنة والشيعة والحاجة إلى حوار جديد (فى كتاب : حوار لا مواجهة) ، مهرجان القراة للجميع ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ القاهرة .

٣– محمد إسماعيل المقدم . محاضرات مسجلة عن بطلان وفشل محاولات التقريب بين السنة والشيعة ٢٠٠٦ (باتصال شخصى) .

٤ – محمد الحسين آل كاشف الغطاء . عقائد الشيعة . الطبعة الأولى ٢٠٠٦ ، مكتبة النافذة ، القاهرة .

٥ – يوليوس فلهوزن . الخوارج والشيعة : المعارضة السياسية الدينية . الطبعة الخامسة ١٩٩٨ ، دار الجليل للكتب والنشر ، القاهرة .

الفصل الخامس

الفئران المجبوسة وبلادة الحس العربى

بدأت العلوم النفسية فى أول الأمر بانطباعات ثم انتقلت إلى افتراضات ثم تطورت إلى نظريات وأخيرا وصلت إلى محطة التجارب العلمية واستكشاف القوانين النفسية ، وهذا تطور طبيعى للعلوم فى المجتمعات البشرية المتطورة ، أما لدينا نحن العرب المعاصرون فكل العلوم تبدأ بالإنطباعات وتنتهى أيضا بالإنطباعات ، على الرغم من أن لدينا تاريخا علميا يقول بأن ابن النفيس (مكتشف الدورة الدموية الصغرى) قد وضع سفرا علميا ضخما عبارة عن ثلاثمائة مجلد ضخم تحت عنوان الشامل فى صناعة الطب (تأمل فى كلمة صناعة الطب ودلالاتها العلمية التجريبية التطبيقية وقارنها بما يجرى من تدليس شبه علمى فى برامج الطب البديل أو الطب البدائى على شاشات التليفزيونات العربية) ، وهذا العمل يعتبره المؤرخون أضخم إنتاج علمى أصيل يقوم به شخص منفرد فى التاريخ الإنسانى ، وهذا السفر الضخم الأصيل يحوى بين جنباته كما هائلا من خلاصة التجارب العلمية والإكتشافات الطبية القائمة على الملاحظة والتجريب وليس على الإنطباع . أعتذر عن هذا الإستطراد وأعود إلى التجارب فى العلوم النفسية ، والتى أعطت لهذه العلوم قدرا هاما من المصداقية والقابلية للتطبيق ، ولكن ما يؤرقنى ويؤرق غيرى من المعتزين بالإرتقاء الإنسانى هو كثرة التجارب على الفئران والقرود فى بدايات هذا الإتجاه التجريبى ثم تعميم النتائج على البشر دون مراعاة حسابات فروق التوقيت والتوظيف والإستخلاف ، ولست أدرى لما الإصرار على الفئران والقرود (وأحيانا الكلاب والخنازير) بالذات فى تجارب تهدف إلى فهم سلوك البشر ، ولكن على أى حال انتقلت التجارب الآن (أو على الأقل الكثير منها) إلى الإنسان مباشرة لفهم سلوكه والخروج بما يشبه القوانين النفسية التى تحكم سلوك البشر فى صحتهم ومرضهم وهى ما يستخدمه الآن الصادقون والمدّعون على السواء من محترفى برامج التنمية

البشرية، ومع هذا بقيت تجارب رائدة تمت على الفئران نتحدث عن أحدها اليوم ونستخدمها كمفتاح لفهم ظاهرة عربية ربما يصعب فهمها بشكل مؤكد بأى وسيلة أخرى على الأقل حتى الآن .

منذ وقت طويل ونحن (كمشتغلين ومنشغلين بالحالة النفسية للبشر) نرصد حالة البلادة التى أصابت جموع العرب وكنا نجلس فى ظل شجرة أو فى غرفة مكيفة نتبادل أطراف الحديث حول أسباب هذه الظاهرة العجيبة المتجاوزة لكل مألوف فى السلوك البشرى ، وكيفية الخروج منها أو تقليلها على أسوأ الفروض ، فالإنسان العربى يتحمل كل مظاهر الإستبداد الداخلى ومظاهر الإذلال الخارجى دون أن ينتفض أو يتحرك أو حتى يزوم (كما كان يحلم الروائى محمد المخزنجى فى مقاله الروائى : زوموا) ولكن الأيام الأخيرة أدخلتنا فى منطقة أحرجت كل التفسيرات وكشفت كل العورات فالذى يتابع قناة الجزيرة (نافذة الوعى العربى) يرى إسرائيل قد تجاوزت الخطوط الحمراء بمسافات هائلة فقد حاصرت لبنان بالكامل ودمرت مطاراتها وقتلت مدنييها وتقوم حاليا بمحاولة تجريف كل مظاهر الحياة فى الجنوب اللبنانى ، ومن زار لبنان وعرف جمالها وجمال أهلها ونشاطهم وهمتهم عرف حجم الجريمة التى ترتكب ، فإذا انتقلت العين إلى فلسطين فسترى ما هو أبشع ، حكومة حماس التى جاءت بطرق ديموقراطية تتعرض للحصار العالمى والتواطؤ العربى ويتم تجويع الشعب الفلسطينى بأكمله عقابا له على خياره الديموقراطى ، ويتم القبض على عدد كبير من الوزراء والنواب وإيداعهم السجون الإسرائيلية فى سابقة خطيرة تجاوزت كل الأعراف الدولية حتى فى العصور البدائية ، أى أننا أمام حالة اختراق سافر وسافل ومتبجح (معذرة على المفردات غير المألوفة على الأقل من جانبى) لكل ماهو مألوف أو متوقع فى ساحات الصراع السياسى أو العسكرى ، والقصص الإنسانية المزلزلة تملأ الصورة على الجانبين اللبنانى والفلسطينى من أطفال يشاهدون ذويهم يحترقون أمام أعينهم ويرون بيوتهم تنهار على أحبابهم ، وصواريخ تنسف بيوتا فى هدأة الليل

فيمتزج اللحم البشرى بالتراب بصراخ الأطفال ونحيب النساء ، ويموت المئات كل يوم ويتم أسر الآلاف.

وكلما حاولت أن أتصور كيف يعيش الشعب الفلسطينى أفزعتنى كل الصور ، وكلما حاولت أن أسبر غور مشاعره تجاهنا نحن العرب ونحن نقف ونتفرج عليه فى بلادة وهو يحترق ، أيضا لا تسعفنى المعانى فنحن نمارس مع الفلسطينيين بالذات أبشع أنواع الخيانة وهى خيانة الصمت المتواطئ مع إظهار مسحة من التعاطف السطحى الساذج أو الثعلبى المراوغ أو الدبلوماسى الفارغ المحايد ، تغطى غدرنا وخيانتنا له وتعطى فرصة للجزار كى ينتهى من مهمته فى ذبح الضحية دون أن ينتبه أحد ، وبعضنا (خاصة المختلفين أيدولوجيا مع حماس أو المستفيدين من بقاء النظام العربى على ماهو عليه) يريد للنموذج الفلسطينى أن ينهار ليكون عبرة لكل من يطالب بالإصلاح الديموقراطى فى العالم العربى ولكى تسكت للأبد كل الأصوات المطالبة بالتغيير حيث ثبت بما لايدع مجالا للشك أن التغيير لا يأتى بخير وإنما يأتى بحكومات على شاكلة حماس ، حكومات لاتنحنى ولا تقبل رأسا أو يدا أو قدما ولا تعرف أصول المرونة السياسية ومهارات التنازل والحلول الوسط والقدرة على المواءمة والملاءمة وتمييع الثوابت والتوفيق والتلفيق والركوع أمام ضغوط الأمر الواقع والسجود لتفادى غضبة سيد البيت الأبيض .

كل هذه الصور المزلزلة لم تنجح حتى الآن فى وخز الحس العربى وإيقاظه سواء على المستوى الرسمى (لا تغتر بهذه التصريحات العربية المهذبة جدا والتى تكتفى بقول أن العنف لن يحل المشكلة وأن العودة لمائدة المفاوضات أصبح واجبا وطنيا وقوميا وخيارا استراتيجيا حيث لا توجد خيارات أخرى) أو على المستوى الشعبى (لا تنخدع بتلك الهبّات أو الهوجات الوقتية قصيرة المدى والتى لا تحمل أية استراتيجيات أو أهداف حقيقية طويلة المدى بل هى تنصرف عند أول عصا ترتفع فى الهواء أو أى خرطوم مياه ينطلق من عربة مطافئ) ، ولم أجد فيما قرأت ودرست

وعايشت تفسيرا لذلك غير تجربة الفئران المحبوسة (وهنا فهمت وتعلمت لما الإصرار على الفئران فى هذه التجربة بالذات ، وأعتقد أنها من وحى التراث العربى المجيد) ، وهى أحد التجارب الشهيرة فى علم النفس التجريبى (أتمنى أن أعرف تلك العاصمة العربية التى احتضنت ورعت تلك التجربة الفئرانية الشهيرة) حيث قام أحد العلماء بوضع مجموعة من الفئران فى صندوق مغلق ثم راح يعرض هذه الفئران لصدمات كهربية خفيفة فرأى أنها تنتفض وتتحرك يمينا ويسارا لتتفادى تلك الصدمات ولتبحث عن مخرج من هذا الصندوق ، ولكن الباحث استمر فى تكرار الصدمات الكهربية للفئران مع زيادة معدلها وشدتها واستمرت انتفاضات الفئران ومحاولاتها للخروج ، ومع مرور الوقت لاحظ عالم النفس (الفئرانى) أن انتفاضات الفئران أصبحت أقل وأن محاولاتها تضعف شيئا فشيئا رغم استمرار الصعق الكهربائى وزيادة حدته ، وقد وصلت الفئران فى النهاية إلى حالة من البلادة واللامبالاة ولم تعد تنتفض (باستثناء رعشة باردة) ولم تعد تحاول الخروج (باستثناء نظرة يائسة وبائسة إلى جدران الصندوق وسقفه أو نظرة غاضبة وأحيانا مستعطفة ومتسولة إلى مصدر الصعق الكهربائى) . وحين ننتقل بهذا النموذج إلى السلوك البشرى نرى تشابها كبيرا فيما يحدث لجموع الناس (العرب على وجه الخصوص) حين يتلقون الصدمة تلو الصدمة ويحاولون تغيير واقعهم (الداخلى أو الخارجى) أو ظروفهم فيجدون الأبواب موصدة (الآن فقط أدركت أهمية شعار : استقرار الإستمرار واستمرار الإستقرار) فيصلون إلى حالة فقدان الأمل وفقدان الحيلة (Hoplessness and Helplessness) ، وهنا تنطفئ الإرادة وتذبل العزيمة ويستشرى اليأس ويسود منطق التسليم بالأمر الواقع وانتظار الحل يأتى من الخارج ، وهنا يظهر المبشرون بالحلول السحرية أو الحلول الخارجية أو الحلول الغيبية فنرى مفسرى الأحلام وقرّاء النجوم ومبشرى الطب البديل يملأون الشاشات العربية يخدرون الوعى بتفسيرات خرافية يلبسونها ثوبا دينيا أو علميا (قابلت اثنين من أشهرهم عربيا وعالميا وناظرتهم على شاشات التلفازات العربية ولكن دون جدوى فقد اتضح أن الناس تسعى لمن يبيع

لها الوهم ويخدعها ويضحك عليها ، لذلك جمعت منهجى العلمى الذى تربيت عليه فى المدارس والجامعات ولزمت بيتى آسفا وحزينا) ، ونرى بعض الدعاة المغيبين يطمئنون الناس بالنصر القريب على يد بطل يأتى من السماء ليقضى على اليهود والأمريكان والدانمركيين دفعة واحدة .

وهناك يوميا ما يسمى بتدريبات تقليل الحساسية تجرى للحس العربى حيث يجلس الإنسان العربى آخر النهار بعد يوم انتهكت فيه حقوقه وحرياته وكرامته وإنسانيته ليتناول العشاء العربى الدسم ويحتسى القهوة العربية والشاى العربى والحشيش العربى والبانجو العربى (بالمناسبة الحشيش والبانجو يقللان الحساسية ويطفئان الدوافع نحو التغيير ويحدثان حالة من البلادة المعرفية والوجدانية وخداعات فى إدراك الزمان والمكان والأشكال والألوان والأحداث والأشخاص يصاحبها حالة من الرغبة فى الكلام وإطلاق النكات على الذات المنتهكة وعلى الآخر المعتدى ، ولذلك ينصح بهما خبراء الكيف كمخدرين مثاليين يناسبان ظروف المجتمعات العربية)، كل هذا وهو يشاهد مظاهر القتل والتدمير وصراخ الأطفال ونواح النساء على شاشة الجزيرة ، وبعد الإطمئنان على معرفته لما يحدث (سواء من النشرة أو من حصاد اليوم أو حتى من الشريط) يقوم بالإنتقال إلى قناة أخرى ليشاهد الفيلم العربى القديم جدا يليه مجموعة من الفيديوكليب الحديث جدا والمنعش للغرائز البدائية الفجة ، إلى أن يحين موعد برنامج الفلكى الكبير الذى يقرأ النجوم من خلال شاشة كومبيوتر (أو بالأدق لاب توب) موضوعة أمامه وتساعده فى قراءة الرسائل القادمة من المشاهدين والمشاهدات (المستلبين والمستلبات) فتاة ذات شعر غجرى مجنون (يسافر فى كل الدنيا) وعينان خضراوان مليئتان بالسحر والغموض كما فى حكايات ألف ليلة وليلة ، وما أن ينتهى هذا البرنامج حتى ينتقل العربى بسرعة إلى برنامج الطب البديل ليتابع آخر استخدامات البرطقوش والشيكوريه والشبت المغربى والجرجير الهندى وقرن الشيطان والمستكه والحبهان يلقيها عليه رجل وقور تبدو عليه آثار السنين ويتكلم

بلهجة جادة وهو يقرأ صفحات من تذكرة داوود ويتبعها بصفحات من عودة الشيخ إلى صباه ثم ينتبه فيختم كلامه بعبارات ينسبها إلى كتاب الطب النبوى لابن القيّم ، وحين يقترب موعد النوم يختتم العربى مساءه السعيد بمشاهدة برنامج تفسير الأحلام لينام نوما هادئا بعد وعود أكيدة ومؤكدة بغد أفضل .

الفصل السادس

انفجار ماسورة الغرائز فى وسط البلد

لكل شئ فى هذه الحياة إرهاصات ومقدمات حين تمر دون قراءة كافية تتبعها المشكلات وحين تتراكم المشكلات دون حل تتحول إلى أزمات وحين تتراكم الأخيرة دون حل تتحول إلى كوارث وانفجارات قد تبدو مفاجئة لمن أغمض عينيه وسد أذنيه ووضع على قلبه غشاوة . فهل كانت ثمة إرهاصات لأحداث التحرش الجنسى العدوانى الجماعى فى وسط القاهرة فى أول أيام عيد الفطر أمام سينما مترو وفى شارع طلعت حرب المكتظ بالبشر ليلا ونهارا ؟ .... بالتأكيد نعم ، وفيما يلى بيان ذلك .

الحـدث:

فى وسط القاهرة وبالتحديد فى شارعى عدلى وطلعت حرب وأمام سينما مترو حضرت إحدى الراقصات لترقص أمام السينما ترويجا لفيلمها الذى يعرض فى ذلك الوقت ، واندمجت فى الرقص وظهرت ملابسها الداخلية المثيرة وسط حماس الشباب الهائج فاستدعى ذلك من ذاكرتهم صورا ومشاهد أكثر عرى للراقصة واستدعى بعضهم أو أكثرهم مشاهد تسربت عبر اسطوانات كومبيوتر تصور الراقصة فى أوضاع جنسية فى قضية مشهورة ، إضافة إلى ذلك كان هناك مطرب شعبى مبتدئ دخل عالم الشهرة من خلال أغنية تتحدث عن العنب لتسقط عليه تلميحات وتصريحات جنسية فاضحة ومثيرة ، كل هذا فى أول أيام عيد الفطر عام ٢٠٠٦ حيث يتناول بعض الشباب أنواعا من المخدرات والمسكرات تساعد على إذابة ضمائرهم وانفلات رغباتهم وغرائزهم ، إضافة إلى ما يعترى الناس فى أيام الأعياد من إحساس بالرغبة فى عدم التقيد بالضوابط الدينية أو الأخلاقية أو الإجتماعية على خلفية أنه يوم عيد وفرح وانطلاق ، وهنا انطلقت الجموع الهائجة من الشباب فى حالة سعار جنسى غير مسبوق فى وسط مدينة القاهرة تحت سمع وبصر الناس والأمن وكان الجميع فى دهشة ربما لتسارع الأحداث واختلاط الحابل بالنابل ، واندفعت

مجموعات الشباب الهائج المسعور تبحث عن أى فتاة فى الشارع لتتحسس جسدها وتعريه وتحاول العبث به ما استطاعت ، وتكرر هذا مع أكثر من فتاة ، كل هذا حدث على الرغم مما هو معروف عن المجتمع المصرى أنه مجتمع متدين ومحافظ ، وكل هذا تفجر فى لحظة معينة وفى ظروف معينة فتحولت أعداد غفيرة من الشباب (الذى ربما يبدو كل منهم بمفرده مؤدبا وملتزما بالدين والأخلاق والعرف والتقاليد) إلى حيوان يبحث عن إشباع شهواته خاصة حين تيقن من غياب أو ضعف الضابط الأمنى والإجتماعى فى هذا السياق .

الإرهاصات :

١- انتشار الزواج العرفى لحل المشكلة الجنسية التى عجز المجتمع عن حلها فاختار الشباب هذه الصيغة التوفيقية والتلفيقية التى تسمح بالمعاشرة على الطريقة الغربية تحت سقف شبه شرعى فى وجود ورقة صغيرة لزوم راحة الضمير ، وهو نفس الأسلوب الذى يتبعه الكبار كثيرا حين يأتون كل المنكرات ويفعلون الموبقات ويتسترون برداء الشرع أو الشرعية لزوم المحافظة على الشكل مع الإستمرار فى انتهاك المضمون وتدميره .

٢ - زنا المحارم والذى بلغت نسبة حدوثه ١٠ ٪ فى العينة التى تمت دراستها فى مدينة القاهرة والمكونة من ٥٠٠ فتاة ، وتبين معها أن ٣٠٪ من الأسر فى القاهرة يعيشون فى غرفة واحدة ويشاهدون بالصوت والصورة فى كل ليلة وعلى الهواء مباشرة علاقات جنسية شرعية وغير شرعية .

٣- حالات الحمل والإجهاض خارج إطار الزواج والتى زادت معدلاتها الظاهرة والمستترة بشكل ملفت للنظر

٤ - العشوائيات التى شوهت وجه القاهرة والمدن الكبرى ، وصارت مستودعا لكل التشوهات النفسية والأخلاقية ، فقد بلغت أعداد من يسكنون العشوائيات فى مصر ١٢ مليونا ، هؤلاء يفتقدون الحد الأدنى من ضرورات الحياة (المأكل والمشرب

والمسكن) ، ويضعف لديهم الإنتماء وتتفشى فيهم كل الأمراض الإجتماعية كتعاطى المخدرات وزنا المحارم والعنف والتطرف ، أى أن هذه الأعداد قنابل موقوته وجحافل تزحف على بقية المجتمع فتهدد سلامه وأمنه .

٥ – الأغانى المبتذلة واستمرارها فى الإنحدار ، حيث كلما انحدرت أغنية أكثر من سابقتها ضمنت الإنتشار والذيوع بين جمهور ينحدر ذوقه دون أن ينتبه أو يهتم أحد .

٦ – خيام رمضان وما حدث فيها هذا العام من رقص شرقى وعرى غير معهود فى شهور رمضان قبل ذلك ، وكأن ضغط غرائز التعرى لم ترعوى أمام قدسية الشهر الكريم .

الدلالات:

استجابة الناس للحدث:

تلك الإستجابة التى تضع علامات استفهام كثيرة ، إذ يكاد العقل العادى التقليدى لا يصدق حدوث ماحدث وسط هذه الجموع من الناس حيث تنتهك حرمة فتاة أو امرأة والناس لا تستطيع منع ذلك الفعل أو عقاب الفاعل أو الإمساك به وتسليمه لمن يهمهم الأمر (إن كان ثمة من يهمه) ، وفى هذا دلالة على أن سلبية المصريين ولا مبالاتهم قد وصلت إلى مستويات غير مسبوقة وغير محتملة ، إذ انهارت لديهم خطوط كثيرة ووصلوا إلى الخطوط الأخيرة وهى الغيرة على العرض والشرف والكرامة وحماية الضعيف وحماية المرأة والدفاع عن كل هذا حتى ولو دفع الإنسان حياته ثمنا ، فالحياة بدون هذه المعانى والقيم هى أدنى من حياة الدواب وأكثر شرا من حياة الشياطين. هذه الفردية والأنانية والسلبية واللامبالاة والدياثة لدى من شاهدوا الحدث ولم يفعلوا شيئا تعطى معيارا داخل المنطقة الحمراء فى انحدار السمات البشرية.

العنف ضد الأنثى :

فالتحرش ومحاولة الإغتصاب فعل مركب من الرغبة الشديدة فى المرأة على المستوى الجسدى فقط مع الخوف منها والإحتقار لها واعتبارها موضوعا جنسيا فقط وليست إنسانة مكتملة الإنسانية . وقد يكون الخطاب الدينى المتشدد قد ساهم فى ذلك متحالفا – دون أن يدرى أو يقصد – مع الفيديو كليب ، فكلاهما صور المرأة على أنها جسد مثير للرغبة ومسكون بالغواية ، أحيانا يتعرى إلى أقصى درجات التعرى وأحيانا أخرى يتخفى إلى أقصى درجات التخفى ، وفى الحالتين تصل الرسالة حول هذه المخلوقة المسمى بالمرأة ، والتى لا تستوجب الحب والتواصل الإنسانى وإنما تستوجب الإنتهاك الغريزى الشره حين تلوح الفرصة . وهناك بعد آخر لهذا العدوان ضد المرأة مرده تهديد التفوق الذكورى بعد صعود أسهم المرأة وانتقالها من مرحلة التحرير إلى مرحلة التمكين والمزاحمة للرجل والتفوق عليه أحيانا ، وقد أدى هذا إلى شعور بالغيرة والحسد من الشباب تجاه الفتيات ففى كثير من البيوت نجد الفتاة أكثر نضجا وأكثر حرصا على مصلحتها من أخيها الولد ، وكثيرا ما تنال استحسان الأسرة فى حين ينال هو اللوم والتوبيخ على طيشه ونزقه واندفاعه وفشله . وكأن ما حدث كان لحظة ثأر لهذا الشباب الطائش النزق المنتقم لكرامته الذكورية المهدرة ولتفوقه المهدد ، وهو يستغل فى هذه المعركة تفوقه العضلى على المرأة ليوازن ويواجه تفوقها عليه فى جوانب كثيرة .

أزمة الإحتياجات :

فالإنسان طبقا لنظرية العالم النفسى ماسلو له احتياجات تتدرج فى تصاعد هرمى قاعدته الإحتياجات البيولوجية (الطعام والشراب والجنس) يعلوها الإحتياج للأمن يعلوه الإحتياج للحب يعلوه الإحتياج للتقدير الإجتماعى يعلوه الإحتياج لتحقيق الذات ، يعلوه الإحتياج للتواصل الروحى . ومن الواضح للمتخصص وغير المتخصص أن هناك حرمانا شاملا لكثير من هذه الإحتياجات ، على الرغم من وجود احتمالات لإشباع

مفرط فى بعضها عند بعض الناس ، ولكن فى النهاية نجد اضطراب شديد فى التوازن بين الإشباع والحرمان ذلك التوازن الذى يحفظ للنفس البشرية استقرارها واعتدالها ، ففى المجتمع المصرى فئات متخمة ماديا وغرائزيا يقابلها فئات شديدة الحرمان حتى من الإحتياجات الأساسية الدنيا . ليس هذا فقط بل إن المحرومين لا يجدون حتى إشباعا على مستوى الحلم ، فقد انهارت أحلام كثير من الشباب ولم يعد يبدو فى الأفق البعيد أو القريب بصيص نور يبعث على التفاؤل أو انتظار الإنفراج . وقد أتيحت لى فرصة للوقوف على أحوال ساكنى القبور فى منطقة الدراسة وشاهدت بعينى كيف يكون الحرمان لدى أناس استوت عندهم الحياة مع الموت فسكنوا القبور قبل الأوان . وليست المشكلة هنا فقط فى الحرمان الشديد وإنما هناك تلويح بالإشباع دون إشباع ، بمعنى أن كثير من الشباب يقضى ساعات طويلة أمام القنوات الجنسية أو المواقع الجنسية يشاهد كل ألوان الإستمتاع الجنسى وفنونه ثم إذا أغلق التليفزيون أو الإنترنت لم يجد حوله غير حرمان وتحريم مطبق من كل ناحية .

هيبة الحكومة :

والتى يبدو أنها توارت فى أعين هؤلاء الشباب إذ أنهم لو تصوروا أن هناك ضبطا وربطا لما انطلقت غرائزهم من عقالها بهذا الشكل الفج المتعدى ، بل إن الحدث بشكله الذى وقع يعطى دلالة على التمرد والعصيان لكل سلطات المجتمع السياسية والأمنية والدينية والأخلاقية ، ففى اللحظة التى تجمع فيها الشباب حول فتاة فألقوها أرضا أمام أعين المارة وانتهكوا جسدها بهذه الوحشية والوقاحة قد قاموا بانتهاك كل قوانين المجتمع وأعرافه وداسوا كرامته وانتهكوا حرمته عامدين متعمدين . ورجل الأمن فى شوارع وسط البلد ربما يكون قد ساهم (مختارا أو مضطرا تحت إلحاح الفقر والحاجة فيما حدث من سقوط هيبته) فهو قد دخل فى لعبة هات وخذ مع البائعين على الأرصفة وسائقى الميكروباصات والسيارات الواقفة فى الممنوع بإغماض عين وفتح يد ، كل هذا جعله يشعر بأن هيبته مهتزة ، وأن مهمته مشوشة ،

لذلك يصعب أن يقوم بفعل ذات بال فى حماية المواطن فهو لم يشعر فى أى وقت بأنه مطالب بحمايته ، قد يكون مطالب بعقابه أو تحجيمه إذا تجاوز حدوده مع السلطة ، أما حمايته هو نفسه فهذا ليس وارد بقوة كافية فى ثقافته ، فهو يعلم أنه موجود لحفظ النظام من غوغائية الشعب .

الإنشقاق:

فعلى الرغم من مظاهر التدين الواضحة والمنتشرة خاصة بين الشباب فقد حدث ما حدث ، وليس بمستبعد أن يكون من بين هؤلاء الشباب من سهر ليله فى صلاة التراويح والتهجد وختم قراءة القرآن وسابق أقرانه فى ذلك ، ومع هذا حين انتهى رمضان ، انشق الوجه الآخر القابع فى أعماق وعيه ليحقق إشباعا لغرائز مكتومة ، تلك هى غرائز الجنس والعدوان التى لم تجد منصرفا صحيا أمامها ، فالخطاب الدينى المتشدد قائم على التحريم والترهيب ، والخطاب الإعلامى قائم على التغييب والتزييف والخطاب السياسى قائم على الإبعاد والتهميش والوصم والخداع ، والخطاب التعليمى قائم على ملء الأدمغة بما لا يحتاجه سوق العمل أو ظروف الحياة الواقعية ، والخطاب الأخلاقى قائم على النفاق والإذدواجية . وإذا كانت التركيبة هشة بهذا الشكل فإن ذلك يعطى فرصة لجزء من الجهاز النفسى أن ينشق فى بعض الأوقات بشكل غير متوقع ليحقق للنفس ما حرمت منه بحق أو بغير حق ، وحين يتحقق هذا الهدف يعود هذا الجزء المنشق ليقبع مرة أخرى فى أعماق النفس منتظرا لحظة انقضاض قادمة .

فشل بناء هذا الجيل:

فما حدث يعنى أن ثمة مراجعات ضرورية وملحة لكل وسائل البناء التربوية بدءا من البيت ومرورا بالمدرسة والمسجد والكنيسة والشارع والأحزاب والوزارات ، فمن الواضح أن انهيارا قد حدث فى هذه المستويات كلها أو جلها وكلنا مسئولون عنه أو ساهمنا فيه أو التزمنا الصمت السلبى حياله ، ولو لم تتم قراءة هذا الأمر قراءة

موضوعية صحيحة واعتباره ناقوس خطر يدق فى أذاننا فإن أخطارا أخرى كثيرة سوف تتهددنا إن آجلا أو عاجلا كما حدث فى حوادث القطارات وكوارث العبّارات .

إزاحة القهر واغتصاب الإرادة :

فمن المعروف أن الإنسان حين يقع تحت قهر سياسى أو اجتماعى أو دينى وحين تسلب إرادته وتنتهك كرامته فإنه يكون قابلا حينئذ لإزاحة كل هذه الأشياء نحو ضحية يعتقد أنها أضعف خاصة إذا لم يستطع الرد على المعتدى الأصلى ، ويدخل فى هذه الإزاحة ذلك القهر الذى يمارسه رجل ضد زوجته وأبنائه كإزاحة لقهر وقع عليه فى عمله أو فى مجتمعه . وبهذه القراءة نستطيع القول أن هذا الشباب لم يشعر بالكرامة أو بالعزة أو بالشرف لأن كل هذه المعانى لايمكن أن تجتمع مع أفكار ومشاعر فعل التحرش الدنئ الذى حدث ، فهذا الشباب قد انتهكت كرامته وسلبت إرادته ، واغتصب صوته ، وأهملت احتياجاته ، وهو الآن يرد ولكن فى المكان الخطأ ونحو الضحية الأضعف فى نظره .

ضعف الثقة بالقانون والعدالة :

فمن الغريب أن تحدث كل هذه الإعتداءات على أكثر من امرأة وفتاة على مسمع ومرأى مئات من الناس ولا يصل الأمر إلى أقسام الشرطة أو قاعات النيابة والمحاكم ، فالناس قد تعلموا من خبراتهم السابقة أن الإبلاغ عن مثل هذه الأشياء دون جدوى ، وليس وراءه إلا الفضيحة والبهدلة للضحية وأهلها ، وأن الأمن الإجتماعى قد توارى خلف الأمن السياسى الذى استوعب جهود الشرطة بشكل واضح . واهتزاز هذه الثقة شجع الجناة على الإستمرار فى عدوانهم دون خوف من ردع قانونى ، وجعل الضحايا يبتلعون مراراتهم فى حلوقهم ويؤجلون نيل حقوقهم إلى يوم القيامة ، وبعض الناس يقرر أن يأخذ حقه بيده أو بيد حراس شخصيين أو بلطجية يستأجرهم ، وهذه كلها علامات انهيار للمنظومة المجتمعية لا يفلح معها بيانات رسمية باردة تمارس الإنكار ودفن الرؤس فى الرمال والتغطية والتمويه والتهوين .

المخدرات والمسكرات :

والتى تساعد على إطلاق الدفعات الغريزية وخاصة الجنس والعدوان ، وتضعف الضوابط الطبيعية التى تحول دون انفجار هذه الضوابط . ولا يخفى انتشار أعداد كبيرة من أنواع المخدرات الطبيعية والمخلقة لدى تجار المخدرات وعلى أرفف الصيدليات دون جهود حقيقية ومؤثرة للمواجهة .

سلوك الحشد :

فمن المعروف فى علم النفس أن سلوك الفرد وهو وحده يختلف كثيرا عن سلوكه وهو مندمج فى وسط مجموعة ، ففى الحالة الأخيره تزول مخاوفه وتتراجع محاذيره ويصبح أكثر قدرة فى التعبير عن ما يكمن بداخل نفسه ، والجماهير حين تتجمع بهذا الشكل تصبح أبعد ما تكون عن العقلانية والتريث وحساب النتائج فتأتى بأفعال قد توصف بالطيش أو النزق أو الإندفاع .

وفى وسط الحشد يشعر الفرد بالأمان لأنه الآن جزء من كيان ضخم يصعب عقابه أو مساءلته ، ويتمركز الشخص حول هذا الكيان الضخم أكثر من تمركزه حول ذاته ، ويضعف التزامه بالقيود السياسية أو الإجتماعية أو الأمنية أو الأخلاقية ، ويتوحد مع الجموع الهائجة فى حركة أقرب ما تكون إلى حركة القطيع ، وتصبح العواطف الملتهبة هنا هى سيدة الموقف فتتحرك الجموع بمشاعر الحرمان أو الرغبة أو الظلم أو القمع أو الإحباط أو الغضب .

وسلوك الحشد من الناحية النفسية أشبه ما يكون بالهستيريا الجماعية حيث يبدأ الحشد بفرد أو مجموعة من الأفراد يظهرون حماسا معينا بشكل مؤثر فينتقل هذا الحماس بما يشبه العدوى إلى الأفراد المحيطين بهم ثم تتسع دائرة العدوى بسرعة تتوقف على قدرة المحركين للحماس وعلى الحالة الإنفعالية لبقية الجموع وكل هذا يحدث بشكل غير واع . ولكى يحدث هذا لابد من وجود أرضية مشتركة تدعم انتقال هذا الحماس وتصاعده بشكل تلقائى وسريع ، كأن يكون تحمسا وحبا لفريق كرة معين

أو كرها وغضبا تجاه شخص أو نظام معين ، أو استجابة لشائعة أو فكرة تجد لها فى اللاوعى مقابلا يدعمها ، أو اندفاعا خلف رغبة طال كبتها ، كل هذا يوفر أرضية مشتركة للتحرك الجماعى غير الواعى والذى يفجر طاقات كانت محبوسة فى اللاوعى الفردى والجمعى على السواء .

كانت هذه قراءة مؤلمة لحدث أشد إيلاما ، ولو لم تصلنا الرسائل المتضمنة بين ثناياه فسنواجه فى المستقبل ماهو أخطر منه .

الفصل السابع

شايف العصفوره ؟!

(لعبة الإلهاء والإحتواء)

عصفور من الماضى :

ربطت حزام الأمان فى الطائرة وهممت أن أنام بعض الوقت لكى أستعيد نشاطى بعد يوم مجهد لأكون قادرا على إلقاء بحث فى أحد المؤتمرات الدولية، ولكن صراخ طفل فى المقعد المقابل حرمنى من ذلك، فهو يريد أن يجرى ويلعب فى طرقات الطائرة وأبوه يحاول أن يجلسه فى المقعد المخصص له ويثبته بالحزام، وباءت كل المحاولات بالفشل وفجأة وجدت أباه يشير بإصبعه إلى سقف الطائرة ويقول للطفل شايف العصفورة وراح الأب ينقل إصبعه يمينا ويسارا والطفل مشغول بمتابعة إشارات أبيه يحاول أن يرى هذه العصفورة الشقية كثيرة الحركة، وتعجبت أن يكون من بين ركاب الطائرات فى عام ٢٠٠٦ من يتذكر هذه اللعبة ويستخدمها مع طفله، وحمدت الله على أن أبواى لم يستخدماها معى وأننى لا أستخدمها مع أبنائى وبناتى . وأيا كان الأمر فبعد دقائق سكت الطفل، ولكن النوم راح من عينى وحل محله فى عقلى تساؤلات كثيرة، فهذه العبارة شايف العصفورة استدعت الكثير من الذكريات والأحداث وقد مرت سنوات طويلة لم أسمعها إلا فى تلك اللحظة، ولمن لا يعرف هذا الأمر أقول أن الآباء والأمهات قديما كانوا إذا أرادوا أن يسكتوا طفلا يبكى أو يتعلق بشئ يريده يقولون له شايف العصفوره ويشيرون بأيديهم إلى اتجاهات مختلفة فيتبع الطفل الغرير إشارات أصابعهم علّه يرى العصفورة، وبعد دقائق ينسى الطفل موضوعه الأصلى فيحتويه الكبار فى أحضانهم أو يجلسونه فى حجرهم أويسيرون به إلى حيث يريدون . وكثيرون يرون أنها لعبة بريئة وتعتمد على قانون علمى أكيد وهو أن الطفل يسهل تشتيت أو جذب انتباهه بسرعة وبسهولة، والبعض الآخر يدّعى بأن للعبة استخدامات طبية مفيدة خاصة فى الماضى قبل شيوع

استخدام البنج فى عمليات الختان (الطهور) والخصاء (فى عصور الأغوات) وفى خلع الأسنان أوالعمليات الجراحية حيث كانت هى الوسيلة الوحيدة لتشتيت الإنتباه وتخفيف الشعور بالألم، أو على الأقل التخلص من بكاء الطفل المؤذى له وللمحيطين به (على حد زعمهم) .

ولم أكن متأكدا من العلاقة بين لعبة شايف العصفورة وعادة دق العصافير على جانبى الجبهة أمام الأذنين، تلك العادة التى كانت منتشرة فى قرى وصعيد مصر إلى عهد قريب نسبيا، ولكننى الآن أستطيع وضع احتمال بأن الكبار كانوا يريدون أن ينشغل حامل العصافير أمام أذنيه بمحاولة رؤية العصافير طول الوقت (دون جدوى) بدلا من أن يتعبوا أنفسهم بالإشارة بيدهم (عصافيره منه فيه)، ويبدو أن هذا الهدف كان يتحقق بفاعلية عالية بدليل أن أصحاب العصافير كان يضرب بهم المثل فى الغفلة والسذاجة والقابلية للإستهواء والإحتواء، وربما يكون هذا هو السبب فى إقلاع الكثيرين عن هذه العادة .

سـر اللعبــة:

تذكرت هذا وأنا أشاهد العصافير تملأ صفحات الجرائد وشاشات التليفزيون والكومبيوتر، وكل عصفورة تحمل عنوانا مثير ا فهذه عصفورة الختان وتلك عصفورة النقاب تليها عصفورة الحجاب يتبعها عصفورة العرض العسكرى (أو شبه العسكرى أو الرياضى) لطلاب جامعة الأزهرالمصابين بالأنيميا وفيروس سى ، يسبقها عصفورة جواز التدخين فى نهار رمضان . وهكذا تملأ زقزقات العصافير أذاننا وتتبعها أعيننا فى كل مكان فلا ندرى أين نحن ولماذا جئنا إلى هنا وأين نذهب وماذا نريد .

ولعبة الإلهاء لها أصول ومراحل فهى تبدأ بافتراض الغفلة والسذاجة لدى الضحية ثم تتطور إلى محاولة جذب انتباهه عن مشكلته الأصلية إلى شئ أقل أهمية لكنه أكثر إثارة، وبما أن الضحية يفترض فيه ضعف الذاكرة وتشتت الإنتباه وعدم وضوح واستقرار الهدف الأصلى، لذلك يتوقع القائمون على اللعبة أنه سينسى وينشغل

بوسيلة الإلهاء، وإذا لم يتأكد هذا الإحتمال فإن الضحية يحتاج إلى عملية استهواء، وهى أكثر تعقيدا وإبهارا من الإلهاء فهى تستدعى مقالات وندوات ولقاءات تليفزيونية ومنتديات على الإنترنت ورسائل على البريد الإلكترونى، وإذا لم تفلح عملية الإستهواء يتم اللجوء إلى الإستلاب أو الإغواء، وفى الإستلاب يحتاج أصحاب اللعبة إلى شخصيات كاريزمية لها صفة السحر على الجماهير وقد تكون هذه الشخصيات من رجال السياسة أو رجال الدين أو رجال الإعلام أو نجوم الفن أو لاعبى الكرة، يقومون بتمرير اللعبة لدى الضحايا المستهدفين وهم فى حالة بين النوم واليقظة (أشبه ما يكون بعملية التنويم المغناطيسى) وربما يحتاج الأمر إلى مهارة مخرجى التليفزيون أو منظمى الندوات أو مديرى المنتديات لخلق جو أسطورى أو شبه أسطورى يساعد الشخصيات الكاريزمية على إتمام عملية الإستلاب دون أن يشعر الضحايا أو يتألمون أو ينتبهون، أما الإغواء فهو عملية تحتاج لرشوة الضحايا، والرشوة هنا إما أن تكون مالية (مكافآت أو إكراميات أو علاوات أو انتدابات أو سفريات) أو وظيفية (تعيينات أو ترقيات) أو اجتماعية (تلميعات وصناعة نجوم) أو سياسية (مناصب حزبية أو تسهيلات انتخابية) أو دينية (وعد بالجنة لمن يسمع كلام أولى الأمر ويطيع أوامرهم دون سؤال) أو جنسية (فيديو كليبات على فضائيات عارية أو شبه عارية) . وإذا نجحت كل الخطوات السابقة تكون النتيجة النهائية هى الإحتواء حيث يجلس الضحايا فى حجر القائمون على اللعبة أو يرتمون فى أحضانهم أو يغطون فى نوم عميق بينما تتم عمليات أخرى بلا مقاومة أو ألم، أو ينظر الضحايا إلى العصافير من حولهم أو من فوقهم أومن تحتهم فى دهشة وانبهار حتى تتم عملية الختان أو الخصاء أو الإغتصاب فى سهولة ويسر على الطرفين .

من المصرية إلى العالمية وبالعكس:

وقد تعتقد أن لعبة شايف العصفورة هى لعبة مصرية بالأساس، خاصة أنها نشأت وترعرعت فى البيئة المصرية، ولها شاهد لا يحتاج للكثير من الأدلة العلمية ألا

وهو عادة دق العصافير والتى أتشرف بالشهادة بأننى رأيتها بعينى أمام آذان عدد غير قليل من قاطنى قرى وجه بحرى والصعيد، ولم تختف إلا منذ سنوات قليلة حين أصبح البعض يتساءل فى مواقف الإلهاء والإستهواء مستنكرا ومحتجا : هو انت فاكرنى داقق عصافير ؟!!! . ثم استبدلت العصافير بعد ذلك برقم ١١١ يكتب فى نفس المكان أمام الأذنين، ولست أعرف السر فى اختيار كتابة رقم ١ ثلاث مرات إلا أن أحد المعارضين المشاغبين الظرفاء الذى خرج لتوه من السجن قال لى مازحا : إن هذا يمثل الملك (أو الرئيس) وابنه (ولى العهد) وزوجته، ولم آخذ الأمر حتى الآن على محمل الجد وآثرت أن أترك الأمر مفتوحا لمزيد من الإجتهادات العلمية الأكثر دقة . ولكن يبدو أن اللعبة أصبحت عالمية فقد رأينا بوش حين همّ أن يغزو أفغانستان حاول أن يرينا عصفورة بن لادن وطالبان، وحين نوى غزو العراق أرانا عصفورة صدّام وعصفورة أسلحة الدمار الشامل فى العراق، وحين انفتحت شهيته لغزو السودان لوّح بمشكلة دارفور، وهو يذكرنا بالحاوى الذى يحمل فى جرابه الكثير من العجائب يخرجها واحدا بعد الآخر وهو يحرك يديه حركات سريعة تشتت انتباه المشاهدين حتى يتم الخدعة أو اللعبة بمهارة، ويذكرنا أيضا بلاعبى الثلاث ورقات الذين يحركون الورق بخفة بين أيديهم ثم يظهرون الورقة التى يريدونها فى الوقت المناسب فيصدقهم الرائى بناءا على براعتهم وسرعتهم فى خلط الأوراق . والغريب أن هذه اللعبة رغم انتشارها عالميا على يد بوش وتابعه بلير إلا أنها كثيرا ما تمارس مع العرب بوجه خاص، فكلما أرادت أمريكا أو إسرائيل عمل شئ، قاموا بتغطيته بأى عصفورة ننظر إليها حتى يتموا هذا العمل فى سهولة ويسر وبأقل قدر من الإزعاج لنا ولهم .

هل أكلت البرتقالة ؟؟:

وقد ذكرنى هذا بموقف حدث منذ سنوات حيث كنت أتدرب على طريقة لعلاج بالتنويم المغناطيسى على أيدى معالج نفسى أمريكى، وكان يحضر التدريب ىدد من المعالجين النفسيين بينهم مصريين وعرب، وبدأ المعالج المدرب يطلب من

الحضور عمل بعض أشياء ليست لها علاقة مباشرة بالموضوع، وأنا أعرف من خبرتى السابقة كمعالج نفسى أن المقصود منها تشتيت الإنتباه لتقليل الدفاعات النفسية وتسهيل اختراق الجهاز النفسى وتوصيل الرسائل المطلوبة إليه، ومن هذه الأشياء أنه طلب أن نتخيل أننا نمسك ببرتقالة فى أيدينا ثم نقشر هذه البرتقالة ونأكلها ونستشعر طعمها، وقد هالنى اندماج المصريين والعرب فى هذا الدور بشكل ملفت للنظر مقارنة بغيرهم من الجنسيات (ربما لأن المدرب أمريكى ينطق على الهوى)، وبعضهم خرج يقسم أنه استشعر فعلا طعم البرتقالة، وبعضهم ذهب أبعد من ذلك فجزم بأنه استشعر وجود برتقالة أخرى فى يده الثانية قام بوضعها فى جيبه (والجيب هنا له معان كثيرة فى اللغة العربية اختر منها أيها شئت)، ومن يومها وأنا أتوجس من البرتقال، وأدركت كم نحن أمة قابلة للإلهاء والإيحاء والإستهواء والإستلاب والإغواء إلى درجة الإحتواء، وقررت أن لا أمارس هذا النوع من العلاج التنويمى وفضلت أن أعالج مرضاى وهم فى كامل وعيهم وعقلهم دون استخدام البرتقال أو الموزعلى الرغم من زيادة المشقة .

غربان عبرية :

وقد عرفت إسرائيل هذه الصفة عنا فتجدها تطلق فى كل مرحلة عصفورا (أو بالأصح غرابا) ننشغل بالكلام عنه والهرولة للتباحث بشأنه (آخر هذه الغربان الميتة خارطة الطريق)، ثم تطلق غربان أخرى، وتتوالد الغربان فى الجو ونحن ننظر إليها جميعا ونحاول تتبعها جميعا حتى ننسى الموضوع الأصلى ويصبح تتبع الغربان ومعرفة ألوانها وأحجامها وجنسها هو الهدف، وأثناء هذا الإلهاء والإستهواء تكون إسرائيل قد حققت كل مشروعاتها التى خططت لها منذ البداية فتغلق الملف ونفاجأ نحن باختفاء الغربان وانسحاب المفاوض الإسرائيلى الذى أطلقها انتظارا لدورة غرابية أخرى .

زقـزقة مصـرية:

وحين نتابع الصور فى المشهد المصرى بوجه خاص نرى بيع شركات القطاع العام بأبخس الأسعار، ونرى السكوت عن احتلال العراق وابتلاع فلسطين، ونرى تدمير لبنان أمام أعيننا، ونرى تزوير انتخابات مجلس الشعب وتزوير انتخابات اتحاد الطلاب ونشأة اتحادات موازية تدفع للصراع الدامى بين أبنائنا الطلاب أيا كانت انتماءاتهم داخل الجامعات، ونرى غرق العبارات، وحوادث السكة الحديد، وتعديل المادة ٧٦ من الدستور ثم الشروع فى تعديل التعديل بتعديل يحتاج فيما بعد إلى تعديل، ونرى البطالة والفساد والمظالم الإجتماعية والتوحش الأمنى لسد الفراغ السياسى، كل هذا يجرى ونحن نتلهى أو نستهوى أو نستلب أو نغوى بالعصفورة، ففوق كل حدث من هذه الأحداث كانت تطير عصافير فوق رؤسنا ننشغل بها حتى تتم الصفقة أو العملية أو تمر الكارثة، والجميع يراهن على ضعف ذاكرتنا وقابليتنا العالية لتشتت الإنتباه والإستهواء وأحيانا الإستلاب .

الترفيه غير البرئ وترسيخ الوضع الراهن:

وعمليات الإلهاء والإستهواء والإستلاب والإغواء والإحتواء لا تحتاج فى كل المرات إلى فرقعات ساخنة (كقضية النقاب أو الحجاب أو الإساءة للرسول بالرسوم الكاريكاتورية أو الإستعراض الرياضى أو العسكرى أو شبه العسكرى لطلاب الأزهر، أو التحرش الجنسى فى وسط البلد) بل أحيانا يتم ذلك بواسطة الإتاحة الهائلة لعدد كبير من البرامج الترفيهية والتى تبدو محايدة وبريئة مثل مباريات كرة القدم أو الأفلام والمسرحيات والمسلسلات والكليبات والأغانى، وكل هذه الأشياء تخدر الوعى وترسخ للوضع الراهن وتقتل الرغبة فى التغيير الإيجابى وتوحى بأن الحياة جميلة ومستقرة وبأن مظاهر الرفاهية متاحة على الأقل فى التليفزيون، إضافة إلى أن ملايين البشر يقضون ملايين الساعات أمام التليفزيون وهم فى حالة استرخاء وتلق سلبى تستقبله الحواس ووسائل الإدراك ولا تتحرك بموجبه الجوارح، وهكذا شيئا فشيئا يتعلم الشخص

المشاهد ذلك التعامل الأحادى حيث يرى ويسمع وليس مطلوب منه أن يفعل شيئا، ومع استمرار وطول ساعات المشاهدة يصاب بالهمود الجسدى والفكرى فينام ساعات قليلة ليصحو فى حالة إعياء لا تسمح له بممارسة تفكير نقدى أو عمل منهجى فيصبح مرة أخرى أكثر قابلية للإيحاء فالإستهواء فالإحتواء .

من الحلم البديل إلى الطب البديل ... ياقلبى لا تحزن :

وربما يعتقد بعض الناس أن البرامج الحوارية أو الثقافية بريئة من لعبة شايف العصفورة وهذا بعيد جدا عن الحقيقة فكثير من هذه البرامج يدفع بعصافير تخطف عقل المشاهد الذى أدمن الإستهواء والإستلاب، ويكفى أن تتابع برامج تفسير الأحلام أو الطب البديل لترى كيف تشغلنا هذه البرامج التافهة المضللة عن صنع أحلامنا المستقبلية وعن الطب الأصيل الذى لم نبرع فيه حتى نبحث عن الطب البديل، ويبدو أن التركيبة النفسية للناس أصبحت ترغب فى هذا الإلهاء والإستهواء بدليل الكثافة العالية لمشاهدى هذه البرامج التى تقوم على الفكر الخرافى التعميمى الإختزالى المشوه، وقد سمعت من كثير من الناس عن أحد مفسرى الأحلام العظام فجلست أتابعه عدة حلقات فوجدته يمارس الدجل والشعوذة متسترا بالدين ومتسترا بما يسميه علم تأويل الأحلام ويدّعى انتسابه زورا بالأزهر والأزهر منه براء، ثم تتبعت أحد مشاهير الطب البديل وهو طبيب (أو يدّعى أنه طبيب) فوجدته يمارس هرطقة يلبسها ثوبا شبه علمى فيصف البرطقوش لشخص مصاب بتضخم الطحال ثلاث أضعاف حجمه ويجزم له أن الطحال سيعود لحجمه الطبيعى بتأثير البرطقوش بعد أسبوعين فقط دون أن يسأل ويتقصى عن سبب تضخم الطحال، والغريب أنه يتكلم بثقة عالية يحسد عليها وهى إحدى صفات الدجالين والسيكوباتيين، والأعجب من كل هذا أن ملايين البشر يصدقونه ويتابعونه على الرغم من وضوح دجله وشعوذته ونصبه واحتياله، ويحضر له فى ندواته آلاف البشر وهم مشدوهين وكأن على رؤسهم الطير، فى حين إذا دعى عالم موضوعى يقول الحقيقة ويوقظ العقل لممارسة التفكير النقدى المنهجى الجاد لا يحضر له أحد .

الطوفان وسفينة نوح:

وقد ينصرف ذهنك إلى أن لعبة شابف العصفورة تنجح فقط مع الأطفال الصغار أو مع ضعاف العقول أو القابلين للإلهاء أو الإستهواء أو الإستلاب أو الإغواء (أيهما أسهل)، ولك الحق فى ذلك، إلا أن المدهش فى هذه الأيام أن هذه اللعبة أصبحت تمارس مع شعوب بأكملها، والمدهش أكثر أنك ترى عددا كبيرا من كبار المثقفين والمفكرين ورؤساء تحرير بعض الصحف يجولون بأعينهم فى كل الإتجاهات بحثا عن العصفورة المجهولة، حيث تغيب منهم وعنهم الفكرة المركزية ويندفعون جريا وراء العصافير وبالونات الإختبار وتكثر الثرثرة المملة على الفضائيات وفى صفحات الجرائد حول تفاصيل تافهة وهامشية تستهلك فيها الطاقات فى حين تمر الصفقات بليل .

وريما تظن أن القلة الناجون من شوفان العصفورة من العلماء الجادين المنهجيين أصحاب العقلية النقدية، هم من المحظوظين والسعداء فى مجتمعات تعج بالمتلهين والمستهوين والمستلبين والمغوين والمحتوين، ولكن للأسف الشديد هؤلاء القلة يعانون غربة ووحشة وريما نبذ واستبعاد لأنهم يحاولون إيقاظ النائمين، وعلى رأى الشاعر الساخر اللى يصحى الناس يا ناس أكبر غلط!!.

ولقد فهمت فى هذا السياق إعلان الروائى الكبير بهاء طاهر توقفه عن قراءة الصحف أو متابعة وسائل الإعلام المصرية حفاظا على نقاء أجوائه من العصافير والغربان .

وأكثر وأخطر ما أخشاه أن أكون أنا وأنت عزيزى القارئ قد شاركنا فى البحث عن العصفورة فى وقت من الأوقات، أو ريما نكون الآن شايفين العصفوره !!!!! .

الباب التاسع

نموذجان من الأدب السياسى

١ - عمارة يعقوبيان

٢ - شيكاجو

عمارة يعقوبيان .. بصقة على الذات

رغم ولعى المبكر بقضاء أوقات طويلة فى قراءة الروايات والتى شكلت وجدانى لحد كبير إلا أننى لم أعد أتمكن (أو أحتمل) قراءة رواية طويلة منذ سنوات بسبب مشاغل العمل والحياة وقضاء الوقت بين العيادة والمستشفى والعمل الأكاديمى فى الجامعة أو ربما بسبب السن الذى حين يبلغ حدا معينا يصبح الوقت عزيزا بحيث يصعب التضحية به فى أشياء تستغرق وقتا طويلا ، وأذكر أن آخر رواية قرأتها كانت ساحر الصحراء لباولوا كويلهو (ترجمة عن روايته الكيمياء) وأعتبرها من أجمل الأعمال الروائية التى قرأتها . وبناءا على ذلك كنت أتمنى قراءة عمارة يعقوبيان ولكن يشغلنى عنها ألف شاغل ، ولكن سرعة انتشار الرواية وكثرة ماكتب عنها أغرانى بالمحاولة فقرأتها ولم أجد أى صعوبة فى استكمالها للنهاية ، ربما لجودة فن القص فيها أو لأن المؤلف رسم الشخصيات بشكل صادق ومؤكد فداعب بذلك تخصصى فى الطب النفسى وجعلنى أشعر بتفوق الأدب والفن فى معرفة أغوار النفس بشكل فطرى دون الحاجة للتعمق فى النظريات النفسية ، أو لأسباب أخرى ربما تبدو فى ثنايا الحديث الآن .

واختيار اسم العمارة منسوبا إلى خواجه هو المليونير هاجوب يعقوبيان عميد الجالية الأرمينية فى مصر آنذاك والذى أسس تلك العمارة عام ١٩٣٤ م على الطراز الأوروبى الراقى بواسطة مكتب هندسى إيطالى شهير مع ما تتسم به العمارة من جمال معمارى أوروبى ، لكل هذا دلالة على رغبة واضحة لدى المؤلف لبيان ما سيتم تشويهه بعد ذلك داخل وحول وفوق هذه العمارة وما سيتم من غزوللعشوائيات والقاذورات المادية والبشرية من مفردات الحياة المصرية المعاصرة .

أما الغرف الحديدية الخمسين التى بنيت على سطح العمارة (حين تأسيسها) بعدد الشقق لتكون مكانا لتخزين المواد الغذائية أو مبيتا للكلاب الكبيرة الشرسة أو مكانا لغسل الملابس ، ولم يكن سكان العمارة آنذاك يقبلون مبيت الخدم فيها لاعتبارهم بأنها

لاتصلح بأى حال لسكنى آدميين (حيث كان للآدميين عندهم آنذاك وزن وكرامة)، ولكن بعد الثورة تغيرت الأمور واستخدمتها زوجات الضباط (الأحرار وغير الأحرار) الذين استولوا على شقق العمارة لمبيت السفرجية والخدم وتربية الدواجن ، ثم استخدمت بعد ذلك لسكنى ٥٠ أسرة مصرية ليتحول سطح العمارة الأوروبية الأنيقة إلى حى مصرى عشوائى ملئ بالمتناقضات والتشوهات .

وقد وضع المؤلف جام غضبه فى وصفه لكمال الفولى السياسى والبرلمانى الإنتهازى الذى قضى سنوات طويلة فى العمل النيابى ويتمتع بقدرات هائلة طوعها وشوهها طبقا لتغير اتجاهات المصالح وتغير الأنظمة والأيديولوجيات فى مصر بعد الثورة حتى لقد أصبح اسمه يستدعى إلى ذهن المصريين معنى الفساد والنفاق وتزوير الإنتخابات واستغلال نقاط الضعف لدى النواب والوزراء من خلال ملفات يحتفظ بها لكل واحد منهم ويخرجها عندما يحاول أحدهم أن يرفع رأسه أو يخرج عن الخط المرسوم ، وهو يتقاضى رشاوى كبيرة من المرشحين حتى يضمن نجاحهم فى الإنتخابات بالتزوير والبلطجة ، كل هذا معروف للناس ، ولكن المبهر فى الأمر (على الأقل بالنسبة لى) هو هذا الوصف العبقرى لشخصية أحد أهم رموز الفساد كما جاء فى الرواية على النحو التالى : وكان كمال الفولى يترك فى نفس من يراه انطباعا متضاربا : ذكاؤه وسرعة بديهته وحضوره الطاغى من ناحية ، ومن ناحية أخرى جسده البدين وكرشه المتدلى ورابطة عنقه المفكوكة دائما قليلا وألوان ثيابه البذيئة غير المتناسقة وشعره المصبوغ بطريقة فجة ووجهه المكتنز الغليظ ونظراته الوقحة الشرسة الكاذبة وطريقته السوقية فى الحديث حين يمد ذراعيه أمامه ويحرك أصابع يديه ويهز كتفيه وبطنه وهو يتكلم وكأنه امرأة سوقية ، كل ذلك يجعل منظره فكاهيا على نحو ما (وكأنه يؤدى فقرة لتسلية المشاهدين) ، ويترك أيضا فى النفس إحساسا مبتذلا كريها .

ويبدو استغلال المرأة وانتهاكها جليا فى المجتمع المصرى الذى تصوره الرواية فى شراء الحاج عزام لسعاد جابر تحت اسم الزواج وهو لايريد منها إلا المتعة فى الفراش

مقابل ما يغدقه عليها من مال فهو يشترى شبابها بثروته وهى تبيع له سعادتها مقابل المال الذى تدخره لابنها من زوجها السابق الذى مات أو فقد فى العراق ، وتتبدى معاناة سعاد جابر وامتهانها فى وصف المؤلف لرؤيتها للحاج عزام فى الفراش على النحو التالى : إنها الآن فى الفراش مع الحاج عزام تؤدى مشهدا تمثيليا وهى لا تشعر بشئ سوى الإحتكاك ، مجرد احتكاك جسدين عاريين بارد ومزعج وفى وعيها الحاد القابع فى الخلفية الذى لا يغفل لحظة ، تتأمل جسد الحاج المنهك الذى ذهبت فورته وبان ضعفه بعد شهر واحد من الزواج ، تتحاشى النظر إلى بياض جلده العجوز المجعد وشعيرات صدره القليلة المتناثرة ، وحلمتيه الصغيرتين الغامقتين ، تتقزز عندما تلمس جسده وكأنها تمسك بيديها سحلية أو ضفدعة لزجة مقرفة . وهو قد حرمها من طفلها الوحيد أن يعيش معها وأصر على أن تعيش وحدها فى شقة تنتظره ليقضى معها لحظات متعته لمدة ساعتين كل يوم ثم يتركها تعانى الوحدة وتجتر الذكريات وتتحرق شوقا لطفلها الذى تركته عند خاله لتوفر له المال الذى يعيش به بعد أن ضاقت بها السبل وفقدت كل الفرص للعيش الشريف فى مجتمع لم يرحمها أو يرحم ابنها ووسط رجال يختلفون فى ألوانهم وأشكالهم ولكن يتفقون جميعا على رغبتهم فى انتهاك جسدها وكرامتها تحت ضغط الفقر والإحتياج . والحاج عزام نموذج للمتدين البراجماتى الذى يسخر المظهر الدينى لخدمة أغراضه الشخصية ويسرف فى استخدام اللغة الدينية لتغطية جشعه واستغلاله للآخرين ويعلن بمناسبة أو غير مناسبة أن كل ما يفعله حسب شرع الله أو على سنة الله ورسوله ، ويقوم ببعض أعمال الخير الظاهرة كذبح العجول وتوزيعها على الفقراء أمام محلاته بشكل معلن وصارخ ليغسل فى داخله وخارجه ما علق به من أدران يعرفها هو قبل غيره ، فهو يعيش حالة ازدواجية ظاهرها الصلاح والتقوى والتجارة والعمل الشريف وباطنها – كما اتضح بعد ذلك – تجارة البودرة واستغلال الناس وانتهاك حقوقهم والتحالف مع السلطة بهدف الإحتماء وتحقيق مزيد من الربح ، وهو نموذج شاع فى المجتمع المصرى بشكل متوحش فى العقود الأخيرة . أما النموذج الآخر لانتهاك المرأة فيتبدى فى شخصية الفتاة بثينة السيد الحاصلة على دبلوم التجارة والتى توفى

أبوها وترك الأسرة بلا عائل فخرجت لكى تعمل وتعرضت لمضايقات تطورت بعد ذلك لتحرشات لتصل بعد ذلك إلى كثير من محاولات الإستغلال الجنسى من أصحاب المحلات التى كانت تعمل بها ، وهى قد تعلمت من صديقتها (وبشكل غير معلن من أمها) أن تكون مرنة وأن تحافظ على نفسها وتحافظ فى نفس الوقت على أكل عيشها ، وقد أعطاها ذلك صيغة للتعايش فى هذا المجتمع مؤداها أن تهب جسدها لمن يدفع بشرط أن تحافظ فقط على غشاء بكارتها وكأن هذا هو الخط الأحمر الوحيد لعفتها فى مجتمع يطمع فى جسدها ويضطرها للتنازل حتى لا تجوع أو تتشرد ، ولذلك عبرت فى الرواية عن كراهيتها للبلد ورغبتها فى السفر إلى أى مكان بعيدا عنها ، تلك الحالة من عدم الإنتماء أو ضعفه والتى أصابت الكثير من الشباب المصرى تحت وطأة الإحباطات والتنازلات والفشل فى تحقيق الحلم بوسائل مشروعة تحفظ على الشاب كرامته . وحين فقدت بثينة شعورها بطهارتها ونقائها وبراءتها ابتعدت عن حبيبها طه الشاذلى وتحطم حلمها وحلمه وترتب على ذلك حالة من الكراهية والسخط لديهما تجاه المجتمع عبرت هى عنها بالإنغماس فى الرذيلة وعبر هو عنها بالتطرف والعنف المدمر .

وطه الشاذلى ابن البواب الذى كان يحلم بالإلتحاق بكلية الشرطة ولكنه رسب فى كشف الهيئة بشكل مهين بسبب مهنة أبيه ثم اتجه بعد ذلك محبطا ومرغما إلى الجامعة وهو يحمل فى نفسه ضغينة على المجتمع الذى ظلمه وحطم أحلامه وحرمه أيضا من تحقيق حلمه العاطفى بالزواج من حبيبته بثينة تلك الفتاة البريئةالتى ضاعت فى سراديب المجتمع المتوحش ونهشها الذئاب فى كل مكان ذهبت إليه ، كل هذا جعل طه الشاذلى قابلا للإنتماء لمجموعات دينية تعلن مطالبتها بعزة الأمة الإسلامية ورفض الذل والهوان أمام القهر الأمريكى والتبجح الإسرائيلى ، وكأن طه الشاذلى قد نقل معركته الشخصية التى أذله فيها المجتمع (ممثلا فى لواءات كشف الهيئة فى كلية الشرطة) إلى معركة أكبر وأوسع بين الأمة الإسلامية المقهورة والمضطهدة والمهانة وبين العدو الأمريكى الصهيونى المتغطرس ، ولكنه يفاجأ بالقبض عليه وإذلاله على

أيدى الأمن المصرى وانتهاك شرفه أكثر من مرة بواسطة الجنود تحت إشراف ضابط كبير ، وهنا يتحول العدوان من الخارج إلى الداخل ويصبح الصراع بينه وبين من انتهكوا كرامته وشرفه وأذلوه فيدخل فى حالة ثأر مع النظام ورموزه باعتبارهم كفارا يتحالفون مع رموز الكفر فى الخارج للقضاء على الإسلام ، وهنا يجد من يوظف هذه الرغبة الإنتقامية الجبارة لديه فى صورة عمل عنيف يتم إعداده لتنفيذه من خلال تنظيم دينى مسلح . وتكاد تكون قصة طه الشاذلى نموذجا واقعيا لتفريخ حالات العنف والإرهاب لدى عدد غير قليل من الشباب المصرى الذى دفعه الفشل والإحباط والظلم والقهر والإذلال وفقدان الأمل وفقدان الحلم إلى صفوف التجمعات المنادية بالعنف كوسيلة للتغيير خاصة بعد إغلاق منافذ التغيير السلمى أمامهم .

وتظهر شخصية الشاذ حاتم رشيد والتى أجاد المؤلف رسمها وتوصيفها من الناحية النفسية والإجتماعية ، وحاتم رشيد نموذج حقيقى وواقعى للشذوذ (نراه فى العيادات النفسية وفى الحياة) فليس كل الشواذ ينطبق عليهم الصورة النمطية من الميوعة الأنثوية الظاهرة أو التهتك فى السلوك مع كل الناس أو الوقوف على النواصى لاصطياد الفريسة ، ولكن هناك هذا النمط الذى يمثله حاتم رشيد والذى يقبع فى أعماقه فقد للصورة الوالدية (نظرا لانشغال والده أو غيابه أو غموض دوره أو بهاتة حضوره) وفى مرحلة ما يظهر من يعطيه الحنان الأبوى (على يد خادم أو قريب أو صديق أكبر سنا) ثم تتخطى المشاعر حاجز الأمان ويختلط الحنان بالجنس بحيث يصبح الإحتياج للإثنين إدمانا مزمنا يضع هذا الشاذ فى مأزق الجوع العاطفى والجنسى بشراهة تفوق أى احتياج آخر ، وربما ترجع هذه الشراهة إلى الإحتياج المركب لمشاعر ضرورية وأساسية للإنسان مثل الحب والشعور بالأمان والشعور بالتقدير والحميمية والقرب ، تلك المشاعر التى لم يجدها الشخص فى مصادرها الطبيعية المأمونة والموزونة ولكنه وجدها فى ظروف غريبة دفعته لقبولها والإرتماء فى بحرها بغير تعقل (وهذا تفسير وليس تبرير للشذوذ الجنسى فى نسبة كبيرة من الحالات) . ولقد بالغ المؤلف فى رسم عالم الشواذ ومفرداتهم وأنماط

حياتهم وعلاقاتهم بشكل تفصيلى ربما يزعج كثيرا من قرائه ويشكل تهديدا لبراءة من لم يعرفوا هذا العالم أو يقتربوا منه . وقد يبدو تعاطف المؤلف مع شخصية حاتم رشيد وإبرازه فى صورة الشاذ المحترم الموهوب والمثقف والمهذب والودود ، وربما يريد أن يبرزه أكثر صدقا ونبلا من شخصية تدّعى التدين كذبا مثل الحاج عزام (الذى استغل المجتمع كله وخدعه واستغل جسد زوجته لتحقيق متعته ثم ألقاها فى الشارع بعد ذلك وانتقم منها) ومن شخصية سياسى انتهازى كريه المظهر والمخبر مثل كمال الفولى ، وكأن المؤلف يلقى فى وجه المجتمع كله بصقة إدانة ويسخر من قشرة الفضيلة الخادعة التى يكتسى بها كثير من الناس ويفعلون من خلفها كل الموبقات ، فهى صرخة إدانة أو بصقة إهانة يطلقها المؤلف أو يبصقها فى وجه الذات المصرية المشوهة الكاذبة ، وهو يفعل ذلك بأكبر قدر من القسوة والفجاجة يقدر عليه مؤلف ، وكأنى به (أى المؤلف الدكتور علاء الأسوانى) وقد امتلأت نفسه غضبا وغيظا مما يراه من مظاهر العشوائية والفهلوة والكذب المتدين أو التدين الكاذب والسياسة الفاسدة الكريهة المتحالفة مع رأس المال الإنتهازى وشعبا رضى بالحياة على الهامش أو على سطح العمارة فى غرف حديدية تحد من حريته ومن إرادته يتعاطى الحشيش ويلقى النكات الفاحشة ويغرق فى متع رخيصة مهترئة ويرضى بحياة لا تليق بالحيوانات أو العبيد ، فيجمع كل هؤلاء فى سلة واحدة لكى يبصق عليهم جميعا بلا رحمة ويحتقرهم أكثر مما يحتقر شاذا مثل حاتم رشيد أو سكيرا نزويا مثل زكى بك الدسوقى.

وإذا كان المؤلف قد أظهر احتراما وتقديرا لحاتم رشيد الشاذ فإنه لم يخف فى كثير من المواقف تقديره لشخصية زكى بك الدسوقى ابن الباشا القديم المنتمى للثقافة الأوروبية والذوق الأوروبى والأخلاقيات الأوروبية ، ويعتبره ضحية لثورة مصرية هوجاء عشوائية وبدائية كرست للجهل والتخلف وقلة الذوق والإنتهازية والكذب والقذارة والفحش وأطلقت نزعة دينية مضادة تتسم بالعنف والكراهية للآخر الخارجى والداخلى . وعلى الرغم من ظهور زكى بك الدسوقى فى صورة السكير النزوى الذى

يتتبع النساء الساقطات إلا أنه يبرزه صاحب قلب طيب وقيم نبيلة يترفع بها عن الظلم والإنتقام واستغلال البشر ، وقد نجح المؤلف فى رسم هذه الشخصية بكل تناقضاتها إلى حد كبير كما نجح فى رسم كل الشخصيات التى أوردها فى الرواية بدقة شديدة بحيث تجد فى الحياة الواقعية شخصيات مقابلة بنفس السهولة وتجد فيها نفس التناقضات والتقلبات والتشوهات .

ونلاحظ أن المؤلف كلما اقترب من شخصية غربية أو من بار أو مطعم ينتمى إلى الطراز الغربى نجده يفيض رقة وعذوبة فى وصف النظافة والنظام والرقة والهدوء والدماثة ، وعلى العكس كلما اقترب من رمز أو شخصية أو مكان مصرى أو إسلامى نجد أوصاف القبح والعشوائية والإدعاء والكذب والنفاق والتلوث والقذارة ، وقد يفهم سطحيا من هذا إعجاب المؤلف بالنموذج الغربى وخاصة أنه يورد مفرداته الدقيقة التى لا يعرفها إلا من عاش فعلا هذا النموذج أو اقترب منه وأعجب به ، ولكن من ناحية أخرى يمكن فهم ذلك من خلال رغبة قوية لدى المؤلف لوخز وإيلام الضمير الوطنى المصرى أو الضمير الإسلامى بتلك المقارنة المؤلمة بينه وبين النموذج الغربى الذى نرمى أصحابه بالكفر سواء بشكل مباشر أو غير مباشر .

وثمة حدث له دلالة وهو أن الرواية حين تحولت فيلما سينمائيا تم حشد ميزانية ضخمة لهذا الفيلم وتم تجميع عدد كبير من نجوم الصف الأول للقيام بالتمثيل فيه ، وحين اكتمل الفيلم وجاء موعد العرض الإفتتاحى تم دعوة الكثيرين من رموز المجتمع على المستويات السياسية والإقتصادية والإجتماعية لمشاهدة العرض الإفتتاحى وسط حشد إعلامى غير مسبوق ، وفى هذا احتفاءا بالفيلم القائم على الرواية بكل ما فيها من نقد غاضب ، ومع هذا لم يدع المؤلف (الدكتور علاء الأسوانى) لحضور هذا العرس ، وهذا شئ غريب ، وربما يكون مدلوله أن المجتمع (الرسمى غالبا) يقول للمؤلف : نحن نعلم أن ما قلته يستحق الإهتمام ولكننا غاضبين منك من فرط صراحتك ومن فرط غضبك منا وعلينا ورافضين أن تفرغ الصديد من

جسدنا باستخدام فأس غليظة بدلا من مشرط رقيق ومهذب . وعلى الجانب الآخر نجد المؤلف مصرا على موقفه فى وخز الضمير المصرى وجلد الذات المصرية بل والبصق عليها من خلال أحداث الرواية ، وإفراغ الصديد بفأس غليظة .

وفى النهاية يلتقط المؤلف حدثا معبرا وهو توقيع عقد توكيل السيارات بين الجانب المصرى والجانب اليابانى ليلتقط مغزى هاما نقرأه فى وصف هذا المشهد كما ورد فى الرواية : : وكانت الصورة المنشورة لتوقيع عقد التوكيل فريدة ومعبرة ، يظهر فيها الحاج عزام بقامته الضخمة ووجهه السوقى ونظرته الثعلبية المراوغة وبجواره يجلس المستر ين كى رئيس مجلس إدارة شركة تاسو بقامته اليابانية الضئيلة ونظراته المستقيمة ووجهه المهذب الجاد .. وكأن المفارقة بين مظهر الرجلين تلخص المسافة الشاسعة بين ما يحدث فى مصر وما يحدث فى اليابان .

ولما كان المؤلف يحوى بداخله طاقة من الغضب والرفض تجاه السلبيات والتشوهات والعشوائيات والتناقضات فى المجتمع المصرى فإنه ركز طول الوقت على نماذج مريضة ومشوهة ولم تستطع عدسته التقاط صورة إيجابية أو صورة صادقة واحدة فكل النماذج كاذبة أو مدّعية أو فاشلة أو ناقمة أو محبطة أو شاذة أو منحرفة أو متواطئة ، ولا يستطيع أحد يعيش الواقع المصرى أن يلومه فى ذلك فهذه النماذج تكاد تشكل جزءا هاما من الحياة المصرية فى السنوات الأخيرة ، ولكن هذا لا يمنع من وجود نماذج صادقة وشريفة لا يخلو منها مجتمع وهى جديرة أيضا بالرؤية والتسجيل لأنها تمثل حالة صعود ضد تيار عام يميل نحو الهبوط ، ومن المعروف أدبيا وفنيا وديناميكيا أن الصعود جدير بالإحترام والتسجيل والتقدير أكثر من الهبوط فهو أكثر سموا وشرفا ، ولكن مع هذا نجد أن الأدب غالبا يميل إلى تسجيل نماذج الهبوط والسقوط ربما لكونها أكثر درامية وأكثر تنبيها وإزعاجا ووخزا للضمير العام خاصة حين يتبين أن هذا الضمير أصبح مريضا أو نائما ويحتاج لزلزال يهزه ، وهنا يأتى الزلزال فى صورة رواية مثل عمارة يعقوبيان يحشد فيها المؤلف كل ما يهين الضمير

المصرى العام ويؤلمه من صور جنسية فاضحة وأنماط شذوذ جارحة وغريبة ومحرجة وصور فساد عفنة الرائحة ومظاهر قذارة فى الشوارع وأعلى السطوح وفى النفوس . فالمؤلف هنا يشعر أن المجتمع المصرى الذى يخاطبه غير جدير بالرحمة أو الشفقة أو احترام المشاعر لذلك فهو يعمد لأن يبصق عليه بلا رحمة وأن يجرح مشاعره بلا أدنى تحفظ وأن يهينه بلا أى حرج أو اعتذار ، وأن يخفى إيجابياته وحسناته ويتنكر لها إمعانا فى التنكيل به ، وكأن المؤلف تعمد أن يأخذ القارئ إلى مقالب الزبالة ومحطات الصرف الصحى فى المجتمع المصرى وأبعد عينه عامدا أو غاضبا عن الحدائق والمنتزهات وبقايا النبل والشرف فى نفوس بعض المصريين الذين ما يزالون يحلمون ويحاولون إنقاذ هذا الوطن الغالى مما لحق به من تلوث وتشوه بالكلمة الصادقة الناصحة والنصوحة وبالفعل الإيجابى الصابر والمثابر والمحب.

شيكاجو

(أزمة المغترب عن وطن مضطرب)

لم أعد أجد لدىّ الصبر أو الوقت لقراءة الروايات الطويلة بعد أن كنت أحد المدمنين لذلك النشاط اللذيذ ، واستمر ذلك لسنوات عديدة إلى أن عاودنى الحنين القديم بسبب ثلاث روايات أولاها ساحر الصحراء لباولو كويلهو ، وثانيتها عمارة يعقوبيان وثالثتها شيكاجو والأخيرتين للروائى العنيف والهادر والمحرض د.علاء الأسوانى ، وأقصد بذلك أنه استطاع أن يهز بلادة الإحساس السائدة لدى القارئ المصرى والعربى برؤى جديدة ومقلقة ومحركة ومحرضة. ولن أعلق على الرواية كناقد فهذه ليست مهنتى ، ولكن ككقارئ مصرى حركت (أو تعتعت) الرواية وعيه فى اتجاهات شتى ، ووصلنى منها ما توجب على أمانة القراءة فالكتابة نقله إلى من يهمه الأمر .

اختيار الزمان والمكان :

لماذا شيكاجو ، ولماذا قسم الهستولوجى فى جامعة ألينوى ؟؟

يبدو لى أن شيكاجو بصورتها النمطية (التى قد تكون صحيحة أوغير صحيحة) فى الوعى العربى أنها بلد العصابات ستلقى بظلالا وتوحى بأننا حين نتابع سلوك أحمد دنانه (عميل الأمن) وصفوت شاكر (رمز السلطة الأمنية) ومن وراءهم فإنما نحن أمام عصابة تخطط وتحكم وتتحكم ، ويصل مكرها وكيدها إلى أبعد مكان فى الأرض ، وكأن المؤلف يبعث برسالة مفادها أن هذه العصابة تواصل تعقب المصريين حتى وهم خارج أرضهم وتتدخل فى حياتهم وتحيلها إلى قلق وجحيم واضطراب .

والجديد فى هذه الرواية هو محاولة الرصد للشخصية المصرية ولتفاصيل الحياة المصرية من زاوية بعيدة ومن مكان بعيد حيث وضع المؤلف عدساته وكاميراته

(الدقيقة والخارقة) على الجانب الآخر للمحيط الأطلنطى وهذا يعطى القدرة على رؤى أكثر جدة وربما أكثر غرابة ، ويعطى فرصة لرؤية الحياة المصرية بشكل أكثر وضوحا خاصة بمقارنتها بالحياة الأمريكية ، وقد نجح المؤلف فى ذلك أيما نجاح ، خاصة حين كان يعرض صورا من الحياة المصرية بكل تناقضاتها وعشوائيتها واضطرابها ثم يعرض صورا للحياة الأمريكية أيضا بكل تحدياتها وتناقضاتها ، وقد نجح فى الخروج من التعميم الطفلى الساذج بأن الحياة المصرية شر كلها والحياة الأمريكية جنة البشر ، فالإنسان هو الإنسان ولكل مجتمع حسناته وسيئاته ، والأمر نسبى فى النهاية . وقد استفاد الروائى من اختيار مسرح الأحداث فى شيكاجو لكى يوضح من خلاله جدلية العلاقة بين الشرق والغرب ، وهذا أمر يبدو أنه يشغل المؤلف كثيرا ، ففى روايته السابقة عمارة يعقوبيان كانت الأحداث تدور فى عمارة فى وسط القاهرة ولكن هذه العمارة بناها شخص يونانى على الطراز الأوروبى لتسكنها طبقة أرستقراطية محددة تتبنى نمط الحياة الغربية ، ولكن بعد الثورة انتقل إليها طبقات أخرى من عامة المصريين ونقلوا إليها عاداتهم وتناقضاتهم ، وفى هذه المرة فى رواية شيكاجو نقل المؤلف المسرح بالكامل إلى شيكاجو ليرى هذه الجدلية بين الثقافتين (المصرية والغربية) بشكل أكثر وضوحا .

واختيار قسم الهستولوجى فى كلية الطب له أكثر من دلالة (الهستولوجى يعنى تخصص دراسة الأنسجة) ، فمن ناحية يريد المؤلف أن يقول بأن هذه التدخلات السلطوية تتبع أناسا يعملون فى مجال علمى محايد جدا وبرئ جدا ، فهم يقضون ساعات يومهم ينظرون فى الميكروسكوب ويتأملون الخلايا والأنسجة فى جسم الإنسان ، أى ليس لهم تطلعات مزعجة لأى صاحب سلطان ، مع هذا يضعهم السلطان وأعوانه تحت مجهر المراقبة والتتبع الدقيق لكل تفاصيل حياتهم قبل الهجرة وبعدها .

وإيحاء آخر يصلنا من قسم الهستولوجى ، فبما أنه يعنى دراسة الخلايا والأنسجة فنحن أمام مجموعة من المصريين المبتعثين والمهاجرين كل منهم يمثل

خليـة إنسـانيـة ، ولكن ظروف بلدهم المضطرية تحـول بينهـم وبين أن يكونوا نسيـجـا متناغما ، فكل منهم يسير فى اتجاه ، وعلى الرغم من تلاقيهم فى بعض الأحيان إلا أنه تلاق عشوائى سرعان ما يتباعد بفعل مشكلات وإشكاليات الوطن الأم ، وهذه طبيعة تميز المصريين فى غربتهم فى أى مكان عن أى جنسية أخرى فتجد الكثير من الشحناء والصراعات بينهم بسبب موروثهم من الحياة المصرية المعاصرة المضطربة .

ونلاحظ فى كل الرواية أن علاء الأسوانى يصحب كل شخصية على حده وأحيانا يرتب اللقاء بين شخصين أو أكثر ، ولكن الغالب أن كل الشخصيات تعيش حياة منفردة ومتوازية وأن اللقاءات لحظات عابرة لا ترقى لدرجة التواصل العميق .

الإسراف فى المشاهد الجنسية وتفاصيلها :

وهى سمة واضحة فى الرواية (وفى أدب الأسوانى عموما) ولا تقتصر على تكرار المشاهدالجنسية فى مواقف مختلفة ، وإنما تمتد وتظهر فى الولع الشديد للمؤلف بذكر التفاصيل شديدة الإثارة . وقد يرى البعض هذا الأمر على أنه توجه نفعى صرف يهدف منه المؤلف إلى جذب طوائف واسعة من القراء (حتى أولئك الذين ينتقدون ذلك النهج علنا) ، فالجنس والعدوان هما من أقوى الغرائز فى النفس البشرية ، لذلك يلجأ كثير من الكتّاب إلى جذب القارئ من خلال هذه المشاهد التى تتصل بجذور إحدى الغريزتين الجنس أو العدوان ، والكاتب هنا يكون فى مأمن من الهجوم عليه حيث يستطيع الرد بأنه يتحدث عن نزعات إنسانية ، وأن حديثه عنها ضرورى للنسيج الدرامى لعمله الأدبى . وقد يستبعد البعض هذا التوجه البراجماتى للمؤلف ويحاول أن يرى وظيفة لهذه المشاهد الجنسية العنيفة والمثيرة والمتوحشة بشكل لافت للنظر ، فيقول بأن أبطال الرواية حين يفتقدون إشباعات كثيرة فى حياتهم فهم يندفعون بعنف تجاه المناطق الشبقية فى حياتهم فينهلون منها بنهم الجائع والعطشان والمحروم ، فحين يعيش الناس فى شقاء وغربة وعزلة وحرمان وتعاسة تستيقظ لديهم

المشاعر الجنسية كدافع بدائى عنيف يستوفى منه الشخص كل احتياجاته المحبطة على المستويات المختلفة كنوع من التعويض البديل ، وهذا التفسير يخضع لنظرية الإحتياجات عند أبراهام ماسلو فحين تفتقد الإحتياجات على المستويات التصاعدية الأرقى (الأمن والحب والتقدير الإجتماعى وتحقيق الذات والتواصل الروحى) تستوفى من مستوى الإحتياجات الأدنى (الطعام والشراب والجنس) . وقد يرى فريق ثالث أكثر خبثا أن الإسراف فى المشاهد الجنسية يعود لرغبة كامنة فى الإستعراض والإستعراء . ومن الممكن القول بأن المجتمعات المعاصرة أصبحت مصابة بشراهة جنسية نتيجة ما يعرض من وسائل التلويح والتصريح على كل الوسائط الحديثة ، والرواية تعكس هذا الواقع خاصة وأنها تقوم بتصوير الأشخاص من داخلهم وفى غرفهم المغلقة ولا تكتفى بالتصوير فى الأماكن المفتوحة . وربما يكون ذلك من قبيل العدوان على شخصيات الرواية وعلى القارئ معا بأن يقول لهم الروائى هكذا أنتم تدّعون الفضيلة فى العلن وحين تخلون إلى أنفسكم تنغمسون فى شهواتكم وملذاتكم ، وكأنه نوع من الفضح والتشهير بالإزدواجية الأخلاقية .

الأحلام المجهضة:

حين تتبع شخصيات الرواية تصاب بصدمة حيث تجد أن كل شخصية قد فشلت فى تحقيق السعادة ، وأن كل الشخصيات اندفعت بسبب الظروف الضاغطة والقاهرة فى الوطن الأم إلى نوع من النجاح الأحادى الذى لا يمنح سعادة حقيقية ، فهذا كرم دوس انغمس فى عمله ليحقق نجاحا علميا هائلا فى مجال جراحة القلب كرد فعل على اضطهاده فى بلده مصر وحرمانه من وظيفته الجامعية التى كان فيها ، ولكن حياته بدت بعد هذه السنوات خالية من الزوجة والأولاد وخالية من أبعاد إنسانية كثيرة . والدكتور محمد صلاح أستاذ الهستولوجى المرموق فى جامعة ألينوى لا يشعر بطعم نجاحه فى بيئته الغريبة ويحاول أن يتواصل تليفونيا بأصدقائه القدامى ليستشعر معهم طعم نجاحه ، وكأنه يريد أن يتذوق النجاح بالنكهة المصرية ، ويدفعه

هذا لأن يعيش الحياة المصرية فى عزلته حيث يلبس ملابسه القديمة ويستمع إلى الأغانى المصرية القديمة ، ويشعر بالفشل الجنسى والإنسانى مع زوجته الأمريكية كريس ويحاول العودة إلى حبه المصرى القديم زينب رضوان لعله يوقظ مشاعره السابقة . وحين لاحت أمامه الفرصة ليلقى بكلمة حق أمام الرئيس إبان زيارته لشيكاجو ويتخلص من خوفه القديم ومن إحساسه بالعار ومن إحساسه بالدونية أمام وطنية وجرأة حبيبته زينب رضوان نجده يتخاذل مرة أخرى فى اللحظة الحاسمة ويخرج من جيبه ورقة مليئة بالمدح للرئيس وبعدها لا يحتمل صورة ذاته الضعيفة المستسلمة الخائفة الذليلة فيتوجه بعدوانه نحوها وينتحر رغم ما حققه من نجاح علمى فى مجال تخصصه ، وقد كان يعتقد أن فى النجاح العلمى تعويض عن الموقف الوطنى ولكنه اكتشف أن هذا غير صحيح وعاوده صوت زينب رضوان وهى تعترض على هذه المقولة (المهرب) التى تراود كثيرين من الناس حين يحتمون بإنجازاتهم وتفوقهم العلمى من مواجهة مواقف حياتية تحتاج إلى تكلفة لا يقدرون عليها . أما ناجى عبدالصمد (ذو التوجه اليسارى) ، والذى يلقى عليه الكاتب غلالة من الأهمية والإعجاب على مواقفه المعارضة ويضع أقواله ببنط عريض طوال الرواية (فى حين يبرز الروائى المتدينين فى صورة سلبية على أنهم مدّعين ومستغلين للدين) ، فهو أيضا محبط ولم يستطع تحقيق أى من أهدافه الثورية أو حتى الأدبية . وأحمد دنانة (رئيس اتحاد الدارسين المصريين وعميل المباحث) ، الشخصية الكريهة التى صب عليها المؤلف جام غضبه وقرفه واشمئزازه ، ونجح من خلال وصفه الدقيق أن يستعدى عليه القارئ بشكل قوى ليكرهه ويلعنه طول الوقت ويلعن من وراءه ومن استخدمه ، هذه الشخصية الكريهة والتى نقلت كل مساوئ المجتمع المصرى وكل مساوئ الممارسات السلطوية الأمنية إلى شيكاجو ، وتتبعت تفاصيل حياة المبتعثين والمهجرين المصريين وتحكمت فى رقابهم من خلال الترغيب والترهيب والضغط بإمكانية اضطهاد وتعذيب أهليهم فى مصر ، هذه الشخصية بكل بشاعتها وتشوهها وانتهازيتها وتزويرها نجدها فى النهاية تخسر حياتها العائلية وتتحول إلى حذاء فى

قدم صفوت شاكر رمز السلطة . وصفوت شاكر نفسه ، على الرغم مما قام به من تعذيب واضطهاد وتحكم فى رقاب العباد فى مصر وفى شيكاجو إلا أن أحلامه لم تتحقق فى أن يكون وزيرا أو أن يتبوأ منصبا أعلى ، ولم يتبقى له إلا كراهية الناس ودعوات المظلومين والمقهورين عليه . وقد احتفظ المؤلف للرئيس بشحنة هائلة من العدوان اتضحت فى الصورة الأدبية التى رسمها له ، ثم فى موقف المصور له أثناء الزيارة وإعلانه بأنه أصبح خارج الكادر ، ثم إحباطه حين لوح للواقفين مقابل باب القنصلية ظنا منه أنهم وقفوا لتحيته ثم اكتشف أنهم يتظاهرون ضده ، كل هذا يضع شخصية الرئيس فى خانة الأحلام المجهضة شأنه شأن بقية الشخصيات فى الرواية ، وهكذا تختتم الرواية دون أن ينجح فيها أحد ليبقى الناجح الوحيد هو مؤلف الرواية الذى جذب اهتمام كم عدد هائل من القراء حين هضم الشخصية المصرية وكل مساوئ الحياة المصرية فى الداخل والخارج وأخرجها لنا فى ثوب أدبى جميل ومؤثر ومنفر معا .

العنصرية:

وإذا كان المؤلف قد صدمنا بسلبيات الحياة المصرية فى الداخل والخارج إلا أنه أيقظنا على مساوئ الحياة الأمريكية بالمقابل أو بالتوازى وذلك من خلال شخصية كارول الفتاة الأمريكية السوداء التى تعانى من عنصرية المجتمع الأمريكى ونبذه لها إلى الدرجة التى تجرح مشاعرها الإنسانية جروحا غائرة ومتكررة وتضطرها فى النهاية لأن تجعل جسدها وسيلة للترويج لبعض السلع التجارية ثم تبيع هذا الجسد لصاحب الشركة ، ويستغلها فرناندو الشاذ كمادة إعلانية تسويقية يبتذلها كيفما شاء مقابل لقمة عيشها وعيش ابنها . إذن فليس صحيحا أن المجتمع الأمريكى فى السنوات الأخيرة قد تخلص من عنصريته على الرغم من القوانين التى تجرم تلك النزعة إلا أن العنصرية ما زالت رابضة وقوية فى نفوس الأمريكيين البيض يمارسونها بشكل فج وجارح ولكن لا يضعهم تحت طائلة القانون . وهكذا لا يجد غالبية السود غير الفقر

والجهل والمرض والجريمة فى أحيائهم الفقيرة ويتحولون إلى قنبلة موقوتة تهدد سلام المجتمع الأمريكى من خلال الجريمة الفردية أو المنظمة .

أزمة الجيل الثانى :

على الرغم من كراهية الدكتور رأفت ثابت (المصرى المهاجر ابن الباشا الذى يحمل ضغينة فى نفسه لثورة يوليو ورجالها الذين سلبوه وأهله ثرواتهم بغير حق) لكل ماهو مصرى أو عربى ، ومحاولة اندماجه الكامل فى الحياة الأمريكية وإعجابه بها كنموذج للحياة المنطقية المنظمة والهادفة والناجحة والطموحة والصاعدة إلا أنه يواجه امتحانا صعبا حين تكبر ابنته سارة وتمارس حريتها على الطريقة الأمريكية وترافق شابا أمريكيا فقيرا وصعلوكا جيف يعيش فى أحياء الزنوج المليئة بالفقر والجريمة وتعاطى المخدرات . ويشكل هذا امتحانا قاسيا لرأفت ويجد نفسه وجها لوجه أمام الجانب الآخر للحياة الأمريكية ذلك الجانب الذى لم يكن يعيه وهو يتنقل فى أروقة الجامعات والمعامل المتطورة ويتعامل مع العلماء وعلية القوم . هاهو الآن أمام رغبة ابنته فى التحرر الكامل وفى اختيار من تصاحب وفى اختيار سلوكها بما فيه تعاطى المخدرات ، وهنا يستيقظ الرجل الشرقى مرة أخرى داخل الدكتور رأفت ثابت فى محاولة لاستعادة ابنته على الطريقة المصرية والعربية والشرقية ولكنه يفشل فى ذلك ويتأكد بأن الحياة الأمريكية التى عشقها وانبهر بها وعبدها هى حزمة على بعضها لا بد وأن يأخذها بحلوها ومرها .

الأحادية والإختزال الإنسانى :

من خلال شخصيات الرواية يشير المؤلف بقوة إلى سمة أصبحت سائدة وهى أحادية الرؤية وأحادية الإدراك وأحادية السلوك فشخصية طارق حسيب تعكس هذا الموقف حيث تبدو خالية من الأبعاد الإنسانية وهاربة من التواصل البشرى ومكتفية بالدراسة والتفوق ثم الإفراغ الذاتى للطاقة الجنسية ليلا بطريقة آلية وخالية من التفاعل الإنسانى . وحين لاحت له شيماء المحمدى حدث التواصل بعد محاولات

مقاومة من الطرفين ولكن هذا التواصل توقف عند مستوى الإشباع الغريزى عند طارق حسيب ولم يتحمس لتطويره إلى مستويات أخرى إلا فى نهاية الرواية . ونرى شيماء المحمدى فتاة قادمة من طنطا لا تعرف فى الدنيا غير دراستها وعبادتها (بشكل طقوسى مختزل) تفاجأ فى شيكاجو بأبعاد أخرى للحياة الإنسانية وتحاول التكيف معها بصعوبة فتقع فى المحظور وهى تحاول فى كثير من المراحل أن تبرره ليوائم منظومتها القيمية التى عاشت عليها ، ويحدث الإنهيار فى النهاية بسقوطها فيما عاشت تتحرز منه بكل دفاعاتها . وناجى عبدالصمد اليسارى الثورى المضطهد فى بلده والوحيد فى غربته والذى لا يجد نفسه فى دراسته ولا حتى فى هوايته ويعجز عن الإنجاز الحقيقى على أى مستوى لذلك يفشل فى تحقيق أهدافه ويفشل حتى فى توصيل رؤيته المعارضة بسبب عزلته ورفض بقية الناس لتبنى رؤيته والدفاع عنها أو عنه ، ويبقى وحيدا يجتر مرارته ويواجه احتمالات بطش السلطة به دون ظهر يحميه أو يحمى أسرته ، ويظل يراوح مكانه بلا قدرة على التغيير سوى أبيات قليلة من الشعر المتواضع لا يهتم بها أحد ، وكأنه يجسد أزمة اليسار وعزلته وإحباطه وضعفه على الرغم من شعاراته الرنانة والبراقة والموغلة فى المثالية . وفى المقابل كان المؤلف يرى الملتحين والمتدينين فى صورة سلبية سياسيا واجتماعيا ، وربما لا يراهم أحيانا كثيرة ، وهذا عكس الواقع القائم والذى يشكل فيه الإسلاميون المعارضة الحقيقية ويشكلون قوة الحراك الأساسية ويساهمون بقوة فى صنع الأحداث فى السنوات الأخيرة ، ولكن –كما ذكرنا – فإن المؤلف لا يوجه عدساته إلى هذا الفصيل الهام فى روايته .

أما أحمد دنانة فهو مثال للشخصية الريفية المتسلقة الإنتهازية والتى تخلو من أى ملكة أو موهبة لذلك تتطلع بطمعها الفطرى إلى السلطة تعرض عليها نفسها وخدماتها مقابل تحقيق أهدافها فى الصعود ، فيقوم بدور العميل السرى للمباحث فى الأوساط "الطلابية وفى أوساط المبتعثين والمهاجرين . والسمة السائدة فى هذه

الشخصية هى الإدعاء فهو يلبس مسوح المصرى المتمسك بقشور الدين والذى يستخدم الرموز والنصوص الدينية فى غير محلها ، ويدّعى فى ظاهره غير ما يحمله فى باطنه ، وهو يخلو من أى صدق إنسانى أو كرامة إنسانية ، ومستعد لأن يبيع نفسه وكرامته وشرفه لمن يستخدمونه ، فهو يقوم بدور حذاء السلطة الأمنية فيتجسس على زملائه فى الجامعة ويكتب عنهم التقارير ويواصل هذا الدور الدنئ والقمئ فى شيكاجو وينقل كل أدرانه ومساوئه وادعائه إلى حيث يعيش وسط المبتعثين والمهاجرين فى شيكاجو ويلوث حياتهم بشكل يدعو للإشمئزاز .

والدكتور محمد صلاح الذى لا يشعر بطعم النجاح فى البيئة الأمريكية ويشعر بالندم على قرار الهجرة ويخرج من كل هذا بممارسة الإبحار فى الماضى عله يجد معنى يجتره من حياته السابقة ، فهو يشعر بفتور وعجز جنسى تجاه زوجته الأمريكية كريس ، ولم ينجب أطفالا ينشغل بهم وبمستقبلهم ، ولا يجد فى حياته ما يملأها ويبدد وحشتها .

وصفوت شاكر (رجل الأمن) يفعل كل شئ من أجل إرضاء رؤسائه ومن أجل الترقى فى المناصب الأمنية فيعذب المعتقلين وينتهك أعراضهم ثم ينتهك أعراض نسائهم ، ويترقى فعلا فى المناصب إلى أن يذهب للعمل فى القنصلية المصرية فى شيكاجو ، ويحيل حياة المصريين هناك إلى جحيم بما يمارسه ضدهم من تتبع ومراقبة وتهديد بإنهاء بعثاتهم أو تعذيب أهليهم فى مصر ، فهو يمثل نموذجا كريها للسلطة المستبدة الطاغية المتحللة من كل المبادئ والقيم الإنسانية ، وهونموذج سائد وشائع فى دول العالم الثالث وخاصة فى العالم العربى .

ولا يتوقف الإختزال وأحادية الرؤية على الشخصيات المصرية فى الرواية ، بل يتبدى فى شخصية كريس زوجة الدكتور محمد صلاح ، وهى الأمريكية التى فقدت الدفء الزوجى مع زوجها ولم تجد فى حياتها شيئا ذا معنى ، فذهبت تبحث عن شئ يؤنسها أو يمتعها فلم تجد إلا ال فيبريتور تستخدمه كبديل للعضو الذكرى المفقود

تحصل منه وبه ومعه على لحظات استمتاع حسى صناعى لا تجد فى حياتها سواها ، وهذا ربما يمثل ما يسمى بثقافة الفيبريتور فى المجتمع الأمريكى وفى المجتمعات الحديثة على وجه العموم ، ففى تلك المجتمعات حين يسود الإحساس بالوحدة والإحساس بالتعاسة يبقى التفريغ الجنسى الذاتى هو الخيار المتاح لتحقيق لذة وقتية خاصة حين تغيب المعانى العميقة والممتدة عن الوعى الإنسانى .

السلبية والخوف والتثبيت لدى المصريين :

لا تتوقف سمات السلبية والخوف عند عامة المصريين وإنما تمتد لنخبهم وصفوتهم ، فهاهم المبعوثين والمهجرين من صفوة العلماء يخشون التوقيع على البيان الذى أعده نفر منهم لإلقائه أمام الرئيس إبان زيارته لهم ، وهاهو الدكتور صلاح بعد أن وافق على الخطة المعدة لقراءة البيان يعتريه الخوف فى اللحظات الأخيرة ويتلو بيانا ممتدحا وموافقا للسلطة على الرغم من ضعف احتمالات تعرضه للأذى فى موقعه العلمى ووجوده خارج مصر كمواطن أمريكى ، ولكنه الخوف الرابض داخل الشخصية المصرية تجاه السلطة لم تنجح السنين أو الظروف فى محوه أو التخفيف منه .

والمصريون يفتقدون القدرة على التحرر من تراثهم القديم فيظلون أسرى له ويفشلون بسبب ذلك فى الإندماج فى المجتمع الجديد الذى هاجروا إليه ، فهم يمارسون حالة من التثبيت وأحيانا حالة من النكوص فيحرمهم ذلك من النظر إلى خارج ذواتهم والتفاعل معه بشكل إيجابى . والرواية تعكس تعاسة الشخصية المصرية فى التعامل البينى مع المصريين وفى التعامل مع الثقافات الأخرى ، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى ما تحمله الشخصية المصرية من آثار الخوف من السلطة والإستبداد ومن طول التعرض للظلم الإجتماعى وآثار الإضطهاد فى الجامعة أو فى الوظيفة ، فغالبا لا تستطيع الخلاص بسهولة من كل هذا الإرث حتى وهى تعيش الحياة الأمريكية ، ويضاعف من هذا ملاحقتها بالعملاء السريين فى صورة موظفين فى السفارة أو القنصليات أو رؤساء للجالية المصرية أو حتى مبعوثين مندسين وسط

زمــلائهم . والمجـتــمع المصـرى المضطرب فى الداخل يأبى إلا أن يصـــدر رؤاه وصراعاته وانشقاقاته إلى أبنائه الذين يعيشون فى الخارج على بعد آلاف الأميال ، وكأن هذا يبدد أوهام من يعتقدون أنهم يهربون من بلادهم المضطربة لكى ينجو بأنفسهم من صراعاتها ومشكلاتها ، فقد يبدو هذا سرابا فى العصر الحالى مع سهولة الإتصالات والمواصلات والإختراقات .وهكذا يصبح الوطن المضطرب فى داخل أبنائه المغتربين ليس شوقا وحنينا وحبا وإنما ألما وخوفا وغضبا . وهذه الأزمة تشبه فى بعض جوانبها الأبناء الذين يتركون بيتهم بسبب تفكك الأسرة وصراعاتها المؤلمة ، فهم كانوا يتمنون العيش فى كنفها الدافئ والراعى ، ولكن حين فقد الدفء وفقدت الرعاية خرجوا إلى الشارع وهم يحملون مشاعر متناقضة تجاه الأسرة التى احتضنتهم فى مرحلة من المراحل ثم أخلت بالتزاماتها بقية المراحل .

الخاتمة

قد يتفق البعض أو يختلف حول ما ورد فى هذه الدراسة، ولكن الأمل هو أن يتحرك الفكر والوجدان فى اتجاه تصحيح ما اضطرب فى حياتنا بسبب اضطرابات البعد السياسى وما يتعلق به من مستويات وجوانب ومسارات فى حياتنا، فالسياسة ليست قاصرة على القيادة السياسية وما يحوطها من نخبة، وإنما هى أولا وأخيرا إدارة حياة الناس، وحين اضطرب مفهومها فى عالمنا العربى والإسلامى اضطرب معه كل شئ، ولا يمكن تصور إصلاح حقيقى بدون إصلاح مفهوم السياسة، بمعنى إصلاح النظام السياسى، وإصلاح العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

ولم يكن فى القصد إشارة لأشخاص أو نظم بعينها بقدر ماكان الهم الأول هو الإستفادة من عناصر القوة وعناصر الضعف فى حياتنا وأخذ الدروس من خبراتنا التاريخية والحالية، وأن أى نماذج وردت فى هذا السياق إنما كانت للعبرة والإستفادة وليست لغير ذلك فالعلم الحقيقى لا يعرف التحيز أو التعصب، وإنما يبحث دائما عن الحقيقة الموضوعية بهدف إسعاد البشر، كل البشر .

صدر للمؤلف

١- العلاج النفسى فى ضوء الإسلام ١٩٩٠ - دار الوفاء - المنصورة.

٢- الصحوة الإسلامية (دراسة نفسية) ١٩٩٢ - دار الوفاء - المنصورة.

٣- العلاج الشعبى والطب النفسى: صراع أم وفاق ١٩٩٤- أورفو للطباعة - المنصورة.

٤- المدمن بين مستويات اللذة والألم ١٩٩٥ - أورفو للطباعة - المنصورة.

٥- المخدرات والجنس ١٩٩٥ - أورفو للطباعة - المنصورة.

٦- الصحة النفسية للطفل (طبعة أولى موجزة) ١٩٩٩ - القبطان للطباعة - المنصورة.

٧- النوم والأحلام فى الطب والقرآن ٢٠٠١ - دار اليقين للطباعة والنشر - الاسكندرية.

٨- سيكولوجية الصهيونية ٢٠٠١- البيطاش للطباعة والنشر - الاسكندرية.

٩- مستويات النفس ٢٠٠٢ - البيطاش للطباعة والنشر - الاسكندرية.

١٠- سيكولوجية الدين والتدين ٢٠٠٢ - البيطاش للطباعة والنشر - الاسكندرية.

١١- الصحة النفسية للمرأة: الطبعة الأولى: ٢٠٠٣ - البيطاش للطباعة والنشر - الاسكندرية- الطبعة الثانية ٢٠٠٧م، دار اليقين للنشر والتوزيع بالمنصورة.

١٢- المرض النفسى بين الجن والسحر والحسد ٢٠٠٥ - صدر عن الجمعية الإسلامية العالمية للصحة النفسية.

١٣- البناء النفسى للمسلم المعاصر ٢٠٠٥ - أريج للنشر والتوزيع.

١٤- فن السعادة الزوجية ٢٠٠٦- مكتبة الأنجلو المصرية.

١٥- الصحة النفسية للطفل ٢٠٠٦ - مكتبة الأنجلو المصرية.

١٦- دراسة نفسية لأحلام نجيب محفوظ ٢٠٠٦ - مكتبة الأنجلو المصرية.